

أصحاب الأثر | إمام الثبات

أحمد بن حنبل



مدارج السير

أصحاب الأثر

أحمد بن حنبل

إمام الثبات

تأليف وتوزيع مدارج

الإهداء

إلى من أحبّ الصالحين، وتمنى أن يجد في يومه شيئاً من صدقهم؛
إلى طالبٍ يطول عليه الطريق، وأبٍ يحمل همّ بيته، وصاحبٍ يريد
أن يحفظ للصحة حقها.

هذه صفحات من حياة أحمد: فيها مجلس العلم، ودفء البيت،
ومشقة الطريق، وفيها من الصبر ما يعين القلب حين يثقل عليه ما
يحمل. نرجو أن تقرّب إليك الرجل، وأن تفتح لك من معرفته باباً
إلى عمل صالح.

فهرس الكتاب

6	تمهيد: الرجل الذي وراء الاسم
8	الباب الأول: العالم الذي أحاط به
9	الفصل الأول: العالم الذي جاء إليه
17	الفصل الثاني: عالم يتبدل
20	الفصل الثالث: أهل الكلام وأهل الحديث
23	الفصل الرابع: بغداد التي لم تبق على حال
26	الفصل الخامس: كيف كان الحديث يجمع في زمانه
29	الباب الثاني: الصبي والطالب
30	الفصل السادس: الثوب الذي أمسكت به أمه
38	الفصل السابع: عند هشيم: سنوات الإصغاء
43	الفصل الثامن: الجراب الذي صار وسادة
57	الفصل التاسع: الفقيه الذي يتعلم
69	الفصل العاشر: أحمد والشافعي
73	الفصل الحادي عشر: بيت فيه خبز وأطفال
85	الفصل الثاني عشر: ليل يدعو فيه لأصحابه
90	الفصل الثالث عشر: ورع له يد سخية
95	الفصل الرابع عشر: بشر وهيبة وحلم
100	الفصل الخامس عشر: حين يكون الحق لغير القريب
107	الباب الثالث: المحنة

108	الفصل السادس عشر: ما الذي كان يدافع عنه؟
112	الفصل السابع عشر: حين صار السؤال أمرا
117	الفصل الثامن عشر: الأسماء التي صارت في الرقاع
125	الفصل التاسع عشر: من كثير إلى اثنين
130	الفصل العشرون: محمد بن نوح: الرفيق الذي لم يرجع
135	الفصل الحادي والعشرون: الصلاة في القيد
148	الفصل الثاني والعشرون: المجلس الذي ضاق بالدليل
155	الفصل الثالث والعشرون: ما بقي من الصوت تحت السوط
161	الفصل الرابع والعشرون: الجرح الذي لم يمنعه العفو
165	الفصل الخامس والعشرون: حين أغلق باب البيت
170	الفصل السادس والعشرون: حين تغيرت الرسائل
176	الفصل السابع والعشرون: مائدة القصر وباب العودة
182	الفصل الثامن والعشرون: الوزير في المطر
184	الفصل التاسع والعشرون: ورع الأب وحاجة الأولاد
189	الفصل الثلاثون: جواب لم يكتبه السوط
203	الفصل الحادي والثلاثون: المحنة في الأمصار
208	الفصل الثاني والثلاثون: أحمد والسلطان
212	الفصل الثالث والثلاثون: الذين أجابوا والذين اختلفوا معه
220	الفصل الرابع والثلاثون: الهجر والعذر: علي بن المديني ويحيى بن معين
228	الباب الرابع: الإمام العالم

229	الفصل الخامس والثلاثون: العلم الذي بقي في الأجوبة
235	الفصل السادس والثلاثون: الدفاتر التي خرجت من البيت
244	الفصل السابع والثلاثون: حين يصير العلم جواباً لحياة الناس
254	الفصل الثامن والثلاثون: ناقد الرجال
260	الفصل التاسع والثلاثون: كيف تقرأ المسند؟
264	الفصل الأربعون: الصحابة في قلبه
268	الباب الخامس: العابد والإنسان
269	الفصل الحادي والأربعون: من أيامه
275	الفصل الثاني والأربعون: الثوب والخبز وحرمة الدرهم
285	الفصل الثالث والأربعون: الورع في فتواه
290	الباب السادس: الرحيل وما بقي
291	الفصل الرابع والأربعون: الصبيان عند الفراش
297	الفصل الخامس والأربعون: المدينة التي مشى خلفه
302	الفصل السادس والأربعون: ما بقي بعد أن خلا المكان
305	الفصل السابع والأربعون: ما قاله فيه أهل زمانه
308	باب: الأقوال والوصايا المأثورة
324	القسم العملي
343	الملاحق
375	وثائق المحنة — رسائل المأمون كما رواها الطبري

تمهيد: الرجل الذي وراء الاسم

كان في ظهر أحمد بن حنبل أثرٌ رآه حفيده.

حفظ زهير آثار الضرب في جسد جده، وحفظت أخبار أخرى عطاياه للصبيان ومشاركته الضيف طعامه. مضت أعوام المحنة، وبقيت السياط مكتوبة في الجسد؛ وبقي في البيت جد يتفقد صبيانه، وصاحب يتسع طعامه لضيفه.¹

سنمضي إلى المحنة من الطريق الذي مضى فيه: بيت تولته أم، ومجالس طال فيها الإصغاء، وسفر ضاقت فيه النفقة، وليال كان أكثر ما فيها بينه وبين ربه. هناك يتكون الرجل الذي سيحمل القيد، ويعود جريحاً، ويبقى له بعد الألم علم يعلمه وأهل يرعاهم. في هذه الصحبة يروي صالح ضيق البيت وحاجات العيال، ويسأل عبد الله فيفتح له أبوه أبواب علمه، ويحفظ حنبل والمروزي شيئاً من دقيق خلقه وسمته. تتصل أصواتهم بصورة الإمام، ويقرب كل صوت باباً من حياته.

يد أم تمسك بثوب ولدها، وجراب كتب يصير وسادة، وقيد يحمله صاحبه، وعفو يخرج من رجل لم يزل يتوجع؛ من هذه الأخبار

يقترّب أحمد إلينا. عظمت منزلته، وبقيت في سيرته تفاصيل
الإنسان الذي حمل العلم وعاش به.

هذه صحبة عالم من أئمة المسلمين، نعرف بها كيف تعلم وعاش
وعبد ربه وصبر. يتسع الثبات في حياته لما قبل المحنة وما بعدها،
ويتسع العلم للبيت والمجلس والطريق.

الباب الأول: العالم الذي أحاط به

الفصل الأول: العالم الذي جاء إليه

ولد أحمد في بغداد، والمدينة لم يطل بها العمر بعد. جاءت أسرته من مرو إلى دار الخلافة الجديدة، فصار البيت الصغير داخل مدينة تحمل طموح دولة واسعة. في طرقها ومجالسها سيبدأ الطفل التعلم، ومنها سيخرج طالباً، وإليها سيعود بما حمل من الحديث. X^2 لم يولد أحمد في قرية بعيدة عن حركة العالم، ثم يدخله القدر فجأة إلى أخبار الملوك. ولد في مدينة صنعت لتكون مركزاً، ورأى في طرقها من تنوع الناس ومطالبهم ما يراه أهل الحواضر الكبرى. كان القرار يأتي إليها من الأقاليم ويخرج منها، والعالم يقصدها ليلقى عالماً آخر، وصاحب الحاجة يقصدها ليدنو ممن يملك قضاء حاجته.

مدينة على طريق الماء

اختار المنصور موضع بغداد لما حوله من موارد ومسالك، وما يأتيه من خيرات البر والماء. يصف ابن كثير، ناقلاً أخبار بنائها، اختبار الموضع وتقسيم العمل وجمع الصناعات والمهندسين. X^3

٢ — ابن كثير، البداية والنهاية، حوادث سنة 146 هـ 13/387-404، في الترتيم المعروض بإسلام ويب؛ والذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/177-179.

كان قرب الماء طريق تجارة ونقل وحياة، كما كان جزءاً من حماية المدينة. وحين نقرأ بعد ذلك انتقال أحمد في زورق، أو عبوره بين موضع وآخر، لا تكون دجلة منظرًا أضيف لتجميل الحكاية؛ تكون من جغرافية حياته الفعلية. تحمل البضائع والناس، ويستعملها الحاكم، ويستعملها الشيخ الراجع من سامراء إلى بيته.

والمدينة التي تجمع الثروة لا توزعها بالتساوي على أهلها. في حياة أحمد سيظهر غلاء يجعل غزل زوجته قوتاً للبيت، وطالب يريد الرحلة ولا يجد نفقتها، ومحتاج يطرق باب عالم لا يملك إلا القليل. وإلى جوار ذلك ستظهر مائدة يرسلها الخليفة بنفقة عظيمة. كلا المشهدين من العصر نفسه؛ لا يفسر أحدهما وحده ما كان عليه الناس.

ولهذا لا تكفي كلمة «ازدهار» لوصف العالم الذي نشأ فيه. الازدهار يفتح مجالس وطرقاً وفرصاً، لكنه لا يلغي حاجة الأرملة، ولا يجعل الكآب والسفر متاحين لكل طالب. كان على أحمد أن يدبر نفقته، وأن يختار أين يذهب، وأن يصبر حين لا يستطيع بلوغ شيخ يريد سماعه.

٣ — البداية والنهاية، 13/387-389 حوادث بناء بغداد. تتضمن أخبار المدينة كذلك أعداداً ضخمة لا يعتمد عليها هذا الكتاب إحصاء محققاً.

أصوات في مدينة واحدة

كانت العربية لغة القرآن والحديث والفقه والأدب، وكانت بغداد ملتقى أناس من أصول وألسنة مختلفة. ونرى أثر هذا التنوع داخل البيت نفسه حين يأتي قريب من خراسان، فيعيّنه أحمد بالفارسية إذا التبس عليه الكلام.⁴ ليس في ذلك خبر عن دراسة لغوية متكاملة عند الإمام، لكنه نافذة على عالم لم تكن فيه صلة العراق بخراسان علاقة جيوش وولاء وحدها؛ كانت قرابة وحديث ضيافة ولغة يستعان بها عند الحاجة. X

وفي المدينة مسلمون وغير مسلمين، وحرفيون وتجار وكتاب وأطباء ورجال دولة. وسيدكر أصحاب أحمد في مرضه اسم الطبيب ابن ماسويه الذي أرسله الخليفة إليه. لكل فئة طريق إلى المعرفة أو الرزق، ولكل طريق صلته بالمؤسسات والناس الذين يحمونه أو يحتاجون إليه.

من الخطأ أن نرسم بغداد كلها مجلس حديث، كما أن من الخطأ أن نرسمها كلها قصرًا أو سوقًا. نشأ أحمد في جزء من هذا العالم، ثم اختار في داخله طريقًا. ومن يفهم البدائل التي كانت قريبة منه يفهم اختياره أفضل ممن يتصوره لم يعرف إلا ما سار فيه.

ما وراء حدود الخلافة

في الغرب الإسلامي كانت الأندلس تحت إمارة أموية مركزها قرطبة، مستقلة عن السلطة العباسية، مع استمرار الاتصال الثقافي بالشرق. لم تتطابق خريطة الحكم مع خريطة انتقال العلم. ومن هذا الغرب سيأتي بقي بن مخلد إلى العراق، ويحمل مسائل وفوائد من أحمد وغيره.⁵

وفي أقصى الشرق كانت الصين في عصر أسرة تانغ، وهي حضارة كبيرة لها عاصمتها وأسواقها وصلاتها بالتجار والرسل من أقاليم متعددة، ومنها بلاد العرب وفارس. عرفت قبل مولد أحمد اضطراباً شديداً في منتصف القرن الثامن الميلادي، ثم استمر حكمها بعده.⁶ ليست هذه دعوى صلة شخصية لأحمد بالصين، بل تذكير بأن العالم خارج بغداد لم يكن فراغاً ينتظر خبرها.

٥ - قسم الفن الإسلامي، متحف المتروبوليتان»، فن العصر الأموي في الأندلس (1031- 711 م)، عنوان مترجم»، 2001، فقرة الإمارة الأموية؛ وسير أعلام النبلاء، 13/285-295.

٦ - قسم الفن الآسيوي، متحف المتروبوليتان»، أسرة تانغ (618-907 م)، عنوان مترجم»، 2001، الفقرات التاريخية الختامية.

وعلى التخوم مع الروم كانت الحرب والهدنة وحركة الأسرى والرسل جزءاً من سياسة الخلفاء. وصل أحمد في رحلاته إلى ناحية الثغور، وذكر الخروج إلى طرسوس على الأقدام.⁷ فبعض الأسماء التي تمر في تاريخه ليست محطات طلب منفصلة عن السياسة؛ إنها مواضع على أطراف تماس عسكري، يحمل أهلها خبر الحرب كما يحملون الحديث.

لا نحتاج إلى جعل الإمام مؤثراً في كل هذه الأقاليم في حياته حتى نعتزف بسعة العالم. يكفي أن نضعه في مكانه الصحيح: عالم مسلم في مركز عباسي عظيم، يصل علمه عبر شبكة أوسع من مكانه، ويعيش تحت دولة لها خصوم وحروب وأقاليم وشؤون لا تدور كلها حوله.

مجالس تتجاوز وطرق تختلف

دخل أحمد عالماً علمياً سبقته فيه أجيال. لم يبدأ تدوين العلم به، ولم تكن السنة تنتظر مولده حتى تحفظ. قبله الصحابة والتابعون ومن بعدهم، وفي الأمصار مدارس ومشايخ، وفي بغداد نفسها من يأتي بعلم الحجاز والعراق والشام واليمن وخراسان.

وكان بين أهل العلم اختلاف في الفقه وطريقة الاستدلال ووزن بعض الأخبار. أخذ أحمد في أول طلبه عن أبي يوسف، وكتب كتباً من علم أهل الرأي، ثم اتسعت صلته بالمحدثين والفقهاء، وعرف للشافعي قدره.⁸ هذه الحركة تمنع صورة عالم تكون في عزلة عن الاختلاف. لقد عرف طرقاتاً، وسمع، وقارن، ثم رجع ما رآه أقرب إلى الدليل.

وعرف العصر أيضاً جدلاً في الاعتقاد، وفي صفات الله، وفي حقيقة كلامه. لم تكن جميع تلك المباحث من نوع واحد، ولا كان جميع المختلفين جماعة واحدة متجانسة. وسيظهر في المحنة قول خلق القرآن وقد صار سياسة امتحان، وعندئذ يتغير ثقل السؤال: لم يعد المرء يختار مجلساً يناقش فيه من شاء فحسب؛ صار يخشى على عمله وحريته وبدنه إذا لم يجب بما يطلب منه.

في هذا العالم تكونت عناية أحمد بالأثر. كان يرى أن خبر الرسول صلى الله عليه وسلم وما ثبت عن السلف يحجي القول في الدين من أن يصبح تابعاً لكل جدل جديد. لكن طلب الأثر نفسه احتاج إلى نقد؛ فمن الناس من يخطئ، ومنهم من ينسى، ومنهم من يكذب. لذلك لا ينفصل حبه للنقل عن تشدده في معرفة من ينقله وكيف نقله.

عمر يعبر دولا

ولد أحمد في عهد المهدي، وأدرك الهادي والرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق، ومات في خلافة المتوكل.⁹ وتفصل الفصول التالية انتقال المحنة بين هذه العهود؛ أما حرب الأئمة والمأمون ومقتل الأمين سنة 198 هـ فتأتي أخبارها في الفصل الرابع.¹⁰ وفي عهد المعتصم انتقل مركز الخلافة إلى سامراء، ومنها بلغ أحمد استدعاء المتوكل إلى العسكر.¹¹ X

ما الذي أتاح له أن يصير ما صار؟

وجد في بغداد شيوخاً وكتباً ورفاقاً، وخرج في طرق الحج والرحلة إلى غيرهم. أعانته أمه، وتذاكر مع أصحابه، وصبر أهله على ضيق

٩ - تقابل تواريخ الخلفاء في تراجمهم من سير أعلام النبلاء وحوادث السنوات في البداية والنهاية مع ميلاد أحمد سنة 164 هـ ووفاته سنة 241 هـ.

١٠ - ابن كثير، البداية والنهاية، حوادث سنة 198 هـ 14/102، وما بعدها في الترتيب المعروف بإسلام ويب.

١١ - في انتقال مقر الخلافة إلى سامراء: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ترجمة المعتصم، وأخبار استدعاء أحمد إلى العسكر في ترجمته، 281-11/266.

العيش . وفيما بذله هو وما حمله هؤلاء معه تثبين أسباب الطريق
الذي سلكه .

داخل هذه المدينة أم وولد يتيم . تمسك بثوبه حين يريد الخروج قبل
الأذان ، وتنتظر أن يصير الصباح مأموناً عليه . من باب البيت
يخرج إلى العالم الواسع الذي تفتحه مجالس بغداد .

الفصل الثاني: عالم يتبدل

عاش أحمد حتى تبدل الخلفاء وتنازعت الجيوش، ثم وصل إلى العلماء أمر يسألهم عن القرآن ويطلبهم بجواب واحد. كانت المدينة التي أتاح له العلم هي نفسها التي ستشهد امتحانه.

الطريق إلى الامتحان

تصل رحلات أحمد بين بغداد والأمصـار، لكن قرار امتحانه جاء من جهة محددة: الخليفة وعامله على بغداد. ولهذا نتبع هنا انتقال الامتحان بين الخلفاء؛ وتبقى أخبار الحصار وطرق المدينة للفصل الرابع، وأخبار التعلم والرحلة لأبوابها.

المحنة في أواخر عهد المأمون

يروى الذهبي أن المأمون أظهر القول بخلق القرآن وحمل الناس عليه، وأن الامتحان وقع في آخر عهده. ويذكر أحمد أن إسحاق بن إبراهيم سأل في جمادى الآخرة سنة ثمان عشرة ومئتين؛ فأجاب

بأن القرآن كلام الله غير مخلوق. انتقل الخلاف بهذا الإجراء من مجالس النظر إلى السؤال الذي تتبعه عقوبة. ^{X¹²}

لا تكفي هذه الأخبار وحدها للحكم على جميع دوافع المأمون. ما يثبت سياق السيرة أن كتاب الخليفة صار أمرًا ينفذه عامله، وأن المحدث سئل عما يعتقد، ثم فصل جوابه بين إطلاقه وحبسه. وستأتي أسماء الممتحنين وتفاصيل انتقال أحمد ومحمد بن نوح في مواضعها.

بعد موت المأمون

مات المأمون وأحمد في طريق حمله إليه. لم تنته المحنة بموته؛ رد أحمد إلى بغداد، وبقي مقيداً، ثم ناظر في مجلس المعتصم وضرب. وتروي أخبار الواصل ما لحقه من منع واختفاء، ثم تروي أخبار المتوكل تبدل معاملته واستدعائه إلى سامراء. فهذه عهود متتابعة لا يصح أن تجمع معاملاتها في صورة واحدة. ^{X¹³}

١٢ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 236/11-239، في ابتداء المحنة وامتحان إسحاق بن إبراهيم لأحمد سنة 218 هـ.

١٣ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 241/11-247، 264-281؛ صالح بن أحمد، سيرة الإمام أحمد، أخبار استدعائه إلى العسكر وصلات المتوكل.

وفي زمن المتوكل ظهرت كلفة أخرى: الإلحاح عليه في قبول العطاء والقرب من دار الخلافة. لم يعد الموقف هو موقف السوط نفسه، لكن أسئلة المال والاستقلال عن السلطان بقيت حاضرة. وسيبين الكتاب ذلك من رواية ابنه صالح ومن أخبار من صحبوه.

الفصل الثالث: أهل الكلام وأهل الحديث

كان السؤال الذي سيحمل أحمد إلى القيد متعلقاً بكلام الله: أيقال إن القرآن مخلوق؟ أخذ موقفه من الكتاب والسنة، واحتج خصومه بآيات وألفاظ ناظرهم في دلالتها. إلى هذا الأصل يعود حين يشتد الإكراه ويطلبون منه الكلمة.

موضع الخلاف

يسوق الذهبي في خبر المحنة ظهور القول بخلق القرآن ثم حمل المأمون الناس عليه. وتكشف مناظرة المعتصم مسائل محددة: معنى الجعل، وعموم الخلق، والتمييز بين الذكر المعرف وغيره، وصحة اللفظ المنقول في الحديث. هذه هي المسائل التي نحتاج إليها هنا لفهم جواب أحمد، لا رسم صورة واحدة لجميع المتكلمين في كل عصر.

ولم يكن الخلاف اختلاف طريقة فحسب؛ فقد تعلق بما يثبت لله من الكلام وبحكم القول في القرآن. كان أحمد يطلب من مناظريه شيئاً من كتاب الله أو سنة رسوله يقول به، ويرد الاستدلال الذي لا يراه دالاً على مطلوبهم. سترد ألفاظ هذه المحاورة في رواية صالح، بما فيها من موافقة في بعض المقدمات واختلاف في النتائج.

من كان ابن أبي دؤاد؟

يظهر أحمد بن أبي دؤاد في رواية صالح حاضراً عند المعتصم، يشارك في السؤال ويعترض في المناظرة ويلج في طلب الإجابة. وفي الرواية تهديد وحبس وضرب؛ وهذه أفعال يثبتها الخبر، ولا تحتاج إلى أن ننسب إلى صاحبها نية لم ينقلها لنا.

الواقفة واللفظية

امتد الخلاف بعد ذلك إلى عبارات الوقف واللفظ. وتورد ترجمة أحمد إنكاره إطلاقات يراها موهمة، ثم يشرح الذهبي الفرق بين كلام الله وبين صوت القارئ وحركته. لا تحمل الألفاظ على معنى واحد قبل معرفة مراد قائلها، ولا يختزل تفصيل هذه المسألة في اسم فرقة أو في جملة مجملة.¹⁴ X

حدود ما تقوله السيرة

سنقرأ في أخبار أحمد الصفح عن حقه، والتحفظ من الدماء، والإنكار على من دعا إلى الخروج. ولا نحول هذه الأخبار إلى دعوى أننا أحطنا بكل ما قاله أو فعله. وكذلك فإن الكتب

١٤ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، ترجمة أحمد، مبحث اللفظ بالقرآن ورواية فوران؛ وانظر تفصيله المنقول في فصل «الذين أجابوا والذين ثبتوا» من هذا الكتاب.

المنسوبة إليه تحتاج إلى تمييز طرق روايتها؛ ولا يعتمد هذا الكتاب في حكاية المحنة على كتاب «الرد على الجهمية والزنادقة» المختلف في نسبته.¹⁵ X

١٥ - نص الذهبي على رد نسبة الكتاب في سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، 287-11/286، فقال: «ولا كالرد على الجهمية الموضوع على أبي عبد الله». وفي المقابل دافع ابن القيم عن نسبته في اجتماع الجيوش الإسلامية، فصل «في ذكر قول الإمام أحمد وأصحابه»، عقب نقله عن الخلال «كتبت هذا الكتاب من خط عبد الله»، وناقش الاعتراض بجهالة الخضر بن المثنى، ونقل تصحيح ابن تيمية للنسبة. فهذا خلاف مثبت بين قائلين معينين، لا إجماع على الإثبات أو النفي؛ ولم يعتمد هذا الكتاب على النص المختلف فيه لإثبات خبر أو أصل عقدي.

الفصل الرابع: بغداد التي لم تبقى على حال

حين كان أحمد يقطع طرق الطلب، كانت الخلافة تدخل صراعاً لا يقف عند أبواب القصور. مات الرشيد سنة ثلاث وتسعين ومئة، ثم انتهى النزاع بين ابيه إلى حصار بغداد ومقتل الأمين سنة ثمان وتسعين. كان أحمد قد جاوز الثلاثين، وكانت المدينة التي بدأ فيها حياته تعرف وجهاً آخر من وجوه القوة التي اجتمعت فيها.¹⁶ X

صارت بغداد ميداناً لجيوش تتنازع الخلافة. دخل الجسر والصور وقصر زبيدة والكرخ في أخبار الحصار، وتبدل الأمن في المدينة التي كانت رحلات أحمد تعيده إليها. يقول ابن كثير في حوادث تلك السنة:

وفي يوم الأربعاء ثمان خلون من المحرم وثب خزيمة بن خازم ومحمد بن علي بن عيسى على جسر بغداد فقطعاه ونصبا رايتهما عليه، ودعوا إلى بيعة عبد الله المأمون وخلع محمد الأمين ودخل طاهر يوم الخميس إلى الجانب الشرقي، فباشر القتال بنفسه، ونادى بالأمان لمن لزم منزله، وجرت عند دار الرقيق والكرخ وغيرهما

١٦ - ابن كثير، البداية والنهاية، حوادث سنة 198 هـ وترجمة الأمين 14/99-103،

في الترقيم الإلكتروني المعروض بإسلام ويب.

وقعات، وأحاط بمدينة أبي جعفر والخلد وقصر زبيدة، ونصب المجانيق حول السور، وحذاء قصر زبيدة، ورماه بالمنجنيق، فخرج محمد الأمين بأمه وولده إلى مدينة أبي جعفر، وتفرق عنه عامة أصحابه في الطرق، لا يلوي أحد على أحد. ودخل الأمين قصر أبي جعفر وانتقل من الخلد لكثرة ما يأتيه فيه من رمي المنجنيق، وأمر بتحريق ما كان فيه من الأثاث والبسط والأمتعة، وغير ذلك فحصر فيه حصرا شديدا. ¹⁷X

قطع الجسر، ونصب الرايات، والنداء بالأمان لمن لزم منزله، ونصب المجانيق: هذه أفعال تغير معنى المدينة عند ساكنيها. البيت الذي يخرج منه المرء إلى رزقه يصير مكاناً يطلب منه أن يلزمه ليأمن، والطريق الذي يصل بين المواضع يصير حداً يراقبه الجند، والقرب من قصر الخليفة لا يضمن البعد عن الخطر.

انتقلت الخلافة، وبقي لأهل بغداد ما خلفه الحصار في بيوتهم ومعاشهم. إلى هذه المدينة يعود طالب العلم، وفيها يلتقي أهل الحديث والفقه، وفيها ستجيء أيام امتحانه.

١٧ - ابن كثير، البداية والنهاية، 99/14-100 حوادث سنة 198 هـ. اقتصر النقل

على وصف الوقائع العامة؛ ولم تعتمد الحكايات المتصلة بالتطير والأصوات التي أوردتها

بعده.

العلم بعد الحصار

تغير الحكم، وبقي الطالب يطلب شيخاً ونفقة وطريقاً. خرج أحمد إلى اليمن، وسمع من عبد الرزاق، ثم عاد إلى بغداد. وفي مجالس المحدثين نتضح منزلته، قبل أن يدخل اسمه في رسائل الامتحان.

الفصل الخامس: كيف كان الحديث يجمع في زمانه

يحمل أحمد أوراقه إلى الشيخ، ويسمع، ويكتب، ويرجع إلى اللفظ ليتبينه. كان الحديث يصل إليه بصوت رجل أخذ عن رجل؛ وفي هذه الأسماء والطرق عمل طويل سيعرفه من يسأله بعد ذلك.

الجيل الذي سبقه

سبقت أحمد طبقات من الرواة والمصنفين، وأدرك من شيوخ بغداد والبصرة والحجاز من اتصلت روايته بتلك الطبقات. وتظهر أخبار ملازمته هشيماً ورحلته إلى عبد الرزاق أنه كان يتعلم من حفظ الشيوخ ومن كتبهم معاً. وليس في كثرة محفوظات عالم دعوى أنه أحاط وحده بجميع السنة.

لماذا لا تغني الكتب؟

كان السماع يبين صلة الطالب بالشيخ والنص الذي يحمله عنه، وكانت المقابلة تعين على تدارك خطأ الكتابة. أما النقل من صحيفة أو كتاب فله صيغ وأحكام تميزه من السماع المباشر؛ وسيأتي سؤال عبد الله لأبيه عن هشيم: أسمعته منه؟ وجوابه: «لا، بلغني عنه».

حفظ أحمد تواريخ من سماعه ورحلاته، كما حفظ ما أدركه وما فاته. وقد يطول مقامه عند شيخ، وقد تضيق نفقته فينصرف قبل

أن يبلغ كل ما أراد. هذه التفاصيل، التي ترد في أخبار صالح ومن صحبوه، تبين أن التحصيل كان عملاً متدرجاً، لا لقاء واحداً تصنع منه السيرة العلم كله.

الرحلة

وتوزع الشيوخ على الأمصار، فخرج أحمد من بغداد إلى غيرها، وعاد إلى بعض البلدان أكثر من مرة. كانت الرحلة تمكنه من السماع والمذاكرة ومعرفة الرجال؛ لكنها لم تجعل كل ما يريد متاحاً. فقد أراد الخروج إلى جرير بن عبد الحميد بالري، ومنعه فقد النفقة.

وكان في الرحلة فقر وتعب؛ يحذ النفاد من حركة الطالب، وقد يحتاج إلى العمل. وفي خبر رحلة أحمد إلى عبد الرزاق أنه لم ينكر أنه أكرى نفسه من الجمالين. وسيأتي هذا اللفظ في موضعه؛ فهو أدق من تحويل الرواية إلى حكم شامل على كيفية معاشه في جميع أسفاره.

الورق والكاغذ

لا تصلنا رحلة العلم في أسماء المدن وحدها؛ تصل في كتاب يحمل، ونسخة تقابل، وجراب يصير وسادة. وسيأتي خبر سؤال أحمد عن

النسخ المختلفة للحديث، وخبر قراءة المسند على أهل بيته. تكشف هذه الوقائع أن العناية بالمادة المكتوبة كانت من صميم الطلب.

ما بعد الجمع

ثم يأتي النقد: ليس كل ما سمعه الراوي يرويه على وجه واحد، ولا كل شيخ كتب عنه يبقى حكمه عليه كما كان. في أجوبة أحمد التي حفظها ابنه تميز بين السماع والبلاغ، وبين المعرفة بحال الراوي والتوقف فيها. ويقرأ المسند في ضوء هذه الصناعة؛ فلا يعد وجود الخبر فيه وحده حكماً بصحته.

ما الذي يستفاد من هذا؟

اجتمع في يده الكتاب وفي ذاكرته السماع، وبقي يسأل ويقابل ما جمع. هكذا يتكون صاحب العلم قبل أن يعرفه الجمهور، وتظهر ثمرة أيام الطلب في جواب يطمئن إليه صاحبه.

الباب الثاني: الصبي والطالب

الفصل السادس: الثوب الذي أمسكت به أمه

قبل أن يقصده طلاب بغداد، كان طفلاً في بيت تقوم عليه أمه. سيحفظ أسماء شيوخه في البلدان، وسيحفظ قبلها يداً أمسكت بثوبه عند باب الدار.

جاءت أمه من مرو وهي حامل به، وولد سنة أربع وستين ومئة. مات أبوه محمد شاباً، فصارت رعاية الصغير إليها. حفظ أحمد من هذه السنوات أخباراً رواها لابنه، فبقي لنا منها ما يفتح باب البيت.¹⁸

حفظ أحمد لأمه ذكرى من طفولته: ثقت أذنيه وجعلت فيهما لؤلؤتين، ثم نزعتهما حين ترعرع، وبقيتا عندها حتى دفعتهما إليه، فباعهما بنحو ثلاثين درهماً. شيء صغير من متاع طفل، تحفظه أم ثم ترده إلى فتاه. لم تضع هذه الذكرى بين أخبار الرحلة والمناظرة؛ رواها أحمد لابنه صالح، وبقيت في سيرته إلى جوار ما رواه عن كبار المحدثين.¹⁹

١٨ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/178-180. ورد اختلاف في شهر مولده بين ربيع الأول وربيع الآخر، والمشهور الأول. عمر الثلاثين المذكور في الخبر عمر الأب عند وفاته؛ ولا يدل وحده على تحديد عمر أحمد يوم تيمم.

١٩ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/179.

وكانت له مع أمه ذكرى أخرى، عند عتبة الخروج إلى العلم:
«ربما أردت البكور في الحديث، فتأخذ أمي بثوبي، وتقول: حتى
يؤذن المؤذن. وكنت ربما بكرت إلى مجلس أبي بكر بن عياش».²⁰
X

في البيت فتى يريد أن يسبق النهار إلى مجلسه، وأم تتعلق يدها بثوبه
حتى يحين وقت الخروج. في هذه الحركة الصغيرة نرى شوقه إلى
الحديث ورعايتها له؛ يطلب البكور، وتستبقه حتى يؤذن المؤذن.
بقيت يد الأم على ثوب ولدها في الخبر الذي رواه عن نفسه، بعد
أن مضى زمن الطفولة واتسع به طريق العلم.

قام بيت اليتيم على رعاية أمه. تدبر وتحفظ، ويعود إليها إذا مرض.
كبر أحمد واتسعت رحلاته وشيوخه، وبقيت الأم في ذاكرته عند
بدايات الطريق.

خرج إلى الكوفة، ونام في بيت تحت رأسه لبنة، ثم مرض فعاد
إليها. قال في رواية صالح: «فحمت، فرجعت إلى أمي رحمها الله،
ولم أكن استأذنتها».²¹ في العبارة بقية من حياة الفتى لا تسويها
صور الكمال المصقولة: شغف بالسفر والطلب، وبيت له عليه حق،

٢٠ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/306، في إمساك أمه بثوبه حتى يؤذن الناس

أو يصبحوا.

وأم لا يسقط حضورها من كلامه حين يحدث بعد سنين. بقي الطريق إلى العلم متصلاً بالطريق إلى البيت.

صبي يتقدم إلى الجد

اختلف أحمد إلى الكّتاب، ثم إلى الديوان وهو ابن أربع عشرة سنة. وفي نحو الخامسة عشرة أو السادسة عشرة دخل طلب الحديث دخول ملازمة. مات مالك في السنة التي بدأ فيها سماعه من بعض الشيوخ، ومات حماد بن زيد، فبلغه الخبر وهو في مجلس هشيم. كانت طبقة عظيمة من العلماء تغادر الدنيا، وفتى بغداد يتقدم إلى ما بقي من مجالسها.²²،²³ تجتمع هنا بدايتان ستظلان

٢١ - صالح بن أحمد، سيرة الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق فؤاد عبد المنعم أحمد، دار السلف، ط3، 1415هـ/1995م، ص33. في الصورة «غفمت، فرجعت إلى أُمي رحمها الله، ولم أكن استأذنتها». وفي صورة السير 11/185 «فججت»؛ اتبع هنا لفظ المصدر المباشر، وهو الموافق لخبر المرض.

٢٢ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/179-180؛ 185-186 قال صالح في «السيرة»: «طلبت الحديث وأنا ابن ست عشرة سنة»، وورد تحديد الابتداء بسنة 179 هـ؛ والاختلاف يسير بحسب احتساب السن وابتداء الطلب.

٢٣ - صالح بن أحمد، سيرة الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق فؤاد عبد المنعم أحمد، دار السلف، ط3، 1415هـ/1995م، ص31-33، في ابتداء الطلب ووفاة هشيم والرحلة.

متجاورتين: الفتى الذي يبكر إلى المحدث، والغلام الذي يقوم في الليل. ولسنا نملك أن نرسم لكل ليلة صورة؛ لكن شهادة من عرفه صغيراً تمنع أن ننظر إلى عبادته المتأخرة على أنها طارئ أضافته الشهرة إلى حياة عالم. كان لها أصل قديم، كما كان للعلم أصل قديم. نما الاثنان معاً، ثم ظهرا في المواطن التي لا يغني فيها أحدهما عن الآخر. X

سيحتاج إلى حفظه حين يسأل عن الحديث، وإلى فقهه حين يحتاج، وإلى يقينه حين يهدد. وقبل هذه الأبواب الكبيرة كانت أم تمسك بثوب ولدها حتى يؤذن المؤذن؛ يبدأ الطريق من البيت، ثم يتسع.

على ضفة الماء

كبر الفتى، وبقيت كلمة أمه حداً يقف عنده. قدم جرير بن عبد الحميد بغداد، وكانت الرحلة إليه أمنية تعوقها قلة النفقة. لقد خرج أصحاب لأحمد إلى الري، وبقي هو لأنه لا يملك ما يبلغه مجلس جرير. ثم جاء الشيخ إلى مدينته؛ صار الذي كان بعيداً قريباً، وفصل الماء بين الطالب وما يريد. يحفظ إبراهيم بن هاشم، أحد رفاق الطلب، حديث تلك الفرصة:

وانظر السير 11/183-186؛ لا تختزل اختلاف الأخبار في سن واحدة مقطوع بها.

قال: سمعت إبراهيم ابن هاشم يقول: لما قدم جرير بن عبد الحميد- يعني بغداد- نزل على بني المسيب، فلما عبر إلى الجانب الشرقي جاء المد، فقلت لأحمد بن حنبل: تعبر؟ فقال: أُمي لا تدعني، فعبرت أنا فلزمته.

قلت: قد سمع أحمد بن حنبل من جرير إلا أنه لم يتفق له الإثثار عنه، وهذا المد كان في سنة ست وثمانين ومئة في أيام الرشيد زادت دجلة زيادة بينة لم يرَ قبلها مثلها، ونزل الرشيد بأهله وحرمة وأمواله إلى السفن، قال أبو علي البرداني: وكان السندي ابن شاهك- وشاهك هي أمه- يلي إمارة بغداد ففنع الناس من العبور إشفاقاً عليهم.^{X²⁴}

«أُمي لا تدعني». لم يسق أحمد لرفيقه مرافعة طويلة. لم يقل إنه زهد في الشيخ، ولا إن العلم الذي عنده لا يستحق العناء. عبر إبراهيم ولزمه، وبقي أحمد. وفي قول ابن الجوزي إنه سمع من جرير، وإن لم يكثر عنه، ما يصون الحكاية من نهاية متخيلة: لم يكن ذلك اليوم نهاية صلته بالشيخ، ولم يفقد كل علمه لأنه أطاع أمه. كان

٢٤ - ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، الباب الرابع، في ذكر ابتدائه في طلب العلم ورحلته فيه. يعقب ابن الجوزي الخبر بتاريخ المد سنة 186 هـ، والتأريخ من كلامه، لا من لفظ إبراهيم بن هاشم.

موقفًا من مواقف الطريق، يعرف فيه أن له حقًا في طلب العلم، وأن لقلق أمه عليه حقًا أيضًا.

للماء هنا مكانه الحقيقي في حياة بغداد. كانت دجلة تصل بين جانبي المدينة وتحمل أسباب معاشها، فإذا زادت أصبحت حاجرًا وخطرًا. الطالب الذي يسير إلى مجلسه لا يخرج من العالم الذي يسكنه؛ يعوقه الفيضان كما يعوقه نقص الدرهم، ويؤثر في يومه قرار الوالي كما يؤثر فيه موعد المحدث. ومن هذه التفاصيل يتكون الفرق بين سيرة نقرأ فيها أسماء الشيوخ، وسيرة نرى فيها ما كان الوصول إلى الشيخ يقتضيه.

وفي موقف الأم نتضح رعاية ليست خصومة مع طموح ولدها. ورد منعها في خبر العبور وقت المد؛ فلا يتحول شغف الطالب إلى حجة على تجاهل الخطر. ومضى عمره بعد هذه الوقفة إلى رحلات كثيرة، ولم تمنعه تلك الطاعة أن يكون من أكثر أهل زمانه طلبًا. إن الطريق الطويل يتسع لأن ينتظر المرء عند موضع، وأن يرجع عند موضع، ثم يمضي حين تيسر له أسبابه.

كثابة رسائل البيوت

ومن قبل مجالس الكبار، عرف بعض أهل الحي خط الصبي وأدبه. يروي المروذي عن اثنين من معارف أحمد في الكتاب خبر نساء يطلبن من المعلم أن يبعث به ليكتب أجوبة رسائلهن. كان

الغائبون يكتبون إلى بيوتهم، وكانت البيوت تحتاج إلى من يرد.
هكذا دخلت الكتابة حياة الغلام بوصفها حاجة للناس، قبل أن
تصبح أوراق الحديث عمل عمره.

قال: قال لي أبو عفيف - وذكر أبا عبد الله أحمد بن حنبل - فقال:
كان في الكتاب معنا وهو غليم نعرف فضله، وكان الخليفة بالرقعة،
فيكتب الناس إلى منازلهم الكتب، فيبعث نساؤهم إلى المعلم:
ابعث إلينا بأحمد بن حنبل، ليكتب لهم جواب كتبهم، فيبعثه
فكان يجيء إليهن مطأطئ الرأس، فيكتب جواب كتبهم، فرما
أملين عليه الشيء من المنكر، فلا يكتبه لهن.

قال المروزي: قال لي أبو سراج بن خزيمة: كنا مع أبي عبد الله في
الكتاب، فكان النساء يبعثن إلى المعلم: ابعث إلينا بـأحمد بن حنبل ليكتب
جواب كتبهم، فكان إذا دخل إليهن لا يرفع رأسه ينظر إليهن.
قال أبو سراج: فقال أبي - وذكره - فجعل يعجب من أدبه، وحسن
طريقته. فقال لنا ذات يوم: أنا أنفق على ولدي وأجيئهم بالمؤدين
على أن يتأدبوا فما أراهم يفلحون، وهذا أحمد بن حنبل غلام يتيم،
انظر كيف يخرج!! وجعل يعجب. X²⁵

٢٥ - ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، الباب الثالث، في ذكر منشئه في صباه؛
خبران يرويهما المروزي عن أبي عفيف وأبي سراج. هذه أخبار سيرة، ولم يوضع لكل
إسناد منها حكم تصحيح مستقل في هذا الكتاب.

يحفظ الخبر وظيفة صغيرة يؤديها غلام: يسمع إملاءً، ويكتب جواباً، ويكف عن كتابة ما يستنكره. واللافت أن الشهادة لا تخرج من بيته وحده؛ يقارن أب بين ما يبذله في تأديب أولاده وبين أدب ذلك اليتيم. لا تمنحنا هذه المقارنة معرفة كاملة بتربية الصبي، لكنها تدل على أن أثرها صار منظوراً عند غير أمه.

كان الخط، في هذا الموضع، أمانة بين غائب وأهله. ومن يتعلم أن يكتب ما سمعه دون أن يخونه، ثم يعرف أن الكتابة نفسها قد تحمل ما لا يجوز له أن يعين عليه، يقترب مبكراً من سؤال سيكبر معه: ما الذي يحق لي أن أنقله؟ لا نزعم أن هذا الخبر يفسر وحده ورعه في الحديث؛ وإنما نرى انسجاماً بين بدايات نقلت عنه وبين ما عرف من سيرته بعد ذلك.

لم ينس يد أمه التي أمسكت بثوبه، وذكرها حين رجع مريضاً، وظل أمرها حاضراً عند النهر يوم عبر رفيقه إلى العلم. حفظت هذه الأخبار قربها منه، وأبقت البيت في حياة الرجل الذي عرفته البلدان.

الفصل السابع: عند هشيم: سنوات الإصغاء

مات هشيم، وأحمد في نحو العشرين. انتهى مجلس لازمه أعواماً، وبقي ما سمعه في صدره وكتبه. صار على الطالب أن يحمل ثمرة هذه الصحبة إلى طريق جديد، وأن يقصد شيوخاً آخرين.

روى صالح أن أباه بدأ السماع من هشيم سنة تسع وسبعين ومئة، ثم لازمه من السنة التالية إلى وفاته سنة ثلاث وثمانين. كتب الحج، وشيئاً من التفسير والقضاء، وكتباً صغاراً، وسأله صالح عن كثرة ما حمّله عنه. أما أحمد، فاختصر ثمرة الملازمة في جملة لا تحتاج إلى تهويل: «ومات هشيم، وأنا ابن عشرين سنة، وأنا أحفظ ما سمعت منه».²⁶

يحضر الفتى، ويحدث الشيخ، ويزداد الكتاب صفحة بعد صفحة. تتجمع المادة في أعوام الملازمة، حتى يقدر أحمد أن يقول ما حفظه ابنه عنه: إنه يحفظ ما سمع من هشيم. وراء هذه الجملة أيام الطلب التي حملت علمه الأول.

٢٦ - صالح بن أحمد، سيرة الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق فؤاد عبد المنعم أحمد، دار السلف، ط3، 1415هـ/1995م، ص33، 31-34. النقل القصير في الحفظ من ص31، وابتداء السماع سنة 179 والملازمة من سنة 180 إلى وفاة هشيم سنة 183 في ص33. قوبلت هذه المواضع على الصور.

لم يكن هشيم كل علم أحمد، ولكنه كان من أوسع أبوابه الأولى. وحين مات، لم يغلق الفتى كتبه كمن انتهى تكوينه بموت معلمه؛ حملها إلى الطريق. بقي للوفاء موضعه، وبقي للطلب امتداده. سيجلس بعد ذلك إلى وكيع ويحيى القطان وعبد الرحمن بن مهدي وابن عينة وعبد الرزاق، ويجد عند كل واحد ما يزيد ما سمعه، أو يبينه، أو يدعو إلى مراجعته.²⁷

الكتاب يصدق الذاكرة

لم تكن قوة حفظه تستغني عن الورق. كان عبد الله يقول: «ما رأيت أبي حدث من غير كتاب إلا بأقل من مائة حديث».²⁸ هذا هو الرجل نفسه الذي شهد له الحفاظ باتساع الذاكرة. يعرف ما يستطيع، ثم يراجع الأصل. وأحمد عند الكتاب أقرب إلى صورته الحقيقية منه في الأرقام التي يرددها المعجبون دون أن يعرفوا مراد أهل الحديث بها. X

وحين وصف أبو زرعة حفظه بمليون حديث، شرح الذهبي أن عد المتقدمين يدخل فيه تكرر الطرق، والآثار، وفتاوى التابعين

٢٧ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/180-183؛ 185-194.

٢٨ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/213.

ونحوها. لم يكن المراد مليون متن نبوي مستقل. وراء العدد الكبير عمل واسع في وجوه الرواية، لا مسابقة في الغرابة.²⁹

ومن أخبار هذا الحفظ ما حكاه أبو زرعة: أخرج إليه أحمد أجزاء من حديث سفيان، ولم يكن على كل حديث اسم الشيخ الذي حدثه به. ظنها أبو زرعة عن رجل واحد، وانتخب منها. فلها قرأ أحمد، جعل يقول: حدثنا وكيع، وحدثنا يحيى، وحدثنا فلان. كانت الطرق التي غابت عن ظاهر الصفحة حاضرة في معرفته.³⁰

ومع ذلك قال أحمد: «نحن كتبنا الحديث من ستة وجوه وسبعة لم نضبطه، فكيف يضبطه من كتبه من وجه واحد؟!». ³¹ تحمل العبارة تعب المهنة من داخلها. من خارج المجلس تبدو الرواية كلاً ما يكتب، ومن داخله يحيى اللفظ بطريق، ويخالفه راو في لفظ، ويتشابه اسمان، ويتغير حفظ شيخ. فلا تكفي كثرة ما في اليد حتى ينظر صاحبه فيه مرة بعد مرة.

وهكذا تكونت الجدية التي عرفها أصحابه: لا استعجال للمقام، ولا استكثار من لقب قبل استيفاء عمله. ظل السؤال مفتوحاً بعد

٢٩ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/187-188.

٣٠ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/188.

٣١ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/187.

الحفظ، والكتاب مفتوحاً بعد الشهرة. يصف المروزي دخوله عليه في البيت، فيجده والجزء في يده يقرأ. ويصف عبد الله مجالسه معه، فإذا الأب يسأل ابنه أن يأخذ كتاباً من كتب وكيع، ثم يخبره: يسأله عن المتن فيخبره بالإسناد، أو عن الإسناد فيخبره بالمتن. العلم الذي حمّله الفتى صار حديث بيت، ولكن جده لم يرغب عنه.³²

حين صحّ التلميذ لشيخه

جلس أحمد عند يزيد بن هارون، فوهم يزيد في شيء، فكلّمه أحمد. أخرج الشيخ كتابه، فوجد الأمر كما قال تلميذه، فغيره. ثم صار يذنيه كلما جلس: «يا ابن حنبل، ادن، يا ابن حنبل، ادن هاهنا». ولما مرض أحمد عاده يزيد.³³

لم تضع المراجعة جداراً بين الشيخ والطالب؛ زادته قرباً. وكان وراء الكلمة التي قالها أحمد حق تحقّقه الشيخ في كتابه. هذه إحدى الصور التي تضيء مجالس ذلك العصر من غير أن تحول أهلها إلى ملائكة لا يخطئون: عالم كبير يهّم، وتلميذ يتنبه، وأصل يرجعان إليه، ثم احترام يزداد.

٣٢ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/185-186.

٣٣ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/194.

وعرف الشيوخ في الفتى ما جاوز حسن الحفظ. كان يحيى القطان يكرمه ويبدل له حديثه، وشق عليه خروجه من البصرة. ورأى فيه عبد الرحمن بن مهدي عناية خاصة بحديث سفيان الثوري. كان أحمد يقارن بين وجوهه حتى يذكر اختلاف وكيع وابن مهدي في نحو ستين حديثاً. لم يصل إلى هذه المعرفة بنظرة عابرة في كتاب؛ وراءها زمن أطول من الخبر الذي يرويه.³⁴

إذا انتقل أحمد بعد ذلك من مدينة إلى مدينة، فلن يكون رجلاً يجمع أسماء الشيوخ ليعدها. سيحمل معه هذه الطريقة: إصغاء طويل، وكتاب حاضر، وذاكرة تختبر ما حفظت، وأدب يسمح للسؤال أن يبلغ غايته. ثم سيجد الطريق يطالبه بثن آخر، لا تؤديه الذاكرة وحدها.

الفصل الثامن: الجراب الذي صار وسادة

خرج أحمد ورفيقه إلى الكوفة مشياً بعدما مات هشيم. ثم مضى الرفيق، وبقي أحمد وحده في بيت، معه جراب كتبه. سيدكر من تلك الليلة ما وضعه تحت رأسه، والكلمة التي وصف بها وحدته.

يقول أحمد في حديثه للمروزي:

حدثنا المروزي: سمعت أبا عبد الله يقول: مات هشيم ولي عشرون سنة، فخرجت أنا والأعرابي رفيق كان لأبي عبد الله قال: فخرجنا مشاة، فوصلنا الكوفة، يعني: في سنة ثلاث وثمانين، فأتينا أبا معاوية، وعنده الخلق، فأعطى الأعرابي حجة بستين درهماً، فخرج وتركني في بيت وحدي، فاستوحشت، وليس معي إلا جراب فيه كتي، كنت أضعه فوق لبنة، وأضع رأسي عليه. ³⁵X

«فاستوحشت». حفظ أحمد هذه الكلمة عن نفسه شاباً. كتب في الجراب، ولبنة تحت الرأس، ووحدة يذكرها بعدما صار له أصحاب وتلاميذ. تكشف كلمته تعب الطريق كما عايشه صاحبه.

٣٥ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/186. نقلت وحدة الرحلة والجراب كاملة من النص الإلكتروني؛ عبارة «رفيق كان لأبي عبد الله» وتعليق سنة ثلاث وثمانين من كلام الناقل في السياق.

وفي أخبار إقامته بالكوفة مجلس آخر يذاكر فيه وكيماً بحديث الثوري، ويحفظ ما يذكره، فإذا قام الشيخ سأله الحاضرون فأملى عليهم.³⁶ لا نعرف المسافة الزمنية بين هذا المجلس وخبر الوحشة؛ غير أن الخبرين يقربان إلينا جوانب من أيام الطالب: قلة المتاع في بيت إقامته، والعلم الذي يقصده عند شيوخه.

توالت الرحلات. قصد البصرة، والكوفة، ومكة، واليمن، وعاد إلى بعض البلدان مراراً. خمس حج عدها في حديثه، ثلاث منها ماشياً، وذكر حجة أنفق فيها ثلاثين درهماً. وكان يريد الخروج إلى جرير بن عبد الحميد بالري، فلم تكن معه الخمسون التي قدر حاجته إليها. فاته سماع يريده لأن المال لم يتهيأ.³⁷

تلك الصفحة ضرورية إلى جانب صفحة الاحتمال. ما أراحه لم يقع كله، وما فقدته لم يتحول كله إلى حكاية انتصار. بقيت حدود

٣٦ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/186-187، في الجراب والمذاكرة؛ وصالح بن أحمد، سيرة الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق فؤاد عبد المنعم أحمد، دار السلف، ط3، 1415هـ/1995م، ص31-33، في تواريخ الرحلة. لا تنسب تفاصيل الجراب إلى الصفحات التي تذكر التاريخ وحده.

٣٧ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/186-187.

النفقة تحكم بعض سيره. وفي هذا العمر الطويل لم يكن الجد أن تزول الموانع، بل أن يظل للعلم نصيب مما يقدر عليه صاحبه.

الطريق إلى عبد الرزاق

وفي اليمن طال مقامه عند عبد الرزاق، وضافت نفقته. وفي خبر رحلته أنه «لم ينكر أنه أكرى نفسه من الجمالين». وحفظ عبد الرزاق خبر عرضه المال عليه وامتناعه من أخذه، ثم بكى حين ذكره. X³⁸

قال عبد الرزاق: «بلغني أن نفقته نفدت، فأخذت بيده، فأقته خلف الباب، وما معنا أحد، فقلت له: إنه لا تجتمع عندنا الدنانير، إذا بعنا الغلة، أشغلناها في شيء. وقد وجدت عند النساء عشرة دنانير نخذهما، وأرجو أن لا تنفقا حتى يتهيا شيء. فقال لي: يا أبا بكر، لو قبلت من أحد شيئاً، قبلت منك». X³⁹

خلا الشيخ بتلميذه، وبين له مورد المال، وفتح له باب الأخذ. ورد أحمد رداً لم يجرح به كرم صاحبه. لم يقل إن عرضك سوء،

٣٨ — الذهبي، سير أعلام النبلاء، 192/11-194. في الخبر: «ولم ينكر أنه أكرى نفسه من الجمالين».

٣٩ — الذهبي، سير أعلام النبلاء، 192/11-193.

ولم ينف حق غيره في قبول المعونة. جعل للشيخ منزلته، ثم بقي على اختياره. وفي رواية أخرى يذكر أنه رد عطاء يزيد بن هارون، وأخذه صاحبه يحيى بن معين وأبو مسلم. جرت الصحبة مع اختلاف التصرف؛ ولم تتحول هذه الحادثة إلى محاكمة لقلوب الآخرين.^{X 40}

كان هذا الاستقلال شاقاً. ليس في أخبار الطريق ما يسوغ تقديم الجوع غاية تطلب لنفسها. أحمد يريد السماع، ويعمل ليبلغ إليه، ويختار أن يعتذر عن هذا العطاء. سئى فيما بعد أن هذا الاحتياط يشتد عنده حين تقترب العطية من السلطان أو من طلب جاه. أما هنا، ففي الخبر شيخ يبذل ما عنده، وطالب يشكره ويعتذر، وعلم يواصلان حملاً معاً.

ولما رجع من عند عبد الرزاق، رآه أحمد الدورقي وقد ظهر عليه التعب. حدثه بما ناله في الطريق، ثم قال: «هين فيما استفدنا من عبد الرزاق».⁴¹ لم يمح العلم ما وقع لجسده؛ أعطاه وزناً آخر في ذاكرته. صار التعب جزءاً من ثمن عرف مقابله، لا حجة على أن السفر لم يؤلمه.

٤٠ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/193.

٤١ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/215.

بلاد تبقى في الكتب

ما يبقى من هذه الرحلات في الكتب أسماء رجال وطرق روايات. أما في الحياة فكان لكل سماع وقت، ولكل مجلس كلفة وصول، ولكل بلد صحبة تترك أثرها. وربما رأى الرجل فلم يسمع منه؛ فيذكر ذلك كما هو. قال إنه رأى ابن وهب بمكة ولم يكتب عنه. لم يحول الرؤية بعد السنين إلى سماع يكمل به قائمة شيوخه.⁴²

X

كان الذي يرجع إلى بغداد أوسع علماً من الذي خرج منها، ولكنه لم يرجع مستغنياً عن الطلب. وسيظل يعرف من زاد عليه في باب، ويطلب ما عنده، ويحفظ للشيوخ فضلهم. وحين يذكر أنه حجة عصره، يجدر بنا أن نسمع خلف هذا اللقب أسماء أولئك الذين جلس إليهم، ونرى وراء كتبه الطرق التي حملتها. لقد صار للفتى أصحاب يعرفون جدّه، وشيوخ يقدمونه، وطلاب يسألونه. ولكن في البيت الذي خرج منه أم، وفي الطريق حاجات لا يزال يكتسب لها، وفي الليل عبادة لا يراها أهل المجالس. كانت شخصيته تتسع من هذه الجهات جميعاً، والعلم الذي بلغ فيه المدى لم يستول على حياته حتى يحو ما سواه.

الطريق الذي لم يستطع سلوكه

وللرحلة باب آخر لا يرويه الوصول. أراد أحمد أن يذهب إلى جرير بن عبد الحميد بالري، فلم تمكنه النفقة. كان الذي يحتاج إليه مبلغاً لا يبدو كبيراً إذا وضع إلى جوار جوائز الخلفاء، لكنه كان حاجزاً قائماً في طريق طالب.⁴³ هكذا تحفظ السيرة شيخاً أراد لقاءه ولم يلقه كما أراد، إلى جوار شيوخ لقيهم وأكثر عنهم X.

تعطي هذه الحسرة المبكرة معنى لما سيصنعه إذا وجد النفقة. الوقت الذي يبذله عند الشيخ لا يعوضه متى شاء؛ قد يمرض الشيخ، أو يموت، أو ينقطع الطريق، أو يرجع المال القليل إلى حاجة البيت. لذلك كان يسمع ما يستطيع، ويعيد النظر في طرقة، ويسأل عن الكتاب الذي يبدأ به.

ولا تحملنا معرفتنا بمآل أحمد إلى أن نرى كل سفر له كأنه كان مضمون الثمرة من أول خطوه. خرج فتى يحمل كتباً، وتخلف عنه رفيقه في بيت الكوفة، واستوحش. ثم صار إلى وكيع فذاكره. بين الوحدة والمجلس انتقل من كلفة الطريق إلى مقصوده، من غير أن تزول الكلفة من ذاكرته.

عند وكيع

في مجلس وكيع لم يكن دوره أن يجلس قريباً ويسجل عدد الأحاديث التي أخذها فحسب. كان الشيخ يذكر حديث الثوري، فيسأله أحمد أو يجيبه، ويسمع الحاضرون ما يستحضره الفتي. ذكر أحمد أنه كان يحفظ الأحاديث التي يلقها وكيع، فإذا قام أملاها على من سألوه. ⁴⁴X

ثم جاء يوم قال فيه لعبد الله: خذ ما شئت من كتب وكيع، فإن شئت سألتني عن الكلام فأخبرتك بالإسناد، وإن شئت سألتني عن الإسناد فأخبرتك بالكلام. اجتمع طرفا الحديث في حفظه: يعرف الكلام والطريق الذي جاء به، ويحمل إلى ابنه معرفة أمضاها عمراً بين الشيوخ والكتب. ⁴⁵

وما فعله في مجلس وكيع حفظه عيون أخرى. يروي إبراهيم بن شماس أنه سمع وكيعاً وحفص بن غياث يقولان: ما قدم الكوفة مثل ذلك الفتي، ويعنيان أحمد. هذه شهادة أهل مكانه العلمي يومئذ، قبل أن تصبح المحنة عنوانه الأشهر. كانوا يزنون به بما يرون من معرفته ومذاكرته، لا بما سيقع له بعد سنين.

البصرة لا تختصر في اسم

في البصرة يحيى بن سعيد القطان وعبد الرحمن بن مهدي وغيرهما. لكل واحد حفظه وطريقته ومعرفته بالرجال والحديث. ولأحمد أن ينتفع بهذا التنوع، لا أن يجعل إعجابه بأحدهما سبباً لترك الآخر.

قال عبد الرحمن بن مهدي في أصحاب الحديث إنه أعلمهم بحديث الثوري. وكان أحمد قد عني بحديث سفيان، وجمعه، وعرف مواضع الاختلاف فيه. وحكى لعبد الله أن وكيعاً خالف ابن مهدي في نحو ستين حديثاً من حديث سفيان، وأنه ذكر ذلك لابن مهدي، فكان ابن مهدي يحكيه عنه.⁴⁶

انظر إلى اتجاه العلم في هذه الواقعة. الطالب يأخذ من الشيخين، ثم تجمع له المقارنة ما يحتاج أحدهما إلى سماعه منه. لا يصير الشيخ بهذا أقل قدرًا، ولا يصير الطالب مستغنياً عن شيخه. إنما تؤدي الصحبة العلمية غرضها حين يستطيع الأصغر أن يأتي ببيان، ويستطيع الأكبر أن يحفظه ويذكره.

وقد عرف يحيى القطان لأحمد مكانه وأكرمه وبذل له حديثه. وقال أحمد إن خروجه من البصرة شق على يحيى.⁴⁷ في الجملة وداع

٤٦ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/189-190.

٤٧ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/189.

قصير لا يصفه لنا أحد بما زاد؛ لكنها تدل على أن الرحلة أنشأت صلة تتجاوز ساعة الإملاء. يجيء الغريب طالباً، ثم يصبح غيابه مما يشعر به الشيخ.

ازدحام لا يشبه الخلوة

وفي مكة كان عند سفيان بن عيينة من كثرة الطلبة ما أصاب أحمد بسببه غشي. سأله المروزي: أكان أغمي عليك عند ابن عيينة؟ فقال: نعم، زحمني الناس في دهليزه.⁴⁸ ذلك هو الموضع الذي بلغته الأجساد في شوقها إلى السماع، لا صورة مجلس مريح لكل من قدم إليه. X

يجتمع عند الشيخ أهل أمصار، ولكل منهم أيام معدودة ونفقة تنقص وشوق إلى الحديث. وعلى الطالب أن يحفظ ما يسمع وسط هذا كله. ومن هنا نفهم كيف صار له بعد ذلك وزن لحق السائل، وللجلوس، وللقراءة من الكتاب، وللتثبت من اللفظ الذي بلغه.

كما نفهم معنى أن يعرفه بعضهم في مسجد الخيف يفتي فتوى واسعة سنة ثمان وتسعين ومائة.⁴⁹ لا يزال في رحلات الطلب، وقد صار في بعض المواطن مرجعاً لمن يسأل. لم توجد لحظة

واحدة أغلق فيها دفتر التعلم وأعلن أنه فرغ؛ كان التعليم والطلب يتداخلان في حياته.

ما الذي نبدأ به من الكتب؟

حفظ إسحاق بن راهويه من صحبتهم عند عبد الرزاق خبر خروجهم إلى المصلى في العيد. لاحظ الشيخ أنهم لم يكبروا، فسألهم، فقالوا إنهم يرون التكبير، لكنهم شغلوا بالتفكير فيما يبدأون به من الكتب.⁵⁰

لا تحمل الواقعة مدح الغفلة عن الذكر؛ فيها غلبة شغل على خاطر الطالب، ثم تنبيه الشيخ له. لقد اقتربا من كنز العلم الذي جاء إليه، وصار ترتيب الأخذ منه حاضراً في بالهما حتى في الطريق إلى المصلى. ويبين الجواب أنهما لم يتركا التكبير لمذهب يقصدانه، بل لأمر شغلها عنه.

وفي سؤال البداية عمل من أعمال الرحلة لا تراه صورة المسافر وحدها. ليس كل كتاب سواء في الحاجة، ولا كل وقت متاحاً للسمع، ولا كل شيخ يبقى للطالب حتى يفرغ مما عنده. ينبغي

٤٩ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/191، 309.

٥٠ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/193.

أن يعرف ما يأخذ أولاً وما يؤخر، وما يحتاج إلى أن يسمعه وما ينسخه ويقال به.

خلف باب عبد الرزاق

حين نفدت نفقته، علم عبد الرزاق بحاله. لم يرد أن يعرض عليه المال أمام الناس. أخذ بيده وأقامه خلف الباب، وشرح له أن الدنانير لا تجتمع عندهم، وأنه وجد عند النساء عشرة دنانير يرجو أن تكفيه حتى يتهيا غيرها. فقال أحمد: لو قبلت من أحد شيئاً قبلت منك.⁵¹

يحمل عرض الشيخ لطفاً لا ينقصه أن الطالب لم يقبله. لقد صان حياته بالخلوة، وبين له أن المال ليس فضل غني بعيداً عن أهل بيته، وفتح له باباً ليستمر في الطلب. ويحمل الجواب توقيراً لا يجعله القبول شرطاً للمودة. أحمد يرد الدراهم ولا يرد منزلة صاحبها.

ثم كان عبد الرزاق إذا ذكره دمعت عيناه، كما يروي الرمادي.⁵² قد يقف القارئ طويلاً عند صبر الطالب على قلة المال، ويغفل دمة الشيخ الذي حاول أن يعينه. السيرة تضم الاثنين؛ لا تصنع

٥١ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/192-193.

٥٢ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/229.

من أحمد رجلاً لا يحتاج إلى أحد، ولا من الذين عرضوا عليه
العون أشخاصاً يريدون صرفه عن ورعه.

وفي رواية إسحاق بن راهويه أنه كان يراه يعمل التكك ويبيعها
ويتقوت منها، حين كانا في المسكن عند عبد الرزاق.⁵³ إنها صنعة
صغيرة بين ساعات العلم. اليد التي تكتب تحتاج إلى ما يقيم
الجسد، والوقت الذي يباع منه شيء لتحصيل القوت هو من
وقت الطالب نفسه.

تعب يظهر على الوجه

عاد من اليمن، فراه أحمد الدورقي في مكة وقد ظهر عليه النصب
والشحوب. كلمه، فقال: «هين فيما استفدنا من عبد الرزاق». لا
يقول إن التعب لم يقع، بل يقيسه إلى ما عاد به. بهذه الموازنة
نفهم⁵⁴ الصبر الذي تكرر في حياته: كلفة حاضرة، ومقصود عنده
أرجح منها. وليست كل كلفة دليلاً على صحة المقصود. قد يتعب
الإنسان فيما لا ينفعه. أما هنا فنرى ثمرة محددة: أحاديث
وكتب، ومعرفة بشيخ وروايته، ومادة ستدخل في علمه الذي حمّله

٥٣ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/193-194. ختم الراوي الخبر بقوله: «هذا أو نحوه».

٥٤ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/215.

الناس. قوله «فيما استفدنا» يعيد النظر إلى الحصيلة، لا إلى تجريد التعب لذاته. X.

وحين يذكر بعد ذلك المجلس الأول الذي سمعه من حفظ عبد الرزاق، ويميزه من سماعه من كتبه، نعرف أنه لم يرجع من الرحلة بذكري وجدانية وحدها. رجع بخريطة لما تلقاه وكيف تلقاه، وحفظ من عمر الشيخ وحال روايته ما يفيد من يأتي بعده.⁵⁵

إلى الشام ثم إلى البيت

سأله المروزي عن خروجه إلى الشام، فقال إنه كان بعد ولادة صالح، ويظن أن صالحاً كان ابن ست سنين. وذكر أن ذهابه إلى اليمن ورجوعه استغرق عشرة أشهر، خرجوا من مكة في صفر ووافوا الموسم.⁵⁶ يعيد هذا التأريخ الرحلة إلى تقويم الأسرة: للغائب ولد يكبر، وبيت ينتظر، وأيام من العمر لا تعود. X.

وعن بعض خروجه إلى الثغور قال إنه كتب عن مبشر الحلبي خمسة أحاديث بمسجد حلب، وكانوا خرجوا إلى طرسوس على

٥٥ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/215.

٥٦ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/306.

أرجلهم.⁵⁷ خمسة أحاديث في طريق طويل؛ لا يبدو العدد كبيراً إذا فصله القارئ عن المسافة، لكنه يصبح جزءاً من شبكة جمع واسعة حين يضعه إلى جوار ما أخذه في غيرها من المدن. ثم تستقر تلك الرحلات في الكتب التي تراها مبسطة حوله في بغداد. كل جزء منها له طريق وشيخ وزمن. وما يراه الابن كتاباً قريباً من اليد قد يكون أبوه بلغ أصله بعد مشي وجوع وانتظار. لذلك ظل يحمل للكتاب هيئته، ولم يحمله ازدياد علمه على أن يهون من عمل التثبت الذي بدأ به.

الفصل التاسع: الفقيه الذي يتعلم

جلس أحمد إلى الشافعي في مكة. جاءه بما جمع من الحديث، ووجد عنده فهماً يريد أن ينتفع به. في هذا اللقاء يبقى الحافظ طالباً، ويبدأ بين الرجلين أخذ ستبقى أخباره في حياتيهما.

كان قد عرف مجالس كبار المحدثين، وحفظ من الحديث ما عرف به بين أهله، ثم وجد عند الشافعي نظراً إلى النصوص يزيد على جمع طرقها: كيف يفهم بعضها في ضوء بعض، وكيف يحمل العام على ما يبينه، وكيف تكون السنة بياناً للكتاب. ولم تمنعه منزلته الناشئة من أن يبقى تلميذاً حيث يجد ما يحتاج إليه.⁵⁸

قال أحمد، فيما رواه عنه ابنه عبد الله حين ذكر الشافعي: «ما استفاد منا أكثر مما استفدنا منه».⁵⁹ في الجملة وفاء، وفيها اعتراف متبادل بالعلم. لا يضيق أحمد بأن تكون عند صاحبه معرفة ينفعه بها، ولا يحتاج إلى أن يصغر ما أخذه ليحفظ لنفسه مقاماً. وقد بلغ التقدير بينهما أن خاطبه الشافعي بما حفظه أحمد عنه:

٥٨ — أحمد بن حنبل، العلل ومعرفة الرجال، رواية عبد الله، 1/449-450، الأرقام 1053-1055، وأقربها إلى هذا المعنى 1055؛ وانظر 1/457، الرقین 1081-1082.

٥٩ — الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/210، فيما رواه عبد الله عن أبيه حين ذكر الشافعي.

«يا أبا عبد الله: إذا صح عندكم الحديث، فأخبرونا حتى نرجع إليه، أنتم أعلم بالأخبار الصحاح منا، فإذا كان خبر صحيح، فأعلمني حتى أذهب إليه، كوفياً كان أو بصرياً أو شامياً». X⁶⁰

تلتقي هنا قوتان، ويعترف كل واحد منهما بما عند الآخر. ينتفع أحمد بفقهِ الشافعي، وينتفع الشافعي بمعرفة أحمد بطرق الخبر. ولا تمنع هذه الصلة أن يكون لأحمد بعد ذلك اختياره الذي يخالف فيه شيخه. العلم الذي يقوم على الدليل يجعل الوفاء أوسع من الموافقة الدائمة.

وليس صحيحاً أن الفقه جاءه بعد أن فرغ من الحديث، كأنه صناعة منفصلة أضافها إلى اسمه. حفظ مسائل كتب أهل الرأي، وعرف ما فيها، حتى كان يصحح لأصحابها ما ينسبونه إلى كتبهم.⁶¹

السؤال الذي يفتح النص

أيام الرحلة كان يناقش وكيماً ويحيى بن آدم، ويحتج بالأحاديث في مسائل الفقه. ومن أمثلة ما بقي عن مجلسه المبكر بحث الطلاق

٦٠ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/213-214.

٦١ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/188؛ 306-307.

قبل النكاح؛ جمع فيه ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم
والصحابه والتابعين. وبعد نحو أربعين سنة أعاد سفيان بن وكيع
ذكر جوابه، فسأل عبد الله أباه عنه، فقال: «صدق، كذا
قلت».⁶² X

ذلك شاب لا يجيب من رأي عابر، بل يجمع لما يقول وجوهه.
وسنراه في المحنة يرجع إلى المعنى نفسه، حين يستدل خصومه
بعموم لفظ من القرآن، فيسألهم عن عموم آخر يعرفون أنه ليس
على الإطلاق الذي يوهمه اقتطاعه. ما كان يتكئ في تلك الساعة
على صبر مجرد من المعرفة؛ كانت معه صناعة تعلها قبل أن يحيط
به الحرس بسنين.

وجلس للفتيا، لكن السكوت لم يغادر مجلسه. قال المروزي إنه
إذا جلس بعد العصر «لا يتكلم حتى يسأل».⁶³ ليس كل اجتماع
بالشيخ خطبة، ولا كل سكوت عجزاً عن ملء الوقت. يأتي
صاحب الحاجة بمسأله، فيجد من يستمع إليها. وقد تشابه أسماء

٦٢ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/186-189. المقصود هنا تصوير سعة
الاستحضار ومسار الفقه، لا تقرير فتوى عملية للقارئ في الطلاق؛ فتفاصيل هذه المسألة
وشروط صورها مبسطة في كتب الفقه.

٦٣ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/218.

المسائل وتختلف أحوال السائلين، فيحتاج العالم إلى أن يتبين قبل أن يجيب.

سيجمع أصحابه من هذه الأجوبة كتب المسائل: يسأل الميموني، ويسأل الأثرم، ويسأل أبو داود، ويسأل ولداه، ويحفظ كل منهم ما سمع. وبذلك بقيت صورة العلم وهو يعمل: سؤال بعينه، وجواب، وتوقف، ورجوع، واختلاف رواية قد يتصل باختلاف الحال أو ما انتهى إليه الاجتهاد. صار لهذه المادة بعده بناء مذهبي واسع، ولكن بدايتها في كثير من المواضع كانت صوت إنسان يسأل إنساناً.⁶⁴

هبة لا تطرد الفقير

هاب أبو عبيد أن يسأل أحمد كما لم يهب غيره. ومع تلك الهبة كان في مجلسه من اللين ما يأمن إليه الضعيف. ويقول الميموني: سمعته يجيبني «لبيك لبيك». ثم يضع المروزي أمامنا ميزان المكان كله: «لم أر الفقير في مجلس أعز منه في مجلس أحمد». ⁶⁵X

٦٤ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/181-183؛ 321-323 ذكر الذهبي جماعة

أصحاب المسائل والرواة عنه، ودافع عن إمامته في الفقه في 11/321 وما بعدها.

٦٥ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/203؛ 218.

فإذا أردنا تصور مجلسه، لم يكف أن نضع فيه كتباً ووجوه علماء.
ينبغي أن نرى الفقير الذي يجد عزه، والسائل الذي لا يطرد
بغلظة، والشيخ الذي لا يتصدر في المسجد، ولا يبادر كل جالس
بالكلام عن نفسه. علمه حاضر، وصاحبه يحاول ألا يتضخم
حضوره على حساب الناس.

كان يقول للناس إذا أراد القيام: «إذا شئتم».⁶⁶ عبارة صغيرة،
ولكن الصغائر المتكررة تصنع السمات. يستطيع الرجل أن يعظ
طويلاً في التواضع ثم يثقل على جليسه؛ وتستطيع كلمة هادئة أن
تحفظ لغيره حقه في المجلس. ومن عرفوا أحمد حفظوا هذه العبارة
كما حفظوا بعض أجوبته الكبرى، لأن أدبه كان عندهم مما
يستحق الرواية.

وحين يأتيه زائر معجب، قد يرده إلى قدره بقوله: «من أنا؟».
يضيق بالمدح الذي يفسد القلب، ويخاف على نفسه مما يطمئن إليه
غيره. لم يكن هذا يلغي مكاتته في عيون أصحابه؛ كان يزيدهم معرفة
بما يحرس به قلبه. وسوف تصبح حراسة القلب أشق حين تفتح له
الشهرة أبواباً لم يطلبها.

مجلس يتعلم فيه الشيخ أيضاً

كان يزيد بن هارون يحدث، فوهم في شيء، فكلمه أحمد. أخرج يزيد كتابه، ونظر، فوجد الأمر كما قال الطالب، فغيره. ثم صار إذا جلس يدنيه ويقربه.⁶⁷ لم يحتج أحمد إلى أن يهدم منزلة الشيخ حتى يصحح له، ولم يحتج الشيخ إلى أن يحمي منزلته برد التصحيح. X

تضع هذه الواقعة بين أيدينا صورة للتعليم لا تقوم على حفظ المقامات وحدها. للشيخ حق التوقير، وللحديث حق الضبط. وإذا تعارض في نفس الطالب خوفه من أن يراجع شيخه مع علمه بموضع الوهم، فإن الأدب أن يؤدي البيان على وجهه، لا أن يترك الخطأ يمضي.

وزاد يزيد على قبول المراجعة عيادة الطالب حين مرض. كان يعرفه في المجلس، ثم قصده في علقته. يكبر العلم في هذه الصحبة، لأن الثقة لا تنشأ من امتحان الذاكرة فقط، بل من وقت يتقاسمه الناس، ومن انتباهه إلى ما يصيب بعضهم خارج ساعة الدرس.

كان يزيد كثير المداعبة، ويوقر أحمد توقيراً خاصاً. أحب قربه، وعرف من علمه وسمته ما دعاه إلى هذه المعاملة. اتسعت مجالس الشيوخ للبشاشة والجد، وتعلم فيها أحمد كما تعلم أصحابه.

ما فقه الحديث؟

قال إسحاق بن راهويه إنه كان يجالس أحمد ويحيى بن معين ويتذاكرون، فيسأل: ما فقهه؟ ما تفسيره؟ فيجيبه أحمد. لا ينقص هذا من علم ابن معين في بابيه، وإنما يكشف ما برز لأحمد في هذه الصحبة من ربط الحديث بفهمه.

ولذلك لا يصح تقسيم أهل ذلك العصر تقسيماً يجعل المحدث حافظاً لا يفقه، والفقهاء ناظرين لا يبالي بالرواية. في سيرة أحمد يتجاوز طلب الإسناد والسؤال عن المعنى. يرحل إلى رجل لأنه عنده حديث، ثم يجلس إلى الشافعي لما يرى عنده من الفهم، ويتذاكر مع يحيى بن آدم حتى يرتفع الصوت في المناظرة.

وفي خبر يرويه الأثرم عن رجل لم يسمه، يذكر اجتماع أحمد ويحيى بن آدم وانشغال الحاضرين بمناظرتهم.⁶⁸ تبقى هذه الحكاية في حدود هذا الطريق؛ فلا نجزم بتفاصيل المجلس من رواية لم يسم

٦٨ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/189، في طريق الخبر راو لم يسم، فيورد

بوصفه رواية في هيئة المذاكرة، ولا يبني عليه تفصيل لم ينقله المصدر.

شاهدها. أما حضور الفقه في علم أحمد فتدل عليه أجوبته ومسائله التي حفظها أصحابه.

أن يدل السائل على غيره

يذكر الذهبي خبر رجل أتى أحمد في مسألة، فدله على أبي عبيد، وقال إن له بياناً لا يسمعه من غيره. ذهب الرجل فشفى جوابه، ثم أخبر أبا عبيد بما قال أحمد، فأثنى أبو عبيد عليه بما عرفه فيه من العلم والحلم والفهم.⁶⁹ X

هذا لون من السخاء لا يقاس بالدراهم. للسائل حاجة، وقد وجد من يقصد، لكن المقصود يدل على من يرجو أن يكون أبين له في مسألته. لا يجعل كل سؤال فرصة لزيادة تعلق الناس به، ولا يخشى أن ينتقص ذهاب الرجل إلى غيره من مكانه.

وفي صلة أهل العلم بعضهم ببعض أثر مباشر في طالب العلم. إذا رأى شيخه يعرف قدر غيره، تعلم أن غايته الفهم. وإذا رأى العلم محصوراً في حماية السمعة، تعلم أن كل تصحيح تهديد. بقي في أخبار أحمد من النوع الأول ما يفسر لماذا اجتمع له احترام من اختلفت طبقاتهم ومنازلهم.

شهادة الحافظ وحدود العدد

قال أبو زرعة لعبد الله إن أباه يحفظ ألف ألف حديث. هذه شهادة في سعة العلم، وقد شرح الذهبي أن المعدود يدخل فيه المكرر والأثر وفتوى التابعي وما فسر ونحو ذلك؛ فلا يفهم العدد على أنه مليون متن نبوي مختلف صحيح.⁷⁰ X

وراء العدد طريقة عمل أهم من بريقه. يقول أبو زرعة إنه رأى أجزاء ليست في أوائلها أسماء من حدثوا بها، ومع ذلك كان أحمد يعرف كل جزء عن سمعه. وأخرج إليه أجزاء في حديث سفيان، فظنها أبو زرعة عن رجل واحد، فلها قرأها عليه جعل يذكر وكيلاً ويحيى وغيرهما.⁷¹

يمكن للقارئ أن يتصور قيمة هذه المعرفة دون أن يشاهد الامتحان الذي جرى. حين يكتب المحدث طرقاً مختلفة للخبر، فليس اختلاف الأسماء حاشية يمكن إسقاطها؛ به يعرف أين وقع الخطأ، ومن وافق من، وأي لفظ حفظه أي راو. ومن فقد الطريق فقد بعض قدرة النص على أن يشهد لنفسه أو يكشف علقته.

٧٠ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/187-188.

٧١ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/188.

لكن أحمد، مع هذا، لم يجعل الحفظ مسوَّغاً لترك الكتاب. قال عبد الله إنه لم يره يحدث من غير كتاب إلا بأقل من مائة حديث.⁷² هنا تلتقي قوة الذاكرة مع الاحتياط المكتوب. وقد تتطلب الأمانة من صاحب القدرة الكبيرة أن يراجع أكثر، لأن الخطأ الذي يصدر عنه يطمئن إليه ناس أكثر.

حين لا يكون النقل إذناً بالرواية

قال إنه أكثر عن عمر بن هارون، ثم لا يروي عنه شيئاً. وذكر أنه أدرك رجالاً ولم يسمع منهم، وأنه سمع كلام خلف بن خليفة فلم يفهمه من كبره.⁷³ ليست كل رحلة تنتهي بزيادة يحق له أن ينقلها، ولا كل لقاء يصلح أن يدخل به اسم جديد في سلسلة شيوخه على المعنى الذي يتوهمه القارئ. X

وقد كتب من كتب أخرجت إليهم ولم يسمعوها في ذلك المجلس، وحفظ هذا الفرق في حكايته.⁷⁴ فطريق المعرفة بالنص جزء من أمانة عمله. ليس نقل الكتاب عن خطه أو نسخه من أصل حاضر

٧٢ — الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/213.

٧٣ — الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/307-308.

٧٤ — الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/189-190.

هو بعينه سماعه من صاحبه، وإن كان لكل طريق أحكامه وموضعه عند أهل العلم.

هذه التفاصيل هي التي أعطت لعبارة «لا أدري» وزنها بعد ذلك. لم يقلها رجل أعرض عن أسباب المعرفة، بل قالها من بذل في أسبابها عمراً، وعرف أن البذل لا يمنحه علم ما لم يعلمه. وبين الثقة بهذا الجهد والوقوف عند حدوده تشكلت طريقته في الفتوى والنقد.

ما الذي يراه الطالب في وجه أستاذه؟

وصف جلساؤه علمه وسمته معاً: صبراً وتواضعاً وقلة التفات إلى الدنيا. ظهرت هذه الصفات في المجلس الذي كان يحمل فيه الحديث، فحفظوا من صاحبه فعلاً يوافق القول.

قد يحفظ الطالب جواباً ثم ينساه، وتبقى في ذاكرته طريقة أستاذه حين صحح له أحد، أو حين قال له: اسأل فلاناً، أو حين سكت عما لا يعرف. تلك مواقف يتعلم بها كيف يحمل ما سيعرفه هو. ولهذا لا تختصر صناعة العالم في مقدار المادة التي ينقلها؛ فيها كذلك الطريقة التي يسمح بها للحقيقة أن تظهر ولو خرجت على لسان غيره.

وبعد سنوات سيقصد الناس أحمد بما عندهم من أسئلة دقيقة، وسيحفظ ابنه لفظه في القبول والتوقف، وسيعود النقاد إلى أجوبته

يقارنونها بغيرها. لم يكن ذلك انتقالاً مفاجئاً من الفقر إلى
المرجعية؛ كان ثمرة طريق طويل، فيه شيوخ أكرموه، وشيوخ
راجعهم، وأصدقاء تناقش معهم، وكتب لم يستغن عنها.

الفصل العاشر: أحمد والشافعي

لقي أحمد عند الشافعي علماً يحتاجه، ولقي الشافعي عند أحمد معرفة بالحديث يرجع إليها. أخذ كل منهما عن صاحبه، وصرح بفضله، ثم اختلفا في مسائل. اتسعت الصحبة للتعلم وللإختلاف معاً.

اللقاء

التقيا في مكة، ثم اتصلت أخبارهما في بغداد. يقصد أحمد مجلس الشافعي، ويثني على فقهه، ويحفظ له الشافعي معرفته بالحديث. تثبت قوة هذه الصلة فيما قاله أحدهما في الآخر، وفي العلم الذي انتفع به عنده.

وقد كان أحمد يحرص على مجلس الشافعي حرصاً تعجب له أصحابه. يروى أن رجلاً حج معه فنزل معه في مكان واحد، فخرج أحمد باكراً، فدار الرجل المسجد فلم يجده في مجلس ابن عيينة ولا غيره، حتى وجده جالسا مع شاب يسأله ويكتب عنه؛ فقال له: تدع ابن عيينة وتجلس إلى هذا؟ فقال أحمد ما معناه: إن فاتك

حديث ابن عيينة وجدته بعلو عند غيره، وإن فاتك عقل هذا الفقي
لم تجده عند أحد.⁷⁵

ما الذي أخذه أحمد من الشافعي؟

تروى عن أحمد عبارات في الثناء على فقه الشافعي وانتفاع أصحاب
الحديث به.⁷⁶ وقد سبقت في فصل الطالب أخبار سماعه منه
ودعائه له وشهادته بإمامته. يوضح هذا الثناء أن اتساع علمه لم يمنعه
من الاعتراف بما تلقاه من غيره. X

برز أثر الشافعي في مباحث الاستدلال وفهم الحديث، وينسب
إلى أحمد الإقرار بالانتفاع به في ذلك.⁷⁷ لا يلزم من هذا نفى
الفقه عن سبقه من المحدثين؛ فالتعلم من عالم لا يبدأ من فراغ،
والثناء على إحسانه لا يبطل إحسان غيره.

٧٥ - البيهقي، مناقب الشافعي، رواية محمد بن الفضل البزار عن أبيه في حقه مع أحمد؛
النص الإلكتروني في المكتبة الإسلامية، صفحة العرض 386. أدي الخبر هنا بالمعنى.

٧٦ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/210، رواية عبد الله عن أبيه في الانتفاع
بالشافعي.

٧٧ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/180-181، 210؛ وانظر العلل ومعرفة
الرجال، رواية عبد الله، الأرقام 1053-1055.

ما الذي أخذه الشافعي من أحمد؟

وقال الشافعي لأحمد، فيما رواه ابن أبي حاتم: «أنتم أعلم بالحديث والرجال مني، فإذا كان الحديث صحيحاً فأعلموني، كوفياً كان أو بصرياً أو شامياً، حتى أذهب إليه إذا كان صحيحاً».⁷⁸ في العبارة إقرار لصاحب علم بتخصصه، واستعداد للرجوع إلى ما يصح عنده. X

وروى المزني عن الشافعي أنه عد أحمد فيمن أعجبه من أهل العلم، ووصفه بأنه صغير كلما قال شيئاً صدقه العلماء.⁷⁹ هي شهادة بمكانته في ذلك المجلس العلمي؛ لا تحول إلى دعوى الإحاطة بكل ما قيل في فضله أو بجمع من صحب الشافعي.

الخلافا

ولم تمنع الصلة بينهما من اختلاف الاجتهاد. يقرأ اختلاف الفقهاء في مواضعه وأدلته، ولا يجعل كل خلاف خصومة شخصية. وهذه

٧٨ - ابن أبي حاتم، آداب الشافعي ومناقبه، ص 70.

٧٩ - ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، تحقيق عبد الله التركي، ص 143-144، رواية المزني عن الشافعي. المقابلة على النص الإلكتروني ذي ترقيم الطبعة.

الأخبار تعلم القارئ أن يثبت فضل المعلم مع بقاء حق النظر في قوله.

اختلفت طرائق العلماء في قبول العطاء والعمل العام، ولا يحمل اختيار أحدهم في معاشه على أنه حكم على جميع طرائق غيره. والمحفوظ في هذه الصحبة شهادة كل واحد منهما بعلم الآخر، وهي أضبط من الجزم بأن خلافاً أو عتاباً لم يقع بينهما قط.

التجديد

ويروى عن أحمد أنه ذكر حديث: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها»، ثم قال: فنظرنا فإذا في رأس المئة عمر بن عبد العزيز، وفي رأس المئتين الشافعي. فهذا تعيين يروى عن أحمد للشافعي مجدداً للمئة الثانية.⁸⁰ ثم جاء من بعدهم فقالوا في أحمد نفسه ما قاله في الشافعي X.

والذي يبقى من هذه الصحبة أن العالم قد يجتمع له التقدير والمراجعة: يعرف فضل من تعلم منه، ويرجع إلى الدليل الذي يتبين له. لا يحتاج الوفاء إلى محو الاختلاف.

٨٠ - حديث التجديد أخرجه أبو داود، رقم 4291، وصححه الألباني. وأما تطبيقه

المنقول عن أحمد فانظر: الخطيب، تاريخ بغداد، 2/400؛ البيهقي، مناقب الشافعي، 1/54

-55؛ الذهبي، السير، 10/46.

الفصل الحادي عشر: بيت فيه خبز وأطفال

تزوج أحمد وهو ابن أربعين سنة. قال حنبل إنه سمعه يقول: «تزوجت وأنا ابن أربعين سنة، فرزق الله خيراً كثيراً». ⁸¹X

كان زواجه باباً جديداً في حياة طال فيها السفر. تزوج عباسة بنت الفضل، فولدت صالحاً. وبعد وفاتها تزوج ربحانة، أم عبد الله. ثم كانت في بيته أم ولد اسمها حسن، ولدت له زينب، وولدت الحسن والحسين فماتا قريباً من ولادتهما، ثم ولد له أولاد عاشوا بعد ذلك. يحفظ خبر الحفيد أسماءهم، وفي الأسماء أفراس بيت وفقد صغار لا تتوقف عندهما كتب المواقف العامة طويلاً. ⁸²

وفي البيت قوت ينبغي أن يجدوه كل يوم. قال أحمد لصالح: «كانت أمك في الغلاء تغزل غزلاً دقيقاً، فتبيع الأستار بدرهمين

٨١ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/185؛ 187.

٨٢ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/185. نقل الذهبي خبر زهير بن صالح عن جده، وفيه ترتيب الزوجات والأولاد. لا ينسب الكتاب إلى أحمد حواراً في وفاة الصغيرين؛ إذ لم يرد في الخبر.

أو نحوه، فكان ذلك قوتنا». حفظ الابن من علم أبيه كثيراً، وحفظ هذه اليد التي كانت تعمل ليقوم البيت.⁸³

نسمع كثيراً عن زهد العالم، ونقلها نتوقف عند اليد التي تغزل معه أسباب الحياة. كانت هذه المرأة شريكة في احتمال ضيق المعاش، وعملها حاضراً في كلام زوجها لابنهما. لم يكن الخبز يصل إلى البيت لأن صاحبه عالم؛ كانت له أسباب يذلها أهلها، ويعرف بعضهم فضل بعض فيها.

وكان أحمد يعمل بيده. يروي صالح أنه يخرج بالقدوم إلى دار السكان يصلح الشيء، ويذهب إلى البقال فيحمل جرزة الحطب أو حاجته، ولا يدع من يستقي له عند الوضوء. وله قلنسوة خاطها بيده وجعل فيها قطناً يلبسها إذا قام بالليل. تلك أعمال متفرقة، لكنها تضع الإمام في منزله بعد أن تطول صحبته في الكتب: يد تخطط، ويد تحمل، ورجل لا يرى خدمة نفسه هبوطاً عن منزلته.⁸⁴

٨٣ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/324. له لفظ آخر في، 11/208-209. يثبت الخبر مشاركة أم صالح في معاش البيت، ولا يحدد جميع موارده في كل زمن.

٨٤ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/209.

الجد الذي يتفقد الحفيد

وسئل زهير بن صالح: هل رأيت جدك؟ فقال: نعم، مات وأنا ابن عشر سنين. ثم حدث عن باب يصل دارهم بداره، وعن زيارة كل جمعة، وعن نصيب صغير من الفضة يكتبه لكل حفيد إلى بقال يعامله. وحين أراد صالح ختان ابنه علي، صنع طعاماً كثيراً ودعا قوماً؛ فبعث إليه أبوه يذكره بالفقراء والضعفاء.^{X⁸⁵}

ومن سيرته: قال الخلال: قلت لزهير بن صالح: هل رأيت جدك؟ قال: نعم. مات وأنا في عشر سنين، كما ندخل إليه في كل يوم جمعة أنا وأخواتي، وكان بيننا وبينه باب، وكان يكتب لكل واحد منا حبتين حبتين من فضة في رقعة إلى فامي يعامله. وربما مررت به وهو قاعد في الشمس، وظهره مكشوف فيه أثر الضرب بين، وكان لي أخ أصغر مني اسمه علي، فأراد أبي أن يخنقه، فاتخذ له طعاماً كثيراً، ودعا قوماً، فوجه إليه جدي: بلغني ما أحدثته لهذا، وأنتك أسرفت، فابدأ بالفقراء والضعفاء. فلما أن كان من الغد، حضر الحجام، وحضر أهلنا، جاء جدي حتى جلس عند الصبي، وأخرج صريرة، فدفعها إلى الحجام، وقام فنظر الحجام في الصريرة، فإذا درهم واحد. وكنا قد رفعنا كثيراً من الفرش، وكان الصبي

على مصطبة مرتفعة من الثياب الملونة، فلم ينكر ذلك. وقدم علينا من خراسان ابن خالة جدي، فنزل على أبي، فدخلت معه إلى جدي، فجاءت الجارية بطبق خلاف، وعليه خبز وبقل وملح، وبغضارة، فوضعتها بين أيدينا، فيها مصلية فيها لحم وصلق كثير، فأكل معنا، وسأل ابن خالته عمن بقي من أهله بخراسان في خلال الأكل، فرما استعجم عليه، فيكلمه جدي بالفارسية، ويضع اللحم بين يديه وبين يدي. ثم أخذ طبقاً إلى جنبه، فوضع فيه تمر وجوز، وجعل يأكل ويناول الرجل. ^{X86}

ليست نصيحته في الطعام خصومة مع فرح الصبي. جاء في الغد وجلس عنده، وأعطى الحجام، ولم ينكر ما رآه من الثياب الملونة التي جعلت تحته. في الخبر يد تضبط الإسراف، ويد تحضر فرح البيت. ويظل باب الفقراء مفتوحاً في مناسبة يستطيع أهلها أن ينسوهم فيها. ثم يذكر زهير زيارة ابن خالة جده القادم من خراسان. اجتمعوا على طعام بسيط، وجعل أحمد يسأل الضيف عمن بقي من أهله هناك. فإذا لم يفهم، كلمه بالفارسية. وكان يضع اللحم بين يديه وبين يدي الحفيد، ثم قرب تمرًا وجوزاً، وأكل وناول ضيفه. ^{X87}

في هذه المائدة تتسع صورة الرجل: له رحم في بلد بعيد، ولغة يرفق بها بقريبه، وحفيد يراه يختار له من الطعام. العالم الذي حفظ الناس تشدده في باب العقيدة كان يعرف كيف يقرب ضيفاً في بيته. والورع الذي ضيق بعض متاعه لم يجعل يده ممسكة عما بين يديه.

البيت يسمع ما لا يسمعه المجلس

لم تكن الأسرة تعيش حكاية بلا مشقة. يروي صالح ضيقاً يعرفه، وتروي بعض الأخبار شكوى من في البيت مما عند غيرهم. وسمع ابن جبلة أم ولد أحمد تشكو ضيقها، فيقول لها: «قولي خيراً». وفي المجلس نفسه طلب صبي زيبياً، فقال له: «اذهب خذ من البقال بحبة». X⁸⁸

هذه الأصوات جزء من السيرة، لا عارض ينبغي إخفاؤه. كان أحمد شديد الاحتياط في الأخذ، وكان أهله يجدون كلفة ذلك. وسوف يظهر الاختلاف أوضح حين تفرض لهم أعطيات في زمن المتوكل؛ يتكلم صالح عن كثرة عياله، ويطلب منه أبوه أن يتركها. لن نترك صوت الابن خارج الحكاية لنجعل المشهد أيسر على

القارئ. الأسرة رأت من الإمام ما لم يره من يلقاه ساعة، وحملت من أحواله ما لم يحمله جمهور محبيه.

وفي المقابل كان الحنان ظاهراً في الخدمة والقرب. يذكر صالح أنه إذا اعتل أخذ أبوه قدح ماء وقرأ فيه وأمره أن يشرب ويغسل وجهه ويديه. ويذكر أحفاده عطاياه، ويذكر المروزي أنه دعا الصبيان إليه قبيل موته، فأخذ يشمهم ويمسح رؤوسهم وعينه تدمع.⁸⁹ ليس هؤلاء شهوداً يروون قسوة المعيشة وحدها؛ يروون الأب والجد أيضاً.

لقد عاش أحمد في بيت حقيقي: زواج وفقد، وغزل وقوت، ودين يقضى، وضيع يكرم، وطفل يريد نصيبه، واختلاف في تدبير المال. وكلما اقتربنا من هذه التفاصيل، صار ورعه أكثر قابلية للفهم، وصارت رحمته أشد حضوراً من وصف عام نلحقه باسمه ثم نمضي.

الأيدي التي أعانت البيت

في كل بيت أسماء قد تحجبها شهرة رجل واحد. وحين نقرب من بيت أحمد، نرى أن قلة المال لم تكن خبراً يقوله أصحابه للثناء عليه ثم يمضون؛ كانت عملاً يتقاسمه أهله، وثياباً ينسجونها، ونفقة

ينتظرون وصولها، وطفلاً يولد فيحتاج إلى ما تحتاج إليه النساء بعد الولادة. حفظت حسن أم ولده بعض هذا العمل بصوتها. نقرأ شهادتها فلا تصبح المرأة مجرد شاهد على زهد الرجل، بل صاحبة غزل ومتاع واختيار ومبادرة. كانت تسأله عن التصرف في شيء تملكه، وكان يسألها عن طيب نفسها به. تروي أنها عرضت أن تصرف فرد خلخالها، فسألها: «وتطيب نفسك؟». قالت: نعم. فحمد الله، ثم بيع وفرق ثمنه.

هذا السؤال الصغير يسبق الصدقة الكبيرة في المعنى. فإن قيمة البذل لا تقوم على انتزاع شيء من يد صاحبه وإحاقه بسيرة المتصدق، بل على رضاه. وكانت حسن في نظام اجتماعي يختلف عن نظام عصرنا، وهي أم ولد في بيت أحمد؛ فلا نخو هذا الوصف من المصدر، ولا نخو معه صوتها الذي حفظه لنا. وهذه بقية حديثها عن أيام النفقة والثياب:

قالت: ودخل مولاى يوماً، فقال لى: أريد أحتجم اليوم، وليس معى شيء، فجئت إلى جرة لى فيها قريب من نصف من غزل، فأخرجته فبعثت به إلى بعض الحاكّة، فباعه بأربعة دراهم، فاشتريت لحماً بنصف درهم، وأعطيت الحجام درهماً، واشتريت طيباً بدرهم. ولما خرج مولاى إلى سرّ من رأى كنت قد غزلت غزلاً لينا، وعملت ثوباً حسناً، فلما قدم أخرجت إليه ذلك الثوب الحسن،

وكنْتُ قد أُعْطِيتُ كِرَاهِ نَحْمَسَةِ عَشْرِ دَرَهْمًا مِنَ الْغَلَّةِ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهِ، قَالَ: مَا أُرِيدُهُ، قُلْتُ: يَا مُوَلَايَ، عِنْدِي غَيْرُ هَذَا مِنْ قُطْنٍ غَيْرِهِ، فَدَفَعْتُ الثَّوْبَ إِلَى فُورَانَ فَبَاعَهُ بِأَثْنَيْنِ وَأَرْبَعِينَ دَرَهْمًا، وَاشْتَرَيْتُ مِنْهُ قُطْنًا فَغَزَلْتَهُ ثَوْبًا كَبِيرًا، فَلَمَّا أَعْلَمْتَهُ، قَالَ: لَا تَقْطَعِيهِ دَعِيهِ. فَكَانَ كَفَنَهُ، كُفِّنَ فِيهِ، وَأُخْرِجَتْ الْغَلِيظُ فَقَطَعَهُ. ⁹⁰ X

قَالَتْ: وَخَبِرْتُ يَوْمًا لِمُوَلَايَ وَهُوَ فِي مَرَضِهِ الَّذِي تُوُفِيَ فِيهِ، فَقَالَ: أَيْنَ خَبَرْتِيهِ؟ قُلْتُ: فِي بَيْتِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: أَرْفَعِيهِ. وَلَمْ يَأْكُلْ مِنْهُ. ⁹¹

X

بَاعُوا غَزْلًا، فَكَانَتْ مِنْهُ نَفَقَةُ حِجَامَةٍ وَلَحْمٍ وَطِيبٍ. فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الْيَوْمِيَّةِ نَقْتَرِبُ مِنَ الْبَيْتِ: لِلْأَجْسَادِ حَاجَةٌ إِلَى الْعِلَاجِ، وَلِلطَّعَامِ كَلْفَةٌ، وَلِلْمَرْأَةِ جَرَّةٌ تَضَعُ فِيهَا غَزْلَهَا حَتَّى يَأْتِيَ وَقْتُ الْإِنْتِفَاعِ بِهِ. ثُمَّ صَنَعْتُ ثَوْبًا لِرَجُوعِهِ مِنْ سَامَرَاءَ؛ فَلَمَّا لَمْ يَرِدْهُ يَبِيعُ، وَاشْتَرَتْ بِثَمَنِهِ

٩٠ - ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، تحقيق عبد الله التركي، ص 406-407،

رواية الخلال عن محمد بن علي بن بحر عن حسن أم ولد أحمد.

٩١ - ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، تحقيق عبد الله التركي، ص 407-408،

خبر حسن أم ولده. يتصل في المصدر بخبر خلخالها السابق، وينتهي هنا قبل تعقيب ابن الجوزي في عدد سراريه.

قطناً صنعت منه ثوباً آخر. طال بقاء عمل يدها حتى صار ذلك الثوب كفته.

تمتد خيوط الغزل في الخبر من حياة البيت إلى وداع صاحبه. وليس لنا أن نزيد على الرواية فنصف لون القطن أو ليلة النسج أو حديث المرأة مع نفسها. يكفي ما حفظته: كلفة، وثوب، وبيع، وقطن جديد، ثم قول الرجل: دعيه. وبعد ذلك عرفوا لماذا بقي في البيت ولم يقطع.

طفل يأتي في آخر الليل

أما فوران، صاحب أحمد الذي يأنس إليه ويستقرض منه، فقد حفظ طريقة أخرى من طرق البيت إلى حاجته:

قال: سمعتُ أبا محمد فوران، يقول: كنتُ أصحبُ أحمد ابن حنبل ويأنس إلى، ومنى يستقرض، فإذا جاء مولود بالليل وأنا لا أعلم يجيء في السحر، فيقعد على باب دارى لا يدق الباب، وأنا لا أعلم به حتى أخرج إلى الصلاة، فيقوم إلى فيصحبني، فأقول له: فى أى شىء جئت يا أبا عبد الله الساعة؟ فيقول: قد جاءنا مولود، فيمضى

هو، وأصلي أنا الغداة وأخرج إلى القنطرة، أو باب التبن، فأخذ ما يصلح للنساء وأبعث به إليه. ⁹²X

لا يدق الباب؛ ينتظر خروج صاحبه للصلاة. وليس في الخبر أن فوران كان يعلم بانتظاره، بل كان يفاجأ به، ويسأله عن مجيئه في تلك الساعة. ثم نتضح الحاجة: مولود جاءهم. يمضي أحمد، ويصلي فوران، ثم يذهب ليشتري ما يصلح للنساء ويرسله إلى البيت. استعان بصاحب يأنس إليه، واستقرض في حاجة، وتحرى قضاء ما أخذ. في هذه الصحبة ثقة، وحياء يراعي نوم صاحب، وحفظ لحق من أعان البيت.

وتبين الحكاية أيضاً أن الشيخ لم يكن بعيداً عن شؤون الولادة لصالح مقامه في المسجد. يخرج بنفسه في السحر من أجلها، ويقصد صاحباً يعينه. البيت الذي يبدو ساكناً في بعض صور الزهاد كانت فيه مواليد ونساء يحتجن، وكان صاحبه يعرف أن ثمة عملاً ينتظره خارج أبواب العلم.

٩٢ - ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، تحقيق عبد الله التركي، ص 409-410، الباب الرابع والستون، في ذكر عدد أولاده، خبر فوران.

أبناء لا تتكرر فيهم صورة واحدة

حفظ صالح حاجات بيت كثرت عياله، وحفظ عبد الله أسئلة الطالب وما فتح له أبوه من علمه. ثم جاء أبناء أصغر منهما، ومات الحسن والحسين اللذان ذكرتهما رواية الأسرة توأمين. كان للبيت فرحه وفقده، كما كان له تدبير نفقة يومه.

وعاش بعدهما ولد سمي الحسن، ومحمد، وسعيد، وزينب. ولكل واحد من هؤلاء مقدار من حياة أبيه عرفه، ومقدار لم يشهده.⁹³ فالأب الذي شهده الصغار هو الشيخ الذي عرف المحنة وضعف البدن، لا الفتى الذي كان يحمل كتبه بين البلدان. وهكذا تتوزع سيرة الرجل الواحد بين أعمار من عاشوا معه.

ومن رحمة القراءة ألا نطالب أفراد الأسرة أن يكونوا نسخاً منه. كان صالح سخيّاً، وكان كثير العيال، ثم تولى القضاء. وكان عبد الله واسع الرواية عن أبيه وعن غيره. وقد اعترض صالح على أبيه في أمر المال، واعترف بحاجته، وحفظ اعتراضه للأجيال. يزداد صدق صورة البيت بهذا الاختلاف؛ فليس حب الأب إلغاءً

٩٣ - ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، البابان الثالث والستون والرابع والستون؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، 184/11-185.

لأصوات أبنائه، ولا منزلة العالم دليلاً على أن كل من جاوره
عاش تجربته نفسها.

وحين نعود إلى الصورة الأشهر، صورة أحمد وحده تحت السياط،
ينبغي أن نذكر من ينتظرون خلفها. كان هناك بيت يحتاج إلى
خبزه، وولد يحاول أن يوصل الطعام، وقراءة تلتقى الجريح، ثم نساء
وصبيان يحملون ما يأتي بعد المحنة من تضيق واختيارات صعبة. لم
يكن ثباته شأناً منفصلاً عن هؤلاء؛ دخل في أيامهم، وترك في
ذاكرتهم ما صارت به سيرته أقرب وأصدق.

الفصل الثاني عشر: ليل يدعو فيه لأصحابه

سمع عبد الله أباه في السحر يدعو لأصحابه بأسمائهم. كان الابن قريباً من هذه الساعة التي يغيب عنها جلساء العلم، فحفظ منها صوتاً يحمل الوفاء إلى الغائبين.

«ربما سمعت أبي في السحر يدعو لأقوام بأسمائهم، وكان يكثر الدعاء ويخفيه، ويصلي بين العشاءين. فإذا صلى عشاء الآخرة، ركع ركعات صالحة، ثم يوتر وينام نومة خفيفة، ثم يقوم فيصلي. وكانت قراءته لينة، ربما لم أفهم بعضها. وكان يصوم ويدمن، ثم يفطر ما شاء الله. ولا يترك صوم الإثنين والخميس وأيام البيض. فلما رجع من العسكر، أدمن الصوم إلى أن مات». ^{X⁹⁴}

صلاة ونوم ثم قيام، وصوم وإفطار، وقراءة لينة، ودعاء للغائبين. يمضي أحمد في علمه وشؤونه، ويجد أصحابه مكاناً في دعائه عند السحر بأسمائهم.

وقال المروزي: «رأيت أبا عبد الله يقوم لورده قريباً من نصف الليل حتى يقارب السحر. ورأيته يركع فيما بين المغرب

٩٤ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/223. العسكر هنا سامراء. هذه شهادة عبد الله بعبادات رآها، ولا تعني أن كل ليلة في عمره كانت على ترتيب واحد.

والعشاء».⁹⁵ وكان إبراهيم بن شماس قد عرفه يقوم ليلاً وهو غلام. امتد الطريق بين الشهادتين أعواماً، وبقي أصل الصلة. ليس في كل تلك الأعوام جمهور يراقب، ولا محنة تستدعي من الناس الثناء.

كان القرآن عنده كتاب علم وكتاب عبادة. يتعلم طرق الخبر الوارد فيه، ويقرأه في صلاته، ويعرض نفسه على وعيده ووعدده. وحين واجه من أراحه على قول يراه باطلاً في القرآن، كان يدافع عن كلام ربه الذي عاش معه، لا عن مصطلح بعيد من قلبه. ولهذا لن نفهم موقفه إذا عزلناه عن الليالي التي تسبق السؤال والجدل.

القلب الذي يخاف

كان إذا ذكر الموت بكى. وسمعه المروزي يقول: «الخوف يمنعني أكل الطعام والشراب، وإذا ذكرت الموت، هان علي كل أمر الدنيا». ثم يقول في متاعها: «إنما هو طعام دون طعام، ولباس دون لباس. وإنما أيام قلائل».⁹⁶ X

٩٥ — الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/223؛ وخبر ابن شماس في 11/228.

٩٦ — الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/215-216.

خوفه حقيقة من أخباره، كما أن بشره حقيقة من أخلاقه. لا يلزم من الأولى أن نجعله عابساً في كل مجلس، ولا من الثانية أن نتجاهل شدة محاسبته لنفسه. يستطيع الإنسان أن يلقي الناس بلين، ثم يخشى حين يخلو إلى نفسه أن يكون عمله دون ما يرجو. وقد حفظ المروزي الوجهين، فلم ير تعارضاً بين سكينته صاحبه ودمعته.

وحين يخبره الناس بكثرة دعائهم له، لا يجعل ذلك شهادة نهائية بنجاة قلبه. يخاف الاستدراج. وإذا أخبره رجل برؤيا أمه له في الجنة، ذكر له من اغتر بمثل ذلك، ثم قال: «الرؤيا تسر المؤمن ولا تغره».⁹⁷ لا يعامل البشارة إهانة، ولا يسلم لها زمام النفس. يفرح المؤمن بما يسره، ثم يبقى العمل أمامه والحساب إلى الله.

وكان دعاؤه القصير يتردد على مسامع ابنه: «اللهم سلم سلم».⁹⁸ كلمات قليلة تصحب رجلاً كثرت عنده النصوص والعلوم. عند السؤال يطيل الحجة حيث تحتاج، وعند الخوف يسأل السلامة.

٩٧ — الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/210، 227.

٩٨ — الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/209، 222.

حين تقدمت المذاكرة

ومع كثرة عبادته، لم يكن يجهل فضل وقت يفتح فيه باب العلم. قدم أبو زرعة، فأثر أحمد مذاكرته على نوافله في ذلك اليوم. قال عبد الله عن أبيه: «ما صليت اليوم غير الفريضة. استأثرت بمذاكرة أبي زرعة على نوافلي».⁹⁹ X

لا تخرج هذه الكلمة من عابد يستخف بالصلاة؛ تخرج ممن يعرف الفرائض، ويعرف ما يجري في وقت النافلة من نفع آخر. قدم حافظ كبير، وفي اللقاء علم يفوت بفوات صاحبه. فجعل للمذاكرة حقها، ولم يحتج أن يتصنع للناس صورة من لا يتغير برنامجه مهما عرض له. وهذا الاتساع يحفظ للسيرة حيويتها. أحمد يصوم، ويقرأ، ويدعو، ويجلس إلى حافظ فيستغرقه الحديث. ويخالط أهله وأصحابه، ثم يجد الخلوة أروح لقلبه. لا يختزل في جدول جامد، ولا تتوزع أيامه على أوصاف متنافرة. يجمعها قصد العبادة وأداء الأمانة، ولكل حال حقها.

وسوف يدخل السجن بما بقي له من هذه العادات. يصلي بأهله وهو مقيد، ويقرأ على قريبه من العلم، ويجد في الصلاة فعلا يستطيع أن يؤديه حين تضيق بقية أفعاله. لم يتعلم الوقوف بين يدي

الله في الليلة التي أغلق عليه فيها باب الحجرة؛ دخل تلك الليلة وهو
يعرف طريقه.

الفصل الثالث عشر: ورع له يد سخية

كان أحمد قليل المال، لكن الفقير الداخل عليه لم يكن يدخل على يد مغلقة.

قال أبو سعيد المؤدب لعبد الله: «كنت آتي أباك فيدفع إلي الثلاثة دراهم وأقل وأكثر ويقعد معي، فيتحدث، وربما أعطاني الشيء، ويقول: أعطيتك نصف ما عندنا». ثم ذكر يوماً أطال فيه القعود معه، فخرج أحمد من عند أهله وتحت كسائه أربعة أرغفة، وقال: «هذا نصف ما عندنا». فقال الرجل: «هي أحب إلي من أربعة آلاف من غيرك».¹⁰⁰

ليس في يده فضل كثير يخرج به ثم يعود إلى شبع لا يتأثر. يقاسم الرجل ما عنده، ويقعد معه ويتحدث. وبهذا يكتمل الخبر: العطية معها صحبة، والمعونة لا تجعل الآخذ خارج المجلس. إن كان الخبز نصف الموجود، فقد أعطاه أيضاً من وقته ووجهه.

وجاءه هارون المستملي يشكو أنه لا شيء عنده، فدفع إليه خمسة دراهم وقال: «ما عندنا غيرها». وروى أصحابه أنه أعطى من ثيابه، وآثر من جاءه، وأعجبه السخاء.¹⁰¹ تلك الجهة من شخصيته

تمنع أن نفهم زهده على أنه تعلق خفي بالمال في صورة الامتناع عن إنفاقه.

كان يمسك عن الأخذ حين يخشى تبعته، ويفتح يده بما يملك حين يرى حاجة غيره.

المقص الذي سقط في البئر

سقط مقص لصبي في بئر، فنزل أبو الفوارس، وكان يسكن من أملاك أحمد، فأخرجه. بعث إليه أحمد بنصف درهم، فامتنع الرجل؛ رأى أن صنيعه يسير. ثم وقع بينهما حديث في أجرة الدار، فترك له أحمد أجرها مدة. ^{X 102}

لا تنسب إليه الحكاية إحساناً لا يعرف سببه. رجل نفع أهل البيت، وأحمد يريد أن يكافئه، ثم يفتح له باباً في معاملة يومية. هذا خلق يعيش في الأجرة والأدوات والحاجة الصغيرة. وليس أقل دلالة من صدقة كبيرة تحفظها كتب المناقب؛ لأن أكثر أخلاق الناس تظهر في مثل هذه الوقائع التي تمر بلا شهود كثيرين.

١٠١ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/219.

١٠٢ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/219-220. خبر أبي الفوارس محمد، وفيه تفصيل رد العوض وما جرى في أجرة ثلاثة أشهر.

واستقرض مالا ثم جاء يقضيه. قال صاحب المال إنه لم ينو أخذه، فقال أحمد: «وأنا ما نويت إلا أن أردّها إليك». لم يقرأ تكريم الدائن إعفاء من عزمه الأول. أراد أن تبقى المعاملة واضحة، وأن يقابل معروف صاحبه بما التزمه له. كان الدين عنده وعداً يحمله معه حتى يقضيه.¹⁰³

هدية تطلب رسالة

أهدي إلى صالح شيء عند مولد ولد له. ومضت أشهر، ثم أراد صاحب الهدية السفر إلى البصرة، فسأل صالحاً أن يكلم أباه ليكتب له إلى شيوخها. فلما كلمه، قال أحمد: «لولا أنه أهدى إليك، كنت أكتب له». X¹⁰⁴

ربط أحمد امتناعه بالهدية التي قدمت لابنه. لم يطمئن إلى كتابة الرسالة بعدما دخلت تلك الصلة في الأمر. هذا اختياره في هذه الواقعة، ولا يحمل وحده حكماً على كل هدية أو تزكية.

١٠٣ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/214.

١٠٤ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/206.

وسأله محمد بن طارق أن يستمد من محبرته، فتبسم وقال: «لم يبلغ ورعي ورعك هذا».¹⁰⁵ تتسع العبارة لابتسامة تخفف تكلف السؤال عن اليسير المأذون فيه. الرجل الذي يقف عند هدية نتصل بجاهه لا يجعل كل قطرة حبر امتحاناً ثقيلاً. وهذه الفروق هي التي تعطي ورعه معناه، وتحفظه من أن يصير مجموعة ممنوعات لا صلة بينها.

الثوب النظيف

لم يكن زهد أحمد إهمالاً لنظافته. وصف الميموني عنايته ببدنه وشعره، ونقاء ثوبه، وقال إنه لم ير أحداً أنظف منه. ولم يكن الثوب في وصفه ذا دقة تنكر ولا غلظ ينكر. وقال حمدان بن علي: «لم يكن لباس أحمد بذلك، إلا أنه قطن نظيف».¹⁰⁶ X

وفي الشتاء يلبس ما يقيه البرد، حتى علق بعض أصحابه على كثرة ما عليه، فضحك وقال: «أنا رقيق في البرد».¹⁰⁷ يضحك الشيخ ويقر بحاجته إلى الدفء. لا يتكلف قوة ليست في جسده، ولا

١٠٥ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/225.

١٠٦ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/208؛ 220.

١٠٧ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/220.

يجعل رقة البدن عيباً يخفيه. وسوف يعود هذا المعنى في طلبه الرفق بطريقة السفر، وفي آثار الضرب التي تؤلمه حين يبرد الجو. تجتمع في هذه الأخبار أمانته واحتياطه وسخاؤه: حق يؤديه، وهدية يتوقى ما يتصل بها، وفقير يؤثره، وبدن يتعاهده بالنظافة والكسوة.

لا تعزل كلمة «زاهد» شيئاً من ذلك. لقد كان بين الناس، وكانت له حاجاتهم الطبيعية، ولكنه ظل يسأل عما يدخل يده وما تخرج به يده إلى غيره.

الفصل الرابع عشر: بشر وهيبة وحلم

وصف المروزي أحمد وصف من لزمه في أحوال مختلفة:

«كان أبو عبد الله لا يجهل، وإن جهل عليه حلم واحتمل، ويقول: يكفي الله. ولم يكن بالحقود ولا العجول، كثير التواضع، حسن الخلق، دائم البشر، لين الجانب، ليس بفظ. وكان يحب في الله، ويبغض في الله، وإذا كان في أمر من الدين، اشتد له غضبه. وكان يحتمل الأذى من الجيران». X¹⁰⁸

لو وقفنا عند شدة غضبه في الدين وحدها، نخرجت لنا صورة ناقصة. ولو وقفنا عند اللين وحده، نخرجت صورة ناقصة أخرى. المروزي يصف رجلاً يستطيع أن يحلم عن أذى يتصل بشخصه، ثم يقف وقفة أخرى حين يرى حقاً من الدين. وكان عليه، مثل كل إنسان، أن يميز المواطن، وأن يعرف ما يحتمله لنفسه وما لا يرى لنفسه التنازل عنه.

دخل عليه محمد بن سعيد الختلي بعد العصر في حديث يتصل بتحذير أحمد من رجل. اشتد عليه الداخل، وتوعده بأن يعيده إلى الحبس ويكسر أضلاعه. وكان حنبل حاضراً، فأراد أن يرد، فقال له

أحمد: «لا تكلمه ولا تجبه». ثم أخذ نعليه ودخل، ونهى من حوله
عن الرد عليه.¹⁰⁹

كان التهديد يعيد إلى ذاكرة البيت شيئاً عرفه أهله بالفعل. ومع
ذلك لم يسمح أحمد أن تتحول عتبة داره إلى معركة بين من يحبونه
ومن آذاه. لم يكن يحتاج إلى إثبات شجاعته أمام حنبل، ولا إلى
رفع صوته حتى يطمئن الحاضرون إلى مكانته. مضى إلى الداخل،
وكف أصحابه عن جواب يزيد الشر.

ثم نراه في مجلس الامتحان وقد تغير وجهه حين رأى الناس
يجيبون. وصف أبو معمر ليناً يعرفه فيه، ثم وصف انتفاخ أوداجه
واحمرار عينيه في ذلك الموطن.¹¹⁰ السيرة التي تجمع المشهدين
أصدق من شعار يصنع منه رجلاً هادئاً أبداً أو رجلاً شديداً أبداً.
كان فيه غضب، لكنه لم يكن دائماً يطلب لنفسه منفذاً.

لا يمشي وراءه موكب

كره أن يتبعه الناس على هيئة تشيع اسمه في الطريق، وآثر أن يقل
ما يلفت الأنظار إليه. قال الميموني إنه ذكر له الخلوة، فقال أحمد:

١٠٩ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/221-222.

١١٠ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/238.

«رأيت الخلوة أروح لقلبي».¹¹¹ ومع ذلك يروي إبراهيم الحريضي حضوره طعام العرس والختان، وعيادته المريض، وما يشترطه من سلامة المجلس مما ينكر.^{X¹¹²}

فلم تكن رغبته في نحول الذكر انقطاعاً عن حقوق الناس. يزور، ويجيب، ويواسي، ثم لا يجب أن يصير ذهابه وإيابه حدثاً عاماً. بين الخلوة وخدمة الناس مسافة كان يتحرك فيها، وربما أثقلت الشهرة بما لا يختاره. وعند العودة من سامراء سيطلب ممن يصحبه أن يتقدم لثلا يعرف الناس مشيئته إليه فيتبعوه.¹¹³

وحين مدحه بعضهم بحب السنة، خشي على قلبه. وحين قال له زائر إنه حمد الله لرؤيته، أجلسه وسأله: «أي شيء ذا؟ من أنا؟».¹¹⁴ قد تحمل العبارة عند من لا يعرفه تكلفاً مألوفاً في كلام المتواضعين، لكن تكررها مع رد المال وكراهة التقدم وترك مظاهر التعظيم يجعلها جزءاً من مسلك طويل.

١١١، ١١٢ — الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/225-226.

١١٣ — الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/269-270.

١١٤ — الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/225.

أمانة الصاحب

صحبته يحيى بن معين زمناً طويلاً، ثم قال: «ما رأيت مثلاً أحمد،
صحبناه نحسين سنة ما افتخر علينا بشيء مما كان فيه من
الخير». ¹¹⁵X

يعرف الصديق من صاحبه ما لا يعرفه جمهور الثناء. قد يتواضع
الرجل لمن يلقاه مرة، ثم يضيق على أصحابه بفضلهم كل يوم. أما
هذه الشهادة، فتتعلق بسنين الصحبة: كان الخير كثيراً، ولم يجعله
سلاح مفاخرة عليهم.

وله مع أصحابه مواقف صعبة أيضاً؛ سيشتد على من أجاب في
المحنة، ويمنع نفسه من الرواية عن بعضهم. لا تحو كلمة المديح
ذلك، ولا يحو ذلك ما شهد به يحيى من خلقه. سوف نقرأ موضع
الاختلاف حين نصل إليه، ونرى ما أحدثه الامتحان في علاقات
رجال كانوا يتذاكرون الحديث معاً.

أما الآن، فقد اجتمعت أمامنا ملامح الرجل الذي ستأتيه رسالة
السلطة: عالم لا يزال يتعلم، وعابد يذكر الموت، ورب بيت يتقوت
أهله من غزل، وصاحب لا يفخر على أصحابه، وجار يحتمل،

ومفت يهاب أن يقول ما لا يعلم. ستمتحن المحنة هذا كله، ولن
تتركه مجرد صفات حسنة في زمن السعة.

الفصل الخامس عشر: حين يكون الحق غير القريب

وقع بين عم أحمد وجيرانه نزاع.

لم يسم المروزي مقدار النزاع أو سببه، لكنه وصف استقبال أحمد للجيران حين جاؤوه: لم يظهر ميلاً مع عمه، وتلقاهم بما يعرفون من الكرامة.¹¹⁶

يُختبر إنصاف الرجل في موضع كهذا. الخصومة قريبة من داره، وصاحبها من أهله، والناس يعرفون منزلته. كان يمكن لوجه عابس أو فتور في اللقاء أن يقول للجيران ما لا تقوله عبارة صريحة: إنكم حين خالصتم عمي خالصتموني. لكن المروزي رأى بقاء حسن اللقاء. لم تتحول القرابة في مجلس أحمد إلى كفة زائدة توضع في الميزان.

«ولقد وقع بين عمه وجيرانه مُنازعة؛ فكانوا يَجِيئون إلى أبي عبد الله، فلا يظهر لهم ميله مع عمه، ولا يَغضب لعمه، ويتلقاهم بما يعرفون من الكرامة».^{X 117}

١١٦ — ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، تحقيق عبد الله التركي، ص 298-299،

الباب الثامن والثلاثون، رواية الخلال عن المروزي.

أو اتباع للأمر سأل عنه وأحب أن يجري بينه وبينه معرفة، وأحب أن يعرف أحواله، وكان رجلاً فطناً إذا كان شيء لا يرضاه اضطرب لذلك، يغضب لله ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها؛ فإذا كان في أمر من الدين اشتد له غضبه حتى كأنه ليس هو، لا تأخذه في الله لومة لائم.^{X118}

في هذا الوصف رجل يلين، ثم يغضب؛ يحب، ثم يكف من يحب عن الخطأ. لا يجعل الراوي حسن الخلق إلغاءً للموقف، ولا يجعل الشدة في الدين وجهاً دائماً العبوس. ولهذا استطاع أن يقول في خبر واحد إنه دائم البشر، وإنه إذا غضب لأمر من الدين كأنه ليس هو. كانت بين الحالتين علة يراها صاحبه؛ لم يكن الغضب طبعاً منفلاً يبحث عن موضوع.

١١٧ - ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، تحقيق عبد الله التركي، ص 298-299. انتهى النقل قبل خبر الجار صاحب الحمام؛ لعدم تسمية الراوي المباشر فيه.

١١٨ - ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، تحقيق عبد الله التركي، ص 298-299. انتهى النقل قبل خبر الجار صاحب الحمام؛ لعدم تسمية الراوي المباشر فيه.

محبة تستطيع أن تنصح

وقال المروزي في محبته لصاحبه: «لم يمنعه حبه إياه أن يأخذ على يديه». وفي تمام الوصف أنه يكفه عن ظلم أو إثم أو مكروه.¹¹⁹ ثم تحفظ الأخبار مثلاً لنصيحة حملها إلى رجل في بيته. X

وفي خبر هارون بن عبد الله الحمال، تتحول هذه الصفة إلى زيارة. كان هارون يحدث الناس، وهو في الفياء وهم في الشمس، يحملون أقلامهم ودفاترهم. مر أحمد ورأى ذلك، ثم جاءه ليلاً. لم ينتزع المجلس منه، ولم يجعل الطلاب جمهوراً للتوبيخ؛ مضى إلى الرجل في بيته، وحمله على أن ينظر إلى مكان جلوسه ومكان جلوس من يعلمهم.

قال: سمعت هارون بن عبد الله الحمال يقول: جاءني أحمد بن حنبل بالليل، فدق الباب عليّ، فقلت: من هذا؟ فقال: أنا أحمد، فبادرت إليه فمسّاني ومسيته، قلت: حاجة يا أبا عبد الله؟ قال: نعم، شغلت اليوم قلبي، قلت: بماذا يا أبا عبد الله؟ قال: جزت عليك اليوم وأنت قاعد تُحدث الناس في الفياء والناس في الشمس

١١٩ — ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، تحقيق عبد الله التركي، ص 298-299.

انتهى النقل قبل خبر الجار صاحب الحمام؛ لعدم تسمية الراوي المباشر فيه.

بأيديهم الأقلام والدفاتر، لا تفعل مرة أخرى، إذا قعدت فاقعد مع الناس.¹²⁰

«شغلت اليوم قلبي». ليست المسألة أن المعلم أخطأ في لفظ حديث، بل أن التعب لم يكن مقسوماً بينه وبين سامعيه. ورآه أحمد جزءاً من أمانة العلم: أن لا يستريح صاحب الصوت وحده، بينما يتلقى الآخرون الحر ل يكتبوا كلامه. ثم جاءت النصيحة على قدر الفعل: إذا قعدت فاقعد مع الناس.

ومع أن الخبر لا يحدد لنا سنة الزيارة، فإنه يكشف عادة لا نتوقف على ترتيب السنين؛ يلاحظ شأن غيره، ويحمل همه إلى المساء، ثم يبذل له نصيحة خاصة. ليست عنايته بالأصحاب ثناءً يصلهم إذا غابوا فحسب، بل حضوراً عند الحاجة إلى التصحيح أيضاً.

إصلاح الخطأ وصيانة الوجه

وقد يقع الخطأ من صاحب حديث في المجلس نفسه. ذكر محمد بن يحيى النيسابوري عند أحمد حديثاً فيه ضعف، فنهاه أحمد أن يذكر مثله. أحس الراوي أن محمداً داخله نجل، فأتبعه أحمد بكلمة

١٢٠ - ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، تحقيق عبد الله التركي، ص 300-301،

خبر هارون بن عبد الله الحمال، منقول من تاريخ بغداد بإسناده.

حفظت حق العلم وحق صاحبه معاً: «إنما قلت هذا إجلالاً لك يا
أبا عبد الله».^{X 121}

لا يصح الحديث حياةً من صاحبه، ولا يصير صاحبه صغيراً لأن
حديثاً أخطأ إليه. وفي هذا الجمع صعوبة يعرفها أهل المجالس؛ فقد
تصحح المعلومة بلفظ يجعل السامع أعدى الناس لها، وقد تجامل
الشخص حتى تترك الخطأ يستقر. أما هذه الكلمة فتصل النصح
بالمنزلة التي يراد أن تبقى له: لأنك كريم علينا، ولأن علمك له قدر،
لا نريد أن تحمل مثل هذا.

ولم يكن مجلسه معداً لذوي الأسماء وحدهم. رأى رجلاً غريباً
عليه أطمار، ومعه محبرة، فانتظر منه السؤال، ثم سأله هو عن
حاجته. أراد الرجل أن يتعلم مما علمه الله، فدخل أحمد وأخرج
كتباً، وجعل يملي عليه ويطلب منه أن يقرأ ما كتب.¹²²

كان بإمكان الغريب أن يبقى عند طرف المجلس، ثم يخرج بما
خرج به من دخل ولم يلتفت إليه أحد. غير أن أحمد رأى المحبرة
وراء الثياب الخلقية. وأعطاه من وقته ما يحتاج إليه السماع

١٢١ - ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، ص 301، الباب الثامن والثلاثون.

١٢٢ - ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، تحقيق عبد الله التركي، ص 259-260،
خبر المروذي عن الغريب ذي المحبرة.

والمراجعة؛ لم يكتف بجملته سريعة تؤذن بانتهاء اللقاء. ويظهر هنا معنى قول المروزي إنه لم ير الفقير أعز منه في مجلس أحمد: ليست العزة مقعداً كريماً فقط، بل أن يؤخذ سؤال صاحبه على محمل الجدل.

ضيف صغير

أرسل عبدوس العطار ابنه مع الجارية يسلم على أحمد. لا تنتظر من هذا الصبي مناظرة ولا إسناداً جديداً، ومع ذلك استقبله الإمام استقبال صاحب حاجة كاملة إلى الرفق:

قال: حدثني عبدوس العطار، قال: وجهتُ بابني مع الجارية يسلم علي أبي عبد الله، فرحب به وأجلسه في حجره وسأله، وأرسل فاتخذ له خبيصاً فجاء به فوضعه بين يديه وجعل يبسطه، وقال للجارية: كُلِّي معه. ثم قام إلى بعض الفاميين فجاء وفي ثوبه لوز وسكر، وأخرج منديلاً فشده فيه، ثم دفعه إلى الخادم، وقال للصبي: اقرأ على أبي محمد السلام. ^{X 123}

١٢٣ - ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، الباب الثامن والثلاثون، خبر عبدوس العطار؛ وأصله عند الخلال، وأورده الذهبي في «السير»، 318/11-319.

ينتهي اللقاء وفي يد الخادم لوز وسكر، وفي فم الصبي سلام إلى أبيه. وتدخل الجارية في الطعام أيضاً؛ يدعوها أن تأكل معه. هذه هي التفاصيل التي تمنع الهيبة أن تستبد بالصورة: الشيخ الذي يدخل عليه الكبار وهم يهابونه يجد لطفاً يتسع لصغير جاء يسلم، ولمن جاءت به. قد لا يعرف الصبي من منزلة مضيفه ما يعرفه أبوه. لكنه يعرف أن رجلاً أجلسه في حجره، وكله، وقدم له ما يسره. وفي مثل هذا تتوارث البيوت ذكرى الصالحين: لا تحفظ أسماء كتبهم وحدها، بل تحفظ كيف عاملوا من لم يكن عنده علم يسألهم به، ولا جاه يقربه منهم.

الباب الثالث: المحنة

الفصل السادس عشر: ما الذي كان يدافع عنه؟

ستحمل كلمة في القرآن أحمد إلى السجن. قبل أن يأتي السوط، كانت له حجة يرجع إليها: القرآن كلام الله. بقي هذا الأصل حاضراً في أجوبته، وهو الذي يطلب له الدليل من الكتاب والسنة. قرأ القرآن كلاماً أضافه الله إلى نفسه: ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾. ورأى أن كلام الله صفة له، وأن الخالق بصفاته لا يجعل في جملة المخلوقات. فإضافة القرآن إلى الله عنده ليست كإضافة البيت والناقة، التي يراد بها خلق الله وتشريفه لمخلوق. الله يتكلم، والقرآن كلامه المنزل؛ وهو سبحانه لا يماثل خلقه في ذاته ولا صفاته.¹²⁴

وكان الخصوم يجعلون القول بخلق القرآن مقتضى لتنزيه الله، ويرون مخالفتهم فيه تشبيهاً أو إثباتاً لما يرفضونه من الصفات. ورد أحمد إلى الآية التي تجمع التنزيه والإثبات: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾. لا يختار صدرها ليلغي عجزها، ولا يثبت ما أثبتته الله على معنى يماثل فيه المخلوق.¹²⁵

تبدو بعض ألفاظ الخلاف اليوم بعيدة عن حياة القارئ، ولكن القضية في ذلك العصر تجاوزت مجالس الكلام إلى شهادة

١٢٤ - التوبة: 6؛ وانظر نص رسالة أحمد في سير أعلام النبلاء، 11/281-287.

١٢٥ - الشورى: 11؛ وسير أعلام النبلاء، 11/238-239.

القاضي، ورزق المحدث، وبقاء المدرس في مجلسه، وحرية في بيته. سيتحول السؤال عن صفة الكلام إلى شرط تسأل به الدولة الناس، وتعاقب من لا يجيبها بما تريد. هنا كان موضع المحنة: اعتقاد تدعي السلطة لنفسها حق إلزام الضمائر به تحت التهديد.¹²⁶

الكتاب كله حاضر

كان أحمد يستدل بالنص، لكنه لم يكن يظن أن اقتطاع لفظ منه يكفي لإقامة الحجّة. سيقول له مناظروه: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، فيسألهم عن قوله في الريح: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾. السياق نفسه يبين أنها لم تدمر كل موجود على الإطلاق. فالعموم يفهم بما يدل عليه الكلام كله، ولا يدخل الله وصفاته في المخلوقات بهذا الطريق.¹²⁷ X

وسيناقشهم في لفظ «جعل»، فلا يوافق أن كل موضع جاء فيه يراد به إنشاء الخلق. ويصحح لفظ حديث حين يقول بعضهم «خلق الذكر»، فيذكر أن الذي رواه الحفاظ «كتب الذكر». يتصل النزاع عنده بدقة الرواية ودلالة العربية وأصول الاعتقاد

١٢٦ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/232-247.

١٢٧ - الزمر: 62؛ الأحقاف: 25. أصل المناظرة في سير أعلام النبلاء، 11/245.

معاً. الرجل الذي طال سؤاله عن اللفظ في مجلس الشيخ لم ينس تلك الدقة حين جلس مقيداً بين أيدي المتكلمين.¹²⁸

ومن بعد، في كتابه إلى المتوكل، ستظهر طريقته بلا سياط مرفوعة: آيات وآثار، ونهي عن ضرب كتاب الله بعضه ببعض، وخوف من خصومة تجعل الدين عرضة للتنقل. يختم بما يذهب إليه: «القرآن كلام الله غير مخلوق»، ويقول: «لست بصاحب كلام»، مبيناً أنه لا يرتضي تجاوز ما جاء في الكتاب والسنة وآثار السلف إلى خصومات لا يطمئن إليها.¹²⁹

لم يكن نفيه صناعة الكلام نفيّاً للفهم أو عجزاً عن الاستدلال؛ كانت حججه في المجلس نفسها أعمال فهم. وإنما كان يرفض أن تلزمه مقدمات الخصم واصطلاحاته ثم يحكم عليه بما يلزم عنها. يطلب أصلاً يمكنه أن يرده إلى ما يعتقد حجيته، ويقول فيما لا يعرفه: لا أدري ما هذا. وقد كانت لهذه العبارة كلفة؛ إذ صورها خصومه أمام الخليفة تهرباً من الحجّة.

١٢٨ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/244-246.

١٢٩ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/286-287، من جواب أحمد إلى عبيد الله

بن يحيى بن خاقان ليبلغه المتوكل.

الإنسان الذي يقرأ

والقول إن القرآن غير مخلوق لا يجعل ورق المصحف ومداده، ولا حركة لسان القارئ وصوته، أشياء خارجة عن الخلق. التلاوة فعل العبد، والمتلو كلام الله. وقد اشتد نزاع لاحق حول عبارة «لفظي بالقرآن»، لاحتمال اللفظ أن يراد به فعل التلفظ أو الكلام الملفوظ. كان أحمد شديد التوقي من العبارات المجملة في زمن استعملها بعض الناس مدخلاً إلى القول الذي أنكره.¹³⁰ X

لا يحتاج القارئ أن يصير متخصصاً في علم الكلام ليعرف ما الذي كلف أحمد ذلك الثمن. أراد أن يصون ما يعتقده من صفة ربه، وأن يقول في الوحي ما قام عنده عليه الدليل، وألا تحول الدولة خلافاً إلى إقرار ينتزع بالقيود. ومن أجل ذلك لا يمكن أن يحل أي جواب يرضي المجلس محل الجواب الذي يرى صدقه. وما دام الفارق بينهما قائماً في قلبه وعلمه، لم يكن الخروج من السجن وحده نهاية الأمر.

١٣٠ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 298-11/288؛ وابن تيمية، مجموع الفتاوى، 172-3/170، ضمن مناظرته في العقيدة الواسطية. يفرق البيان هنا بين كلام الله وبين فعل القارئ وصوته، ولا تنسب ألفاظ هذا الشرح جميعها إلى أحمد.

الفصل السابع عشر: حين صار السؤال أمراً

أظهر المأمون القول بخلق القرآن سنة اثنتي عشرة ومائتين. مرت ست سنوات، ثم خرج أمر الامتحان العام. انتقل القول من رأي يعلنه الخليفة إلى سؤال يحمل إلى القضاة والمحدثين، ويحدد ما ينتظر كل واحد منهم بعد جوابه. ¹³¹X

وكانت الدولة يومئذ مشغولة بأكثر من شأن. يسير الخليفة في الثغور، ويكتب ملك الروم، ويرسل إلى الأقاليم، ويجبي المال، ويعاقب عمالاً ويولي آخرين. في سنة سبع عشرة نقل الطبري مراسلة بينه وبين توفيل صاحب الروم في الصلح والفداء والمتاجر وأمن الطرق. وفي السنة التالية يذكر بناء طوارة وتوجيه الجند

١٣١ - الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط2، 1387هـ/1967م، 8/619، في إظهار القول سنة212هـ؛ و8/631، في بدء الامتحان سنة218هـ. قوبلا على الصورة، والفرق بين الإعلان والامتحان لازم لفهم التاريخ.

إليها.¹³² داخل هذه الحركة العسكرية والإدارية خرجت رسائل المحنة؛ لم تكن مناظرة في زاوية بعيدة عن الحكم.

الخليفة يعرف لنفسه حق التعليم

وصل كتاب المأمون إلى إسحاق بن إبراهيم يحمل لغة التعليم وأمر الامتحان معاً. يقدم الخليفة نفسه قائماً على حفظ الدين، ثم يصف من خالف قوله بالجهل والضلال. قبل أن يجيب الرجال، كانت الرسالة قد رسمت لهم صورة ستُقرأ في المجلس.

لم يقف الكلام عند وصف المخالفين. أمر المأمون بجمع القضاة وامتحانهم في القول بخلق القرآن، وربط ثقته فيمن يتولى عمله بالجواب الذي يطلبه. خرج الرأي من مجلس صاحبه إلى دواوين الدولة، وصار على القاضي أن يجيب عنه قبل أن يمضي في عمله.

وكتب في ربيع الأول سنة ثمان عشرة ومائين يأمر إسحاق أن يرفع إليه أجوبة القضاة، وأن يتفقد ما ينفذونه. انفتح بهذا الكتاب

١٣٢ - الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف،

ط2، 1387هـ/1967م، 630-8/629، في المراسلة مع توفيل؛ و8/631، في بناء

طوانة.

طريق الامتحان من الخليفة إلى الوالي، ومنه إلى مجالس القضاء في النواحي. ¹³³X

هنا ثلاثة أمور اجتمعت. أولها ادعاء معرفة يصحح بها الخليفة دين الجمهور. وثانيها نزع الثقة عمن يخالفه، في قوله وعمله وشهادته. وثالثها تحويل ذلك كله إلى أمر تنفيذي يصل إلى القاضي والشاهد. بهذا صار اختلاف الاعتقاد حاجزاً أمام أداء وظيفة في المجتمع، لا خلافاً يبقى في مجلس البحث.

وتلفت القارئ كثرة الأوصاف التي تسبق سماع أجوبة الرجال: سفلة، وجهالة، وسمت كاذب، وطلب رياسة. لقد جرى تفسير دوافع المخالفين قبل أن يسألوا؛ فن قال بعد ذلك إنه يريد اتباع السنة، أمكن إدخال قوله في التهمة التي أعدت له سلفاً.

من القضاة إلى الشهود

لم تكتف الرسالة بسؤال القاضي عما يقول. طلبت منه أن يسأل من يشهد عنده، وأن يرد شهادة من لا يقول بالخلق. معنى هذا أن

١٣٣ - الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط2، 1387هـ/1967م، 631/8-634. قوبل النقل على صورة الطبعة. اتهامات الرسالة وتعليلها العقدي من كلام المأمون، ولا يتبناها المؤلف. الآيات: الزخرف:3؛ الأنعام:1؛ طه:99؛ هود:1؛ محمد:24.

أثر المحنة يتسع إلى الحقوق التي تثبت في مجلس القضاء. قد يكون الشاهد معروفاً بالصدق في معاملته، ثم لا يقبل قوله لأنه لم يجب الجواب المطلوب في المسألة العقدية.

ثم جاء كتاب آخر سُمي فيه جعفر بن عيسى وعبد الرحمن بن إسحاق، وأمر بسؤالهما. وراء كل اسم مجلس يقصده الناس في حقوقهم؛ وما تقرر لهُذين القاضيين سيبلغ من يشهد عندهما.

طلب المأمون أن يمتحن القاضي الشهود، وأن يبطل شهادة من لا يقول بخلق القرآن، وإن عُرف صاحبها بالعفاف والسداد. لم يعد أثر السؤال يقف عند وظيفة العالم؛ دخل إلى الحق الذي يحاول صاحبه إثباته بشهادة رجل صادق.

وامتد الأمر إلى قضاة النواحي، مع طلب الإشراف عليهم ورفع الخبر إلى الخليفة. يحتفظ الملحق الوثائقي بنص هذه الرسائل، أما طريق الرجال ففاض الآن إلى المجلس الذي سيسأل فيه كل واحد باسمه. ¹³⁴X

١٣٤ - الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط2، 1387هـ/1967م، 634/8-637. قبل النقل على صورة الطبعة، وفيها «لا يأتون» في اقتباس الإسراء: 88، فأثبتت بلا معقوفين. الآيات: الزخرف: 3؛ الأعراف: 189؛ النبأ: 10-11؛ الأنبياء: 30؛ البروج: 21-22؛ القيامة: 16؛ الأنبياء: 2؛

لا يريد أحمد على هذا البناء بأن الخليفة ليس له شأن في أمر المسلمين؛ فقد كان يقر له بالطاعة في المعروف والحج والجهاد معه. وإنما يريد بأن ما يطلب منه في هذه المقالة يحتاج إلى حجة من الكتاب والسنة. وبين إقرار الإمامة ورفض كلمة بعينها كانت المسافة التي حاول خصومه إلغائها.

يقدم المأمون نفسه في رسالته حامياً للتوحيد والدين. وهنا وجه آخر من شدة الامتحان: أن يقع الإكراه باسم مقصد ديني، فيحتاج العالم أن يبين خطأ الوسيلة والدليل، وإن أعلن صاحب الأمر حسن نيته.

الفصل الثامن عشر: الأسماء التي صارت في الرقاع

اجتمع الرجال عند إسحاق بن إبراهيم. قرئ كتاب الخليفة مرتين، ثم بدأت الأسئلة، وسجل الكاتب الأجوبة لترجع إلى صاحب القرار. يتكلم رجل في الطاعة، ويتمسك آخر بعبارة «كلام الله»، ويسأل ثالث عما يطلب منه. وبين هذه الأسماء يأتي اسم أحمد. حفظ الطبري خبر هذا الامتحان بأسماء رجاله وألفاظ أجوبتهم. ومن روايته التاريخية نتابع كيف ضاقت الدائرة حول الذين امتنعوا.

قال: فأحضر إسحاق بن إبراهيم لذلك جماعة من الفقهاء والحكام والمحدثين، وأحضر أبا حسان الزياتي وبشر بن الوليد الكندي وعلي بن أبي مقاتل والفضل بن غانم والذيان بن الهيثم وسجادة والقواريري وأحمد بن حنبل وقتيبة وسعدويه الواسطي وعلي بن الجعد وإسحاق بن أبي إسرائيل وابن الهرش وابن عليّة الأكبر ويحيى بن عبد الرحمن العمري وشيخ آخر من ولد عمر بن الخطاب - كان قاضي الرقة - وأبا نصر التمار وأبا معمر القطيعي ومحمد بن حاتم بن ميمون ومحمد بن نوح المضروب وابن الفرخان، وجماعة منهم النضر بن شميل وابن علي بن عاصم وأبو العوام البزاز وابن شجاع وعبد الرحمن بن إسحاق؛ فأدخلوا جميعاً على إسحاق، فقرأ عليهم كتاب المأمون هذا مرتين حتى فهموه، ثم قال لبشر بن

الوليد: ما تقول في القرآن؟ فقال: قد عرفت مقالتي لأمر المؤمنين غير مرة؛ قال: فقد تجدد من كتاب أمير المؤمنين ما قد ترى، فقال: أقول: القرآن كلام الله، قال: لم أسألك عن هذا، أخلق هو؟ قال: الله خالق كل شيء، قال: ما القرآن شيء؟ قال: هو شيء، قال: فخلق؟ قال: ليس بخلق، قال: ليس أسألك عن هذا، أخلق هو؟ قال: ما أحسن غير ما قلت لك، وقد استعهدت أمير المؤمنين ألا أتكلم فيه، وليس عندي غير ما قلت لك. فأخذ إسحاق بن إبراهيم رقعة كانت بين يديه، فقرأها عليه، ووقفه عليها، فقال:

أشهد أن لا إله إلا الله أحداً فرداً لم يكن قبله شيء ولا بعده شيء، ولا يشبهه شيء من خلقه في معنى من المعاني، ولا وجه من الوجوه، قال: نعم؛ وقد كنت أضرب الناس على دون هذا، فقال للكاتب: أكتب ما قال.

ثم قال لعلي بن أبي مقاتل: ما تقول يا علي؟ قال: قد سمعت كلامي لأمر المؤمنين في هذا غير مرة وما عندي غير ما سمع، فامتحنه بالرقعة فأقر بما فيها، ثم قال: القرآن مخلوق؟ قال: القرآن كلام الله، قال: لم أسألك عن هذا، قال: هو كلام الله؛ وإن أمرنا أمير المؤمنين بشيء سمعنا وأطعنا. فقال للكاتب: اكتب مقالته.

ثم قال للذيال نحوا من مقالته لعل بن أبي مقاتل، فقال له مثل ذلك. ثم قال لأبي حسان الزيادي: ما عندك؟ قال: سل عما شئت، فقرأ عليه الرقعة ووقفه عليها، فأقر بما فيها، ثم قال: من لم يقل هذا القول فهو كافر، فقال: القرآن مخلوق هو؟ قال: القرآن كلام الله والله خالق كل شيء، وما دون الله مخلوق، وأمير المؤمنين إمامنا وبسببه سمعنا عامة العلم، وقد سمع ما لم نسمع، وعلم ما لم نعلم، وقد قلده الله أمرنا، فصار يقيم حجنا وصلاتنا، ونؤدي إليه زكاة أموالنا، ونجاهد معه، ونرى إمامته إمامة، إن أمرنا أئمتنا، وإن نهانا انتهينا، وإن دعانا أجبنا.

قال: القرآن مخلوق هو؟ فأعاد عليه أبو حسان مقالته، قال: إن هذه مقالة أمير المؤمنين، قال: قد تكون مقالة أمير المؤمنين ولا يؤمر بها الناس ولا يدعوهم إليها؛ وإن أخبرتني أن أمير المؤمنين أمرك أن أقول، قلت ما أمرتني به؛ فإنك الثقة المأمون فيما أبلغتني عنه من شيء؛ فإن أبلغتني عنه بشيء صرت إليه، قال: ما أمرني أن أبلغك شيئاً.

قال علي بن أبي مقاتل: قد يكون قوله كاختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الفرائض والموارث، ولم يحملوا الناس عليها، قال له أبو حسان: ما عندي إلا السمع والطاعة، فبرني أئمتنا، قال: ما أمرني أن آمرك؛ وإنما أمرني أن أمتحنك.

ثم عاد إلى أحمد بن حنبل فقال له: ما تقول في القرآن؟ قال: هو كلام الله، قال: أمخلوق هو؟ قال: هو كلام الله لا أزيد عليها، فامتحنه ما في الرقعة، فلما أتى على " ليس كمثله شيء "، قال: " ليس كمثله شيء وهو السميع البصير " وأمسك عن لا يشبهه شيء من خلقه في معنى من المعاني، ولا وجه من الوجوه، فاعترض عليه ابن البكاء الأصغر، فقال: أصلحك الله! إنه يقول: سميع من أذن بصير من عين، فقال إسحاق لأحمد بن حنبل: ما معنى قوله: " سميع بصير "؟ قال: هو كما وصف نفسه، قال: فما معناه؟ قال: لا أدري، هو كما وصف نفسه.

ثم دعا بهم رجلاً رجلاً، كلهم يقول: القرآن كلام الله، إلا هؤلاء نفر: قتيبة وعبيد الله بن محمد بن الحسن وابن عليّة الأكبر وابن البكاء وعبد المنعم بن إدريس بن بنت وهب بن منبه والمظفرين مرجئاً، ورجلاً ضريراً ليس من أهل الفقه، ولا يعرف بشيء منه، إلا أنه دس في ذلك الموضع، ورجلاً من ولد عمر بن الخطاب قاضي الرقة وابن الأحمر؛ فأما ابن البكاء الأكبر فإنه قال: القرآن مجعول لقول الله تعالى: " إنا جعلناه قرآناً عربياً " والقرآن محدث لقوله: " ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث " قال له إسحاق: فالجعول مخلوق؟ قال: نعم، قال: فالقرآن مخلوق؟ قال: لا أقول مخلوق، ولكنه مجعول؛ فكتب مقالته.

فلما فرغ من امتحان القوم، وكتب مقالاتهم اعترض ابن البكاء الأصغر، فقال: أصلحك الله! إن هذين القاضيين أئمة فلو أمرتهما فأعادا الكلام! قال له إسحاق: هما ممن يقوم بحجة أمير المؤمنين، فلو أمرتهما أن يسمعانا مقالتهما، لنحكي ذلك عنهما! قال له إسحاق: إن شهدت عندهما بشهادة، فستعلم مقالتهما إن شاء الله.

فكتب مقالة القوم رجلاً رجلاً، ووجهت إلى المأمون، فكث القوم تسعة أيام؛ ثم دعا بهم وقد ورد كتاب المأمون جواب كتاب إسحاق بن إبراهيم في أمرهم، ونسخته: ¹³⁵X

١٣٥ - الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط2، 1387هـ/1967م، 640-8/637. خبر تاريخي أورده الطبري هنا بلا إسناد مفصل؛ فلا تصحح جميع تفاصيله بمجرد وروده. وفي صورة طبعة الطبري «والمظفرين مرجئاً»، وأما ابن الأثير فورد في الكامل في التاريخ، مراجعة محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، 6/5، «والمظفر بن مرجأ». أثبت هذا الاختلاف من صورة الطبعتين، وأبقي لفظ الطبري في الاقتباس؛ فالقراءة الثانية شاهد نصي، لا تعيين محقق للرجل ولا إسناد مستقل للخبر. وورد في عداد الحاضرين «النضر بن شميل»؛ فإن أريد به المحدث المشهور فحضوره ممتنع، إذ ذكر الذهبي وفاته سنة 203هـ، وقيل في أول 204هـ؛ انظر السير 9/331. ولذلك لا يعتمد هذا الاسم في تعيين الحاضرين. الآيتان: الشورى: 11؛ والأنبياء: 2، ومعهما الزخرف: 3.

ما كتبه الكاتب

قد يظن القارئ أن كل جواب غير صريح كان محاولة واحدة للتهرب. لكن اختلاف العبارات يكشف عن أسئلة داخل الممتحنين: هل يستطيع العالم أن يقتصر على لفظ الوحي؟ وهل إعلان الخليفة رأياً يلزم الناس بالقول به؟ وأين ينتهي الامتحان ويبدأ الأمر؟ وهل تحمل كلمة عامة على معنى لم ينوه صاحبها؟

وفي هذا الجو قال أحمد: هو كلام الله، لا يزيد عليها. ولما قرئت عبارة التنزيه، أتم الآية: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.¹³⁶ يريد أن يبقى النفي والإثبات كما جاء في الوحي. وفي الحال اعترض عليه من حمل قوله على معنى لم يصرح به، فجاء السؤال عن مراده. لا نحتاج إلى اختراع نظرات الرجال أو وقع الأقلام حتى نعرف ثقل اللحظة. لدينا ما هو أدق: كاتب يأمره الوالي أن يكتب مقالة كل رجل، وكتاب يرفع إلى الخليفة، وانتظار تسعة أيام في رواية الطبري قبل أن يعود الجواب. كل واحد يعرف أن جملة قائلها قد تقرأ في مجلس غائب عنه، ثم يرجع إليه حكمها.

جواب لا يكتفي بالعقيدة

عاد جواب المأمون على الرقاع. وردت فيه أسماء الرجال، ومع كل اسم تعليق جارح أو اتهام. يقرأ إسحاق الكتاب، وقد صار لما كُتب في المجلس الأول جواب يحمل قوة الخليفة.

تناول الكتاب بعض الممتحنين باتهامات في الأموال والأعمال، وسخر من عقل آخر أو متجره. كانت هذه لغة الخصومة في الرسالة، لا أحكاماً ثبتت على الرجال في محاكمة؛ وفي وسطها جاء اسم أحمد.

قال المأمون في كتابه كما رواه الطبري: «وأما أحمد بن حنبل وما تكتب عنه؛ فأعلمه أن أمير المؤمنين قد عرف فحوى تلك المقالة وسبيله فيها، واستدل على جهله وآفته بها».

ثم أمر بحمل من لم يرجع عن قوله موثقاً إلى عسكره، مع من يحفظهم ويحرسهم في الطريق. إذا وصلوا، سيسألهم الخليفة بنفسه؛ وإن لم يجيبوا، فالتهديد أن يحملهم على السيف.

خرج الكتاب معجلاً في خريطة مفردة، وأمر أن يعود الجواب بالطريقة نفسها. لم ينتظر المأمون اجتماع مراسلات الديوان؛ أراد خبر الرجال سريعاً.

كُتِبَ ذلك سنة ثمان عشرة ومائتين. بقيت بين مجلس بغداد وعسكر الخليفة مسافة يقطعها الرسول، ثم يعود الأمر ليقع على من سُمِّوا في رقاعه. ^{X 137}

في شأن أحمد، اكتفت الرسالة بالإشارة إلى معرفة فحوى مقالته والاستدلال بها على جهله وآفته. ثم جاء الأمر العام بحمل من لم يرجع موثقاً إلى العسكر، والتهديد بالسيف. لقد بلغ السؤال آخر سلمه: من الفكرة إلى الشهادة والوظيفة، ومنهما إلى القيد ثم الدم.

وتظهر في آخر الرسالة عجلة الإرسال في خريطة مفردة. ليس هذا تفصيلاً من لغة الديوان وحدها؛ إنه يعني أن الأمر لا ينتظر دورة المكاتبات العادية. أراد صاحبه جواباً سريعاً عن التنفيذ. وما كان يصل إلى الإمام من خوف لم يكن ناشئاً من شائعة بين الناس؛ كانت وراءه رسائل تسير وسلطة تتعهد امتثالها.

١٣٧ - الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط2، 1387هـ/1967م، 640/8-644. قوبلت الرسالة على الصورة؛ وما فيها من اتهام للأشخاص لا يثبت بمجرد نسبته إلى خطاب المأمون. ويتخلل النقل تعقيب الخبر «فأنكر أبو حسان...» في ص 642، فلا ينسب هذا التعقيب إلى كلام المأمون نفسه. مطابقة نص الطبعة لا تعني تصحيح طريق الرسالة أو كل خبر فيها.

الفصل التاسع عشر: من كثير إلى اثنين

أعيد السؤال، فأجاب أكثر الرجال، وبقي أربعة. ثم أطلق قيد واحد، ثم قيد آخر. وفي آخر هذا التدرج بقي أحمد ومحمد بن نوح في الحديد، والطريق أمامهما إلى الخليفة.

فأجاب القوم كلهم حين أعاد القول عليهم إلى أن القرآن مخلوق، إلا أربعة نفر؛ منهم أحمد بن حنبل وسجادة والقواريري ومحمد بن نوح المضروب.

فأمر بهم إسحاق بن إبراهيم فشدوا في الحديد؛ فلما كان من الغد دعا بهم جميعاً يساقون في الحديد، فأعاد عليهم المحنة، فأجابه سجادة إلى أن القرآن مخلوق، فأمر بإطلاق قيده وخلي سبيله، وأصر الآخرون على قولهم؛ فلما كان من الغد عاودهم أيضاً، فأعاد عليهم القول، فأجاب القواريري إلى أن القرآن مخلوق، فأمر بإطلاق قيده، وخلي سبيله، وأصر أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح على قولهما، ولم يرجعا، فشدا جميعاً في الحديد، ووجهها إلى طرسوس، وكتب معهما كتاباً بإشخاصهما، وكتب كتاباً مفرداً بتأويل القوم فيما أجابوا إليه فمكثوا أياماً، ثم دعا بهم فإذا كتاب قد ورد من المأمون على إسحاق بن إبراهيم، أن قد فهم أمير المؤمنين ما أجاب القوم إليه، وذكر سليمان بن يعقوب صاحب الخبر أن بشر بن الوليد تأول الآية التي أنزلها الله تعالى في عمار بن ياسر: "إلا من

أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ” وقد أخطأ التأويل؛ إنما عنى الله عز وجل بهذه الآية من كان معتقداً بالإيمان، مظهر الشك، فأما من كان معتقداً الشك مظهر الإيمان؛ فليس هذه له.

فأشخصهم جميعاً إلى طرسوس؛ ليقيموا بها إلى خروج أمير المؤمنين من بلاد الروم.

فأخذ إسحاق بن إبراهيم من القوم الكفلاء ليوافوا العسكر بطرسوس؛ فأشخص أبا حسان وبشر بن الوليد والفضل بن غانم وعلي بن أبي مقاتل والذئال بن الهيثم ويحيى بن عبد الرحمن العمري وعلي بن الجعد وأبا العوام وسجادة والقواريري وابن الحسن بن علي بن عاصم وإسحاق بن أبي إسرائيل والنضر بن شميل وأبا نصر التمار وسعدويه الواسطي ومحمد بن حاتم بن ميمون وأبا معمر وابن الهرش وابن الفرخان وأحمد بن شجاع وأبا هارون بن البكاء.

فلما صاروا إلى الرقة بلغتهم وفاة المأمون؛ فأمر بهم عنبة بن إسحاق — وهو والي الرقة — أن يصيروا إلى الرقة، ثم أشخصهم إلى إسحاق بن إبراهيم بمدينة السلام مع الرسول المتوجه بهم إلى أمير المؤمنين، فأمرهم إسحاق بلزوم منازلهم، ثم رخص لهم بعد ذلك في الخروج، فأما بشر بن الوليد والذئال وأبو العوام وعلي بن أبي مقاتل؛ فإنهم شخصوا من غير أن يؤذن لهم حتى قدموا بغداد،

فلقوا من إسحاق بن إبراهيم في ذلك أذى، وقدم الآخرون مع رسول إسحاق بن إبراهيم؛ نخل سبيلهم.^{X¹³⁸}

يقرأ المرء عدد الأربعة ثم الاثنين بسهولة. أما في حياة أصحابها فهي ليال وأبواب حبس وأقياد، ووجوه يراها الرجل قريبة منه ثم تخرج. لم يكن أحمد يعلم، وهو في أول المجلس، الصورة التي سيستقر عليها الخبر في كتب التاريخ. كان يعيش كل يوم بما يأتيه فيه، ويرى دائرة من بقي تضيق حوله.

الرخصة التي لم تحملهم إلى الأمان

احتج بعض המתحنيين بمعنى الإكراه في آية سورة النحل، كما يذكر جواب المأمون. لكنه لم يقبل تأويلهم، وأمر بإشخاصهم مع ذلك. وهذه مفارقة تكشف قسوة الجهاز الذي دخلوا فيه: قد يجب الرجل لينجو، ثم يطالب بإثبات أن جوابه اعتقاد لا مجرد دفع للأذى.

١٣٨ - الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط2، 1387هـ/1967م، 644/8-645. استدرك من صورة الطبعة سقوط «أن يصيروا إلى الرقة» و«من» قبل إسحاق. وفي قائمة الأسماء الإشكال المتقدم في النضر بن شميل؛ لا يعتمد تعيينه. الآية: النحل: 106.

في هذا الموضع ينبغي أن نتجنب سهولة الحكم من خارج الخوف. أحمد اختار الثبات، وكان له في العلم والقُدوة ما جعل الكلمة عنده عظيمة التبعة. وغيره نظر إلى الإكراه وما رآه من سعة الرخصة. لا يحتاج تقدير شجاعة أحمد إلى أن ننكر حقيقة الخوف عند الآخرين، ولا إلى أن نقطع على سرائرهم بما لا نعلم. كما لا تبرر الرخصة للسلطة فعلها. إن البحث في ما يباح للمكره شيء، وتحميل من أكرهه مسؤولية الأذى شيء آخر. لا تنقلب الجناية صواباً لأن بعض ضحاياها وجدوا لأنفسهم مخرجاً منها.

الحكم الذي نجا من صاحبه

مات المأمون قبل أن يمثل أحمد بين يديه. كان الموت، في خبر الرفقة، انفراجاً من لقاء خافوه، لكنه لم يكن نهاية السياسة التي أطلقها. نقلت الأخبار عهده إلى المعتصم، وما بقي في رجال الدولة من حمل للمقالة. وفي وصيته التي ساقها الطبري كلام على الأخذ بسيرته في القرآن وتقريب ابن أبي دواد.¹³⁹ X بهذا نفهم لماذا لم ينته الامتحان بوفاة رجل. صار له قضاة وكتاب وولاة وارتباط بصورة الخليفة السابق. وسيقال في مجلس المعتصم

١٣٩ - تاريخ الطبري، حوادث سنة 218 هـ، خبر وصية المأمون، مع اختلاف الروايات في وقت إنفاذ العهد.

ما يدفعه إلى ألا يظهر تاركاً لمذهب أخيه. يستطيع قرار أن يعيش
بعد صاحبه إذا صار الدفاع عنه دفاعاً عن هيبة الحكم.
والآن يخرج أحمد ومحمد بن نوح في الطريق. وراءهما مدينة سمعت
الأوامر، وحول كل منهما اسم ينتظر أهله خبره، وأمامهما دولة
تغير خليفتها ولم تغير امتحانها. من هنا نعود إلى الرفيق الشاب،
وإلى الكلمة التي قالها لأحمد قبل أن يموت.

الفصل العشرون: محمد بن نوح: الرفيق الذي لم يرجع

خرج من بغداد رجلان مقيدان: أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح. كان محمد أصغر من أحمد وأقل شهرة، لكنه حمل من الثبات ما حفظه صاحبه عنه. لم يكن أحمد وحده في الطريق؛ إلى جانبه شاب يذكره بما ينتظره الناس من جوابه.¹⁴⁰

سار صالح مع أبيه ومحمد إلى الأنبار. هناك سئل أحمد: إن عرضت على السيف، تجيب؟ قال: لا. ثم مضى الرجلان في طريقهما. امتدت المسافة، وبقي القيد، ولم يكونا يعرفان في كل مرحلة ما الذي ينتظرهما عند بلوغ الخليفة.¹⁴¹

وعبر أبو جعفر الأنباري الفرات حتى لحق بأحمد في خان. قال له أحمد: «يا أبا جعفر، تعנית». جاء الرجل يحمل إليه كلاً ما شديداً رحيماً في آن:

«يا هذا أنت اليوم رأس، والناس يقتدون بك، فوالله لئن أجبت إلى خلق القرآن، ليجبن خلق، وإن أنت لم تجب، ليمتنع خلق

١٤٠ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/241-242.

١٤١ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/241.

من الناس كثير. ومع هذا فإن الرجل إن لم يقتلك فإنك تموت، لا بد من الموت، فاتق الله ولا تجب».

فبكى أحمد، وقال: «ما شاء الله». ثم سأله أن يعيد عليه الكلام.¹⁴² X

لم يتصرف كأنه استغنى بقوة يقينه عن كل تذكير. طلب إعادة الكلمة التي أعانته. هذا العالم الذي يثبت الناس به يجد بدوره عند صديق ما يثبت به قلبه. لا تنقص حاجته إلى المعونة من قدره؛ تكشف كيف يحمل المؤمنون بعضهم بعضاً حين يطول الطريق.

صوت من البادية

ولما خرجوا من الرحبة في جوف الليل، عرض لهم رجل، فسأل عن أحمد وأوقف الجمال قليلاً. قال له ما معناه أن الموت هنا على الحق طريق إلى الجنة، ثم استودعه الله ومضى. سأل أحمد عنه، فقليل: جابر بن عامر، رجل من ربيعة يقول الشعر ويذكر بخير.¹⁴³

X

١٤٢ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/238-239.

١٤٣ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/241.

وحفظ أحمد قوة كلمة أعرابي لقيه في رحبة طوق: «يا أحمد، إن يقتلك الحق، مت شهيداً، وإن عشت، عشت حميداً». ثم قال: «فقوى قلبي».¹⁴⁴

في العبارات التي انتقلت إلينا لا نجد وصفاً لملابس الرجل ولا وجهه، لكننا نعرف أثره فيمن خاطبه. جاء، وقال، ومضى؛ وبقيت كلمته تستعاد بعد السنين. كان في الطريق أناس لا يستطيعون فك القيد، ولكنهم يستطيعون ألا يتركوا المقيد وحده في قلبه.

«أنت رجل يقتدى بك»

وكان إلى جوار أحمد من يشاركه المسير نفسه، لا من يأتيه ثم يرجع آمناً. قال أحمد للحنبل:

«ما رأيت أحداً على حداثة سنه، وقدر علمه أقوم بأمر الله من محمد بن نوح، إني لأرجو أن يكون قد ختم له بخير. قال لي ذات يوم: يا أبا عبد الله، الله الله، إنك لست مثلي. أنت رجل يقتدى بك. قد مد الخلق أعناقهم إليك، لما يكون منك، فاتق الله واثبت لأمر

١٤٤ — الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/241. ورد خبر الأعرابي من طرق وألفاظ؛

لم تدمج ألفاظ الروايات في حوار واحد، ولم يجزم باتحاد كل التفصيلات.

الله، أو نحو هذا. فمات، وصليت عليه، ودفنته. أظن قال:
بعانة».^{X 145}

هذا حديث أحمد عن صاحبه. أبقى فيه حداثة السن، وأبقى معه
قوة القيام بأمر الله. لم يحتكر الشيخ مقام التعليم؛ تلقى من الفتى
وصية وحفظها له. وفي قوله «إنك لست مثلي» وعي باختلاف أثر
الجواب، لا ادعاء بأن دم الفتى أو دينه أهون. كلاهما معرض
للأذى، ولكن أعناقاً أكثر تمتد نحو أحمد.

قد يتوهم القارئ أن صاحب الشهرة يحمل وحده الرجال المحيطين
به. وفي هذه الصحبة وقع العكس أيضاً: حمل الشاب قلب الإمام
بكلمة. وسوف يعود أحمد فيذكر فضله حين لا يستطيع محمد أن
يسمع المديح أو ينتفع بشهرته بين الناس.

الخبر الذي غير جهة الطريق

قرب أذنة، وهم يرحلون ليلاً، دخل رجل يبشر بموت المأمون.
كان أحمد يدعو ألا يراه، وقد مات الخليفة قبل أن يلتقيه. لم تكن
تلك نهاية القيد؛ بويع المعتصم، ورد الرجلان في أقيادهما.^{X 146}

١٤٥ — الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/242.

١٤٦ — الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/241-242.

حملاً في سفينة بعد الرقة، ثم مات محمد بن نوح عند عانة. فك
قيده، وصلى عليه أحمد. عاد أحدهما إلى بغداد، وبقي الآخر في
الطريق.¹⁴⁷

هذه هي وفاة الفتى: لم يمت أحمد معه، ولم تكن خاتمتها واحدة.
محمد توفي في رحلة المحنة، وأحمد صلى عليه ثم استأنف ما بقي له
من البلاء. وإذا طال الحديث بعد ذلك عن السياط والقصور،
فينبغي ألا يغيب قبر الرجل الذي لم يصل إلى ذلك المجلس، وثبت
قبل أن تصنع الشهرة من الثبات عنواناً خالداً.

ترك محمد بن نوح في السيرة كلمة، وموقفاً، وشهادة من أحمد. لم
يبق لنا من تفاصيل حياته مثل ما بقي من تفاصيل حياة الإمام؛
لكن قلة الأخبار لا تصغر الفعل الذي حفظته. عند عانة انقطع
صوت الرفيق، وبقيت وصيته تمضي مع صاحبه.

الفصل الحادي والعشرون: الصلاة في القيد

رجع أحمد إلى بغداد مقيداً. مكث بالياسرية أياماً، ونقل بين مواضع الحبس، ثم صار إلى حبس العامة في درب الموصلية. تحركت الأبواب من حوله، وبقي هو لا يملك أن يفتح واحداً منها لنفسه. ¹⁴⁸X

هناك يقول: «كنت أصلي بأهل السجن، وأنا مقيد». ويروي حنبل أنه كان يأتيه، وأنه قرأ عليه كتاباً في الإرجاء وغيره، ورآه يصلي بأهل السجن. وكان يتعامل مع حلقة القيد عند الصلاة والنوم على ما يستطيع. ¹⁴⁹

بقي القيد، وبقيت الصلاة والعلم. يدخل عليه زائر، ويقرأ عليه كتاب، ويقوم السجين بأهل السجن إماماً. امتدت أيام الحبس، وحمل فيها من مجلسه ما وسعه أن يحمله إلى هذا المكان.

١٤٨ — الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/242-243.

١٤٩ — الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/243، روايتا صالح وحنبل في الصلاة بأهل السجن.

ما كان يخشاه

قال أحمد: «لست أبالي بالحبس، ما هو ومنزلي إلا واحد، ولا قتلاً بالسيف، إنما أخاف فتنة السوط».¹⁵⁰ ليست هذه شهادة على أن الحبس لا يؤلم أحداً، ولا أن أهله لم يفتقدوه. إنها عبارته عن موضع الخوف الأشد في نفسه: عذاب يتكرر، ويترك للمرء بين الضربة والضربة فرصة أن يتخيل ما يأتي. X

سمعه رجل من أهل الحبس، فقال له: «لا عليك يا أبا عبد الله، فما هو إلا سوطان، ثم لا تدري أين يقع الباقي». فكان لكلامه أثر في تخفيف ما يجده.¹⁵¹

إنما يصدق معنى الشجاعة حين نرى هذا الخوف ثم نرى صاحبه يمضي. لا حاجة إلى اختراع قلب لا يرجف كي نعظم الثابت. أحمد سمي ما يخافه، وتلقى كلمة تهون عليه، ثم لم يجعل خوفه دليلاً على أن ما يراه حقاً قد تغير.

١٥٠ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/240.

١٥١ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/240. يرد الخبر هنا عن بعض أهل الحبس دون تسميته؛ لا يزداد عليه اسم سارق أو تفصيل في جرائمه مما شاع في بعض القصص.

أربعة أقياد

يقول في رواية صالح إن رجلين كانا يوجهان إليه كل يوم، فلا يزالان يناظرانه، فإذا قاما زيد في قيده، حتى صارت في رجليه أربعة أقياد.¹⁵² X

تقف الحجة هنا إلى جانب الحديد. يفترض المجلس أنه يريد اقتناعه، لكنه إذا لم يقتنع زاد ما يثقل ساقيه.

وسأل أحد مناظريه عن علم الله، فقال إنه مخلوق، فأنكر أحمد ذلك أشد الإنكار. نبه الرسول الحاضر إلى أن الرجل رسول أمير المؤمنين، فلم يغير هذا عنده حكم المقالة. لم يكن الاسم الذي يحمله القادم من السلطان جواباً عن السؤال الذي سألته.¹⁵³

ولما جاء الأمر بحمله إلى المعتصم، استدعاه إسحاق وأبلغه التهديد: سيضرب ضرباً بعد ضرب، ويحبس في موضع لا يرى فيه شمساً ولا قرأً إن لم يجب. ثم عاد إلى الاحتجاج بلفظ «جعلناه»، فأجابه أحمد من القرآن نفسه. حتى عند هذا الباب الأخير لم يترك الحديث في الدليل، ولم يقبل أن يصير التهديد برهاناً.¹⁵⁴

١٥٢، ١٥٣ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/243.

١٥٤ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/243-244.

ليلة بلا سراج

أخرج عند باب البستان، وأركب دابة والأقياد عليه. لم يكن معه من يمسكه، وكاد يقع على وجهه أكثر من مرة لثقلها. ثم أدخل دار المعتصم، ومنها حجرة، ومنها بيتاً أقفل عليه في جوف الليل، وليس فيه سراج.¹⁵⁵ X

هذه التفاصيل رواها أحمد؛ وهي تكفي لتبلغ بالمشهد ثقله. لا يرى القارئ القصر من جهة زينته، بل من جهة رجل يخشى أن يسقط عن الدابة، ويدخل غرفة مغلقة لا مصباح فيها. في تلك الغرفة أراد الوضوء، فمد يده فوجد إناء ماء وطستاً. توضأ وصلى. وفي الصباح أخذ التكة التي يشد بها سراويله، وجعلها تحمل الأقياد. يحتاج قبل دخول مجلس الخليفة إلى تديير صغير يمكنه من السير. ثم جاء الرسول، فأخذ بيده وأدخله. في يد أحمد ما يرفع ثقل الحديد، وحوله قوم أعدوا أسلحتهم، وأمامه خليفة يستطيع أن يأمر فيطاع.¹⁵⁶

كان أول ما يحتاجه الجسد أن يبلغ مجلسه، وأول ما يطلبه العالم حين جلس أن يؤذن له بالكلام.

الليلة التي حمل فيها قيوده

كانت المدة في السجن أطول من مجلس مناظرة، وكانت القيود تزداد كلها عاد المناظرون ولم يبلغوا منه ما يريدون. وحين جاء الأمر بنقله إلى المعتصم، لم ينته هذا العبء عند باب السجن؛ حمله معه إلى الدابة، وإلى الحجرة، وإلى المجلس الذي سيطلب فيه الدليل.

يروى صالح عن أبيه هذه الليلة وما أعقبها. نترك للرواية اتساعها؛ ففيها حركة جسد مثقل، ودقائق انتظار، ثم أول الحوار في المجلس. وهي من المواضع التي يفقدها الخبر إذا اختصرناه في قولنا: ناظرهم فغلبيهم.

قال صالح بن أحمد: قال أبي: كان يوجه إلي كل يوم برجلين، أحدهما يقال له: أحمد بن أحمد بن رباح، والآخر أبو شعيب الحجام، فلا يزالان يناظراني، حتى إذا قاما دعي بقميد، فزيد في قيودي، فصار في رجلي أربعة أقياد. فلما كان في اليوم الثالث، دخل علي فناظرني، فقلت له: ما تقول في علم الله؟ قال: مخلوق. قلت: كفرت بالله فقال الرسول الذي كان يحضر من قبل إسحاق بن إبراهيم: إن هذا رسول أمير المؤمنين. فقلت: إن هذا قد كفر.

فلما كان في الليلة الرابعة، وجه، يعني: المعتصم، ببغا الكبير إلى إسحاق، فأمره بحملني إليه، فأدخلت على إسحاق، فقال: يا أحمد، إنها

والله نفسك، إنه لا يقتلك بالسيف، إنه قد آلى، إن لم تجبه، أن يضربك ضربا بعد ضرب، وأن يقتلك في موضع لا يرى فيه شمس ولا قمر. أليس قد قال الله تعالى: ﴿إنا جعلناه قرآنا عربيا﴾ أفيكون مجعولا إلا مخلوقا؟ فقلت: فقد قال تعالى: ﴿فجعلهم كعصف مأكول﴾ أنخلقهم؟

قال: فسكت. فلما صرنا إلى الموضع المعروف بباب البستان، أخرجت، وجيء بدابة فأركبت وعلي الأقياد، ما معي من يمسكني، فكدت غير مرة أن أخر على وجهي لثقل القيود. فجيء بي إلى دار المعتصم، فأدخلت حجرة، ثم أدخلت بيتا، وأقفل الباب علي في جوف الليل ولا سراج. فأردت الوضوء، فددت يدي، فإذا أنا بإناء فيه ماء، وطست موضوع، فتوضأت وصليت.

فلما كان من الغد، أخرجت تكتي، وشددت بها الأقياد أحملها، وعطفت سراويلي. فجاء رسول المعتصم، فقال: أجب فأخذ بيدي، وأدخلني عليه، والتكة في يدي، أحمل بها الأقياد، وإذا هو جالس، وأحمد بن أبي دواد حاضر، وقد جمع خلقا كثيرا من أصحابه. فقال لي المعتصم: ادنه ادنه. فلم يزل يدنيني حتى قربت منه.

ثم قال: اجلس، فجلست، وقد أثقلتني الأقياد، فكثت قليلا، ثم قلت: أتاذن في الكلام؟ قال تكلم، فقلت: إلى ما دعا الله ورسوله؟

فسكت هنية ثم قال: إلى شهادة أن لا إله إلا الله، فقلت: فأنا أشهد أن لا إله إلا الله.

ثم قلت: إن جدك ابن عباس يقول: لما قدم وفد عبد القيس على رسول الله، سأله عن الإيمان، فقال: أتدرون ما الإيمان؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وأن تعطوا الخمس من المغنم¹⁵⁷ قال أبي: فقال، يعني: المعتصم: لولا أنني وجدتكم في يد من كان قبلي، ما عرضت لك. X

ثم قال: يا عبد الرحمن بن إسحاق، ألم أمرك برفع المحنة؟ فقلت: الله أكبر! إن في هذا لفرجا للمسلمين. ثم قال لهم: ناظروه، وكلهوه، يا عبد الرحمن كلهه. فقال: ما تقول في القرآن؟ قلت: ما تقول أنت في علم الله؟ فسكت، فقال لي بعضهم: أليس قال الله تعالى ﴿الله خالق كل شيء﴾؟ والقرآن أليس شيئا؟ فقلت:

قال الله ﴿تدمر كل شيء﴾ فدمرت إلا ما أراد الله. فقال بعضهم: ﴿ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث﴾ أفيكون محدث إلا

١٥٧ - أصل حديث وفد عبد القيس في صحيح البخاري، رقم 53. واللفظ في المتن هو لفظ حكاية المناظرة، لا نقل مستقل للحديث بجميع ألفاظه.

مخلوقاً؟ فقلت: قال الله: ﴿ص والقرآن ذي الذكر﴾ فالذكر هو القرآن، وتلك ليس فيها ألف ولا م.

وذكر بعضهم حديث عمران بن حصين "إن الله خلق الذكر"، فقلت: هذا خطأ، حدثنا غير واحد: "إن الله كتب الذكر"¹⁵⁸ واحتجوا بحديث ابن مسعود: ما خلق الله من جنة ولا نار ولا سماء ولا أرض أعظم من آية الكرسي¹⁵⁹ فقلت: إنما وقع الخلق

١٥٨ - حديث عمران بن حصين في صحيح البخاري، رقم 3191، ولفظه «وكتب في الذكر كل شيء». وقد ورد في حكاية المناظرة مختصراً.

١٥٩ - أثر موقوف مختلف في طرقة وألفاظه، لا حديث مرفوع. يرد هنا في حكاية احتجاج خصوم أحمد وجوابه عليهم، لا بوصفه استدلالاً مستقلاً يصححه هذا الكتاب. انظر: البخاري، خلق أفعال العباد، تحقيق عبد الرحمن عميرة، ص 33؛ وابن الجوزي، المناقب، ص 435-436؛ وابن الضريس، فضائل القرآن، رقم 193. جمع الجورقاني في الأباطيل والمناكير، باب في آية الكرسي، الأرقام 706-709، وجوه الاختلاف: حماد عن عاصم عن أبي الأحوص، وحماد عن عاصم عن أبي الضحى عن مسروق، وحصين عن أبي الضحى عن شثير، وزكريا عن الشعبي عن شثير ومسروق. حكم على سياق 706 بالبطلان، وذكر مخالفة الطريق التالي له، وانتقد في 709 انتظام الإسناد والمتن. وهذه أحكامه على روايات معينة، لا إجماع من النقاد على كل لفظ للأثر. ومن الفروق المؤثرة إثبات «ما خلق الله» أو حذف «خلق»، واختلاف صياغة المقارنة. القرار التحريري: يحفظ لفظ وثيقة المحنة لبيان المناظرة، ولا يعتمد هذا الأثر وحده لإثبات حكم عقدي؛

على الجنة والنار والسماء والأرض، ولم يقع على القرآن. فقال بعضهم: حديث خباب: يا هنتاه، تقرب إلى الله بما استطعت، فإنك لن تقترب إليه بشيء أحب إليه من كلامه¹⁶⁰ فقلت: هكذا هو.¹⁶¹

قال صالح: وجعل ابن أبي دواد ينظر إلى أبي كالمغضب. قال أبي: وكان يتكلم هذا، فأرد عليه. ويتكلم هذا، فأرد عليه، فإذا انقطع الرجل منهم، اعترض ابن أبي دواد، فيقول: يا أمير المؤمنين، هو، والله، ضال مضل مبتدع! فيقول: كلموه، ناظروه، فيكلمني هذا، فأرد عليه، ويكلمني هذا، فأرد عليه، فإذا انقطعوا، يقول المعتصم:

ولا يحمل جواب أحمد عن الدلالة على تصحيح جميع طرقه.

١٦٠ - هذا من كلام خباب بن الأرت، لا من قول النبي صلى الله عليه وسلم. أحمد، الزهد، رقم 192؛ البيهقي، الأسماء والصفات، تحقيق الحاشدي، 588-1/587، الرقان 513-514، وقال البيهقي: «هذا إسناد صحيح».

١٦١ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 246-11/243، من رواية صالح عن أبيه؛ قبل النقل على الصور، وأصله في سيرة صالح، ط3، ص51-58، بالفاظ وترتيب أوسع. أبقى لفظ السير دون تركيب الروايتين. ويصف الذهبي أسانيد أخبار المحنة بالصحة إجمالاً في 11/264؛ لا يسحب هذا على خبر بعينه ظهر انقطاعه أو اختلافه. حديث وفد عبد القيس هنا حكاية استشهاد، لا بدل عن لفظ الصحيح.

ويحك يا أحمد، ما تقول؟ فأقول: يا أمير المؤمنين، أعطوني شيئاً من كتاب الله أو سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى أقول به.

فيقول أحمد بن أبي دواد: أنت لا تقول إلا ما في الكتاب أو السنة؟ فقلت له: تأولت تأويلاً، فأنت أعلم، وما تأولت ما يحبس عليه، ولا يقيد عليه. X¹⁶²

دخل أحمد على المعتصم يحمل أقياده بتكة سراويله. شيء من لباسه صار عوناً له على وزن الحديد، ثم بقي في يده وهو يتقدم إلى الخليفة. هذه التفصيلة ليست زينة روائية؛ هي مما قاله الرجل عن نفسه. وبها نرى أن الكلام الذي سيقوله لم يصدر عن مناظر مستريح أعد له مجلس يضمن سلامته، بل عن أسير يحاول أن يضبط حركة جسده لكي يقف ويجلس.

وكانت له في أول الحوار فرصة يقول فيها ما يجمعه بمن أمامه: الشهادة، والإيمان الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم. لم يبدأ بتعداد فضائله ولا بما دفع من ثمن، بل عاد إلى أصل الدعوة.

١٦٢ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/246-247، قول على الصورة. وانظر أصل الرواية عند صالح، السيرة، ط 3، ص 54. حافظ النقل على عبارة المصدر المختلف في فصل جملها، ولا يحول إلى صياغة أخرى بين علامتي اقتباس.

وفي استشهاده بحديث رواه ابن عباس، جد البيت العباسي، صلة بين ما يقوله وبين المرجعية التي ينتسب إليها الخليفة نفسه.

ثم يسمع من المعتصم كلاماً عن رفع المحنة، فيكبر ويرجو الفرج للمسلمين. لا يزال باب السلامة محبوباً إليه. وليس الثبات رغبة في أن يبقى مقيداً، ولا تصميمًا على أن تنتهي القصة بضرب يذكره الناس؛ إنه يريد أن يرفع الإكراه، فإذا لاح له ذلك فرح به. ثم عاد المجلس إلى السؤال نفسه، فعاد إلى ما يستطيع أن يقول وما لا يستطيع.

كلمة في الحديث

في أثناء الاحتجاج يرد لفظ «خلق الذكر»، فيرده أحمد إلى «كتب الذكر». هنا تلتقي أيام الرحلة الطويلة بساعة المحنة. الذين رأوه يجمع الطرق، ويسأل عن اللفظ، ويرجع إلى الكتاب، قد يرون ثمرة ذلك في اختلاف كلمة واحدة. فإذا بني استدلال على لفظ لم يثبت كما نقل، لم يعد الجواب عنه جدلاً مجرداً؛ يبدأ من تصحيح المادة التي قام عليها الاستدلال.

لكن المشهد يبين نوعاً من القوة لم تصنعه اللحظة. تحت التهديد بقي يفرق بين الألفاظ، ويقابل الاستدلال بموضعه، ويطلب نصاً يحتج به. لم يكن صبره بدلاً من العلم، بل كان الصبر يحفظ للعلم قدرته على الكلام حين صار الصمت أو التراجع أقرب إلى السلامة.

وترد آيات عموم الخلق، فيناقش دلالة العموم وما يدخل فيه بحسب السياق. وترد ألفاظ الذكر والجعل، فيعود إلى استعمالها في القرآن. لا يكتفي بأن يقول: إنني ثابت، ثم يترك المسألة بلا جواب؛ يسعى إلى بيان لماذا لا يقول بما يطلبونه. ولهذا كان تحويل المحنة كلها إلى وصف الجلد اختزالاً لجوهرها العلمي.

من الجواب إلى الاتهام

كلما انقطع واحد ممن يكلمونه، اعترض ابن أبي دواد بوصف أحمد بالضلال والابتداع. ينتقل المجلس عندئذ من مناقشة ما قال إلى الحكم على صاحبه. والخليفة يطلب منهم أن يناظروه، ثم يعود فيسأل السجين: ما تقول؟ فيرجع أحمد إلى طلبه الأول: شيء من كتاب الله أو سنة رسوله.

كان السؤال الظاهر واحداً، لكن ما ينتظر كل طرف من الجواب مختلف. يريد المناظر إقراراً بمذهبه، ويريد صاحب السلطان نهاية للموقف الذي تعطل بين يديه، ويريد أحمد ما يستطيع أن يعتقده ويبلغه من بعده. ولهذا لم تكن كثرة إعادة السؤال كافية لتقريبهم. لا يملك أحمد أن يجعل قوة الأمر دليلاً، ولا يملك من يريدون إجابته أن يكتفوا ببيانه ما دام لم ينطق بالكلمة المطلوبة. وفي قوله إن التأويل الذي تأولوه ليس مما يحبس عليه أو يقيد، إشارة إلى موضع الإكراه نفسه. ثمة اختلاف في الفهم، ثم ثمة

حبس وقيد يحملان الناس على أحد طرفيه. ليس القيد جزءاً من البرهان، وإن كان حاضراً في المجلس مع كل عبارة تقال. وسيظهر هذا الفرق على أشد حالاته حين ينتهي الكلام وتؤتى السياط.

الفصل الثاني والعشرون: المجلس الذي ضاق بالدليل

كان المعتصم يريد كلمة تنتهي بها القضية، وكان أحمد يريد حجة يلقي الله بها. وبين المطلبين جرت مجالس طويلة، يظن من يقرأها من بعيد أن النجاة كانت قريبة في كل لحظة. يكفي أن يلين الرجل قليلاً، أو أن يختار عبارة تحتل ما يريد وما يريدون، ليخرج من الباب الذي دخل منه مقيداً. لكن العبارة التي يخرج بها ستخرج معه إلى الناس؛ وسيكون لها في دينهم وزن اسم أحمد بن حنبل.

حول الخليفة رجال يدافعون عن القول الذي امتحنوا به الناس، وأمامهم سجين يجب ثم يطلب الدليل من الكتاب والسنة. ضاق المجلس بطلبه، وبقي هو يعود إليه كلما عاد السؤال.

روى صالح عن أبيه جانباً طويلاً من هذه المجالس. نسمع فيه عبارات العرض والتهديد تتجاوز، حتى إن وعد الخليفة بإطلاقه بيده يرد غير مرة قبل أن يأمر بجلده: قال صالح: وجعل ابن أبي دواد يقول: يا أمير المؤمنين، والله لئن أجابك لهو أحب إلي من مائة ألف دينار، ومائة ألف دينار، فيعد من ذلك ما شاء الله أن يعد. فقال: لئن أجابني لأطلقك عنه بيدي، ولأركن إليه بجندي، ولأطأن عقبه. ثم قال: يا أحمد، والله إني عليك لشفيق، وإني لأشفق عليك كشفتي على ابني هارون، ما تقول؟ فأقول:

أعطوني شيئاً من كتاب الله وسنة رسوله. فلها طال المجلس، فخرج وقال: قوموا، وحبسني - يعني عنده - وعبد الرحمن بن إسحاق يكلمني. وقال: ويحك! أجبني. وقال: ويحك! ألم تكن تأتينا؟ فقال له عبد الرحمن: يا أمير المؤمنين، أعرفه منذ ثلاثين سنة، يرى طاعتك والحج والجهاد معك. فيقول: والله إنه لعالم، وإنه لفقيه. وما يسوءني أن يكون معي يرد عني أهل الملل. ثم قال: ما كنت تعرف صالحا الرشيدي؟ قلت: قد سمعت به قال: كان مؤدبي، وكان في ذلك الموضع جالسا، وأشار إلى ناحية من الدار. فسألني عن القرآن، فخالفني، فأمرت به فوطئ وسحب! يا أحمد، أجبني إلى شيء لك فيه أدنى فرج، حتى أطلق عنك يدي. قلت: أعطوني شيئاً من كتاب الله وسنة رسوله. فطال المجلس، وقام، ورددت إلى الموضع.

فلما كان بعد المغرب، وجه إلي رجلين من أصحاب ابن أبي دواد، يبيتان عندي ويناظرانني ويقيماني معي، حتى إذا كان وقت الإفطار، جيء بالطعام، ويجهذان بي أن أفطر فلا أفعل - قلت: وكانت ليالي رمضان - قال: ووجه المعتصم إلي ابن أبي دواد في الليل، فقال: يقول لك أمير المؤمنين: ما تقول؟ فأرد عليه نحو مما كنت أرد. فقال ابن أبي دواد: والله لقد كتب اسمك في السبعة: يحيى بن معين وغيره فمحوته. ولقد ساءني أخذهم إياك. ثم يقول: إن أمير المؤمنين قد حلف أن يضربك ضربا بعد ضرب، وأن

يلقيك في موضع لا ترى فيه الشمس. ويقول: إن أجابني، جئت إليه حتى أطلق عنه يدي، ثم انصرف. فلما أصبحنا جاء رسوله، فأخذ يدي حتى ذهب بي إليه، فقال لهم: ناظروه وكلوه، فجعلوا يناظروني، فأرد عليهم. فإذا جاءوا بشيء من الكلام مما ليس في الكتاب والسنة، قلت: ما أدري ما هذا. قال: فيقولون: يا أمير المؤمنين، إذا توجهت له الحجة علينا، ثبت، وإذا كلمناه بشيء، يقول: لا أدري ما هذا؟ فقال: ناظروه فقال رجل: يا أحمد، أراك تذكر الحديث وتنتحله، فقلت: ما تقول في قوله: يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين؟ قال: خص الله بها المؤمنين. قلت: ما تقول: إن كان قاتلا أو عبدا؟ فسكت، وإنما احتججت عليهم بهذا؛ لأنهم كانوا يحتجون بظاهر القرآن. فحيث قال لي: أراك تنتحل الحديث، احتججت بالقرآن، يعني: وإن السنة خصصت القاتل والعبد، فأخرجتهما من العموم. قال: فلم يزالوا كذلك إلى قرب الزوال. فلما ضجر، قال: قوموا، ثم خلا بي، وبعد الرحمن بن إسحاق، فلم يزل يكلمني، ثم قام ودخل. ورددت إلى الموضع. قال: فلما كانت الليلة الثالثة، قلت: خليك أن يحدث غدا من أمري شيء فقلت للموكل بي: أريد خيطا فجاءني بخيط، فشددت به الأقياد، ورددت التكة إلى سراويلي مخافة أن يحدث من أمري شيء، فأتعري.

فلما كان من الغد، أدخلت إلى الدار، فإذا هي غاصة، فجعلت أدخل من موضع إلى موضع، وقوم معهم السيوف، وقوم معهم السياط، وغير ذلك. ولم يكن في اليومين الماضيين كبير أحد من هؤلاء. فلما انتهيت إليه، قال: اقعد. ثم قال: ناظروه، كلموه. فجعلوا يناظروني، يتكلم هذا، فأرد عليه، ويتكلم هذا، فأرد عليه، وجعل صوتي يعلو أصواتهم. فجعل بعض من هو قائم على رأسي يومئ إلى يده، فلما طال المجلس، نحاني، ثم خلا بهم، ثم نحاهم، وردني إلى عنده، وقال: ويحك يا أحمد! أجبني حتى أطلق عنك يدي، فرددت عليه نحو ردي. فقال: عليك، وذكر اللعن، خذوه استحبوه خلعوه. فسحبت وخلعت. قال: وقد كان صار إلي شعر من شعر النبي - صلى الله عليه وسلم - في كم قميصي، فوجه إلي إسحاق بن إبراهيم يقول: ما هذا المصروع؟ قلت: شعر من شعر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وسعى بعضهم ليخرق القميص عني، فقال المعتصم: لا تحرقوه، فتزع، فظننت أنه إنما دريء عن القميص انخرق بالشعر.¹⁶³ قال: وجلس المعتصم على كرسي، ثم قال: العقابين والسياط، فجيء بالعقابين، فدت يداي، فقال بعض من

١٦٣ - السير 11/250 يروي «الخرق»، وأصل رواية صالح، السيرة، ط3، ص60، يروي «الخرق». نقل هنا لفظ السير، وما فيه من تعليل سلامة القميص ظن أحمد كما صرح، وليس إثباتاً مستقلاً لنسبة الشعر إلى النبي ﷺ.

حضر خلفي: خذ نائئ الخشبتيين بيديك، وشد عليهما. فلم أفهم ما قال، فتخلعت يداي. ^{X164}

يتكلم المعتصم عن شففته كما يشفق على ابنه هارون، ثم يذكر ما فعله بمؤدبه حين خالفه. في مجلس واحد اجتمع الحنان الذي يعلنه الحاكم والخوف الذي يريده أن يبلغه إلى من يخاطب. وأحمد يسمع الاثنين. ليست شجاعته جهلاً بما يقدر عليه الرجل؛ فقد سمع منه المثال، ورأى الحرس، وحمل القيود قبل أن يبلغ هذا الموضع.

حين يسأل السجين

أراد أحدهم أن يجعل انتساب أحمد إلى الحديث موضع تهمة. فسأله أحمد عن الميراث: ماذا يصنع بعموم الآية إذا كان الوارث قاتلاً أو عبداً؟ لم يترك القرآن إلى خصومة خارجه؛ رد صاحبه إلى الطريقة التي نفهم بها القرآن نفسه، وإلى بيان السنة لعمومه. إن النصوص عنده يفسر بعضها بعضاً، ولا تقطع آية من الوحي لتستعمل في إسقاط بقية الوحي.

١٦٤ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/247-250؛ قول النقل على الصور. وأصله في سيرة صالح، ط3، ص54-61، بألفاظ مختلفة في بعض المواضع. تفسير تخصيص الميراث بالسنة داخل نقل الذهبي، وليس حواراً مستقلاً أضيف إلى المجلس.

وهنا يظهر الفقيه داخل مجلس المحدث. سنوات السماع لم تنتج ذاكرة تسرد الأسماء وحدها. كان يعرف كيف تتصل الأحكام بأدلتها، وكيف يقع الخطأ حين يعامل اللفظ العام معاملة لا تبقي موضعاً للبيان النبوي. ومن قرأ جوابه مجرد عناد أمام السلطان فاته العلم الذي أقام عليه امتناعه.

وكان يقول فيما لم يعرف من عباراتهم: «ما أدري ما هذا». لا يعالج ضغط المجلس باستعارة مصطلحات لم يتبينها. وهو، مع ذلك، لا يصمت عن الذي يعلمه: الله كما وصف نفسه، والقرآن كلامه. هذا الاجتماع بين الوقوف عند حد المعرفة والثبات فيما قامت عليه المعرفة من أخص ما حفظه أصحابه عنه.

لم تنته المناظرة في جلسة واحدة. رُد إلى موضعه، وبات عنده من يناظره، وعادوا إليه في اليوم التالي. ثم جاءت ليلة توقع فيها أن يقع له في الغد أمر. طلب خيطاً، وشد أقياده، ورد التكة إلى سراويله، خشية أن يتعرى إن صنعوا به ما يصنعون. هذا التفصيل الصغير أقرب إلى حقيقة المحنة من كثير من صور البطولة التي أضافها المتأخرون: رجل يتوقع أن يسلب القدرة على حماية ثوبه، فيهيئ ما يستطيع قبل أن يطلع النهار.

وفي الصباح رأى من أصحاب السيوف والسياط ما لم يره في
اليومين الماضيين. لقد أخذت المناظرة صورتها الأخيرة. الكلمة التي
لم يخرجها الحوار يراد للجسد أن يخرجها.

الفصل الثالث والعشرون: ما بقي من الصوت تحت السوط

حين جيء بالسياط نظر المعتصم إليها، وأمر بغيرها. لم يكن الألم حادثاً عارضاً وقع في مجلس علم؛ صار وسيلة مقررة لإرادة الجواب. كان الخليفة حاضراً، يأمر الجلاد أن يشتد، ثم يقوم إلى المضروب يدعوه إلى كلمة يجد له بها فرجاً.

ويروي أحمد ما وقع له، كما حفظه ابنه:

وقال صالح: قال أبي: ولما جيء بالسياط، نظر إليها المعتصم، فقال: ائثوني بغيرها، ثم قال للجلادين: تقدموا، فجعل يتقدم إلى الرجل منهم، فيضربني سوطين، فيقول له: شد، قطع الله يدك! ثم يتنحى ويتقدم آخر، فيضربني سوطين، وهو يقول في كل ذلك: شد، قطع الله يدك! فلما ضربت سبعة عشر سوطاً، قام إلي، يعني: المعتصم، فقال: يا أحمد، علام تقتل نفسك؟ إني والله عليك لشفيق، وجعل عجيف ينخسني بقائمة سيفه، وقال: أتريد أن تغلب هؤلاء كلهم؟ وجعل بعضهم يقول: ويلك! إمامك على رأسك قائم. وقال بعضهم: يا أمير المؤمنين، دمه في عنقي، اقتله، وجعلوا يقولون: يا أمير المؤمنين، أنت صائم، وأنت في الشمس قائم! فقال لي: ويحك يا أحمد، ما تقول؟ فأقول: أعطوني شيئاً من كتاب الله أو سنة رسول الله أقول به. فرجع وجلس. وقال للجلاد: تقدم، وأوجع، قطع الله يدك، ثم قام الثانية، وجعل يقول: ويحك يا أحمد: أجبني. فجعلوا

يقبلون علي، ويقولون: يا أحمد، إمامك على رأسك قائم! وجعل عبد الرحمن يقول: من صنع من أصحابك في هذا الأمر ما تصنع؟ والمعتصم يقول: أجبني إلى شيء لك فيه أدنى فرج حتى أطلق عنك يدي، ثم رجع، وقال للجلاد: تقدم، فجعل يضربني سوطين ويتنحي، وهو في خلال ذلك يقول: شد، قطع الله يدك. فذهب عقلي، ثم أفقت بعد، فإذا الأقياد قد أطلقت عني. فقال لي رجل ممن حضر: كبنائك على وجهك، وطرحنا على ظهرك بارية ودسناك! قال أبي فما شعرت بذلك، وأتوني بسويق، وقالوا: اشرب وتقيأ، فقلت: لا أفطر. ثم جيء بي إلى دار إسحاق بن إبراهيم، فحضرت الظهر، فتقدم ابن سماعة، فصلى. فلما انفتل من صلاته، وقال لي: صليت، والدم يسيل في ثوبك؟ قلت: قد صلى عمر، وجرحه يثعب دما.

قال صالح: ثم خلي عنه، فصار إلى منزله. وكان مكثه في السجن منذ أخذ إلى أن ضرب وخلي عنه، ثمانية وعشرين شهرا. ولقد حدثني أحد الرجلين اللذين كانا معه، قال: يا ابن أخي، رحمة الله على أبي عبد الله، والله ما رأيت أحدا يشبهه، ولقد جعلت أقول له في وقت ما يوجه إلينا بالطعام: يا أبا عبد الله، أنت صائم، وأنت في موضع [تقية]. ولقد عطش، فقال لصاحب الشراب: ناولني، فناوله قدحا فيه ماء وثلج، فأخذه ونظر فيه، ثم رده، ولم يشرب، فجعلت أعجب من صبره على الجوع والعطش، وهو فيما هو فيه من

الهول! قال صالح: فكنت ألتمس وأحتال أن أوصل إليه طعاما أو رغيفا في تلك الأيام، فلم أقدر. وأخبرني رجل حضره: أنه تفقده في الأيام الثلاثة وهم يناظرونه، فما لحن في كلمة. قال: وما ظننت أن أحدا يكون في مثل شجاعته وشدة قلبه. X¹⁶⁵

«فذهب عقلي، ثم أفقت». بهذه الكلمات مر على ما لا تسعه عبارة واحدة في حياة إنسان. الذي ينقلها لا يزعم أنه ظل يشعر بكل ضربة، ولا يحول الإغماء إلى نقص في ثباته. للجسد نهاية يبلغها، وقد بلغها. وكان من صدق الخبر أن حفظ النهاية كما حفظ الجواب الذي سبقها.

ويقول حنبل إنه سمعه يذكر أن ذهاب عقله ورجوعه تكررا؛ كلما استرخى رفع عنه الضرب، ثم رجعت إليه نفسه.¹⁶⁶ ليست هذه

١٦٥ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/251-253؛ قبول على الصور. وأصل الخبر في سيرة صالح، ط3، ص61-64. صدره عن صالح عن أبيه، وفي آخره روايتان عن شاهدين لم يسمهما صالح؛ فلا تسوى مرتبتهما بشهادته المباشرة. وفي عدد السياط اختلاف بين ألفاظ المصادر، فلا يجعل العدد المروي في هذا المشهد إحصاءً لجميع الضرب. وفي السير «تفتئة»، ونقل المحقق قراءة «تقية» في مصادر أخرى؛ أثبتت القراءة المبينة للمعنى هنا بين معقوفين.

١٦٦ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/253.

سيرة رجل ألغى عنه الضعف البشري. لقد وقع عليه الألم بما يقع على الأجساد من أثره، وبقي اختياره، ما دام يعي، أن لا يقول قولاً لا يعتقده.

رغيف لم يصل

خارج المجلس كان صالح يحاول أن يوصل إليه طعاماً أو رغيفاً فلم يقدر. يرد الخبر في أثناء وصف الضرب، فيردنا من القصر إلى البيت. للسجين ولد يبحث عن منفذ إليه، وللعائلة انتظار لا تملك معه أن ترى ما يقع. لا تذكر الرواية ما قالوه بعضهم لبعض، لكن الرغيف الذي لم يصل يكشف مقدار العجز: أقرب الناس إليه لا يستطيع أن يؤدي أبسط خدمة للمريض والجائع.

وعندما انتهى الضرب، لم ينته أثره. صلى وثوبه يسيل دمًا، وسئل عن صلاته على تلك الحال، فذكر صلاة عمر رضي الله عنه وجرحه يشعب. كان يرجع إلى الأثر حتى في حركته تحت الألم. وما نقرؤه هنا خبر عن عبادته واجتهاده في حاله، لا دعوة إلى أن يعرض الإنسان نفسه للهلاك أو يترك ما يحتاج إليه من علاج.

الباب الذي عاد منه

حفظ حنبل عودته إلى البيت، وكان ممن تلقاه. هذه المرة لن يصف ثبات الصوت، بل انحناء الجسد وصيحته حين مسته يد قريبه:

وقال حنبل: لما أمر المعتصم بتخية أبي عبد الله، خلع عليه مبطنة وقيصا وطيلسانا وقلنسوة وخفا. فبينما نحن على باب الدار، والناس في الميدان والدروب وغيرها، وغلقت الأسواق إذ خرج أبو عبد الله على دابة من دار المعتصم في تلك الثياب، وأحمد بن أبي دواد عن يمينه، وإسحاق بن إبراهيم - يعني: نائب بغداد - عن يساره. فلما صار في الدهليز قبل أن يخرج، قال لهم ابن أبي دواد: اكشفوا رأسه فكشفوه، يعني: من الطيلسان، وذهبوا يأخذون به ناحية الميدان نحو طريق الحبس. فقال لهم إسحاق: خذوا به هاهنا يريد دجلة، فذهب به إلى الزورق، وحمل إلى دار إسحاق بن إبراهيم، فأقام عنده إلى أن صليت الظهر. وبعث إلى والدي وإلى جيراننا ومشايخ المحال، فجمعوا وأدخلوا عليه. فقال لهم: هذا أحمد بن حنبل، إن كان فيكم من يعرفه وإلا فليعرفه. وقال ابن سماعة - حين دخل الجماعة - لهم: هذا أحمد بن حنبل، وإن أمير المؤمنين ناظره في أمره، وقد خلى سبيله، وها هو ذا، فأخرج على فرس لإسحاق بن إبراهيم عند غروب الشمس، فصار إلى منزله، ومعه السلطان والناس، وهو منحن. فلما ذهب لينزل احتضنته ولم أعلم،

فوقعت يدي على موضع الضرب، فصاح، فنحيت يدي، فنزل متوكِّئاً علي، وأغلق الباب، ودخلنا معه، ورمى بنفسه على وجهه لا يقدر أن يتحرك إلا بجهد، ونزع ما كان خلع عليه، فأمر به فبيع وتصدق بثمنه. وكان المعتصم أمر إسحاق بن إبراهيم أن لا يقطع عنه خبره. وذلك أنه ترك فيما حكي لنا عند الإياس منه. وبلغنا أن المعتصم ندم، وأسقط في يده، حتى صلح، فكان صاحب خبر إسحاق بن إبراهيم يأتينا كل يوم يتعرف خبره، حتى صح، وبقيت إبهاماه منخلعتين يضربان عليه في البرد، فيسخن له الماء، ولما أردنا علاجه، خفنا أن يدس أحمد بن أبي دواد سما إلى المعالج، فعملنا الدواء والمرهم في منزلنا. ¹⁶⁷X

يمسك به حنبل ليساعده، فتقع اليد على موضع الضرب فيصيح. هنا يعود أحمد إلى حمله الإنساني كاملاً؛ يحتاج إلى من يتوكأ عليه، ويعجز عن الحركة إلا بجهد، ويضطجع على وجهه. ولا ينتقص هذا من منزلته شيئاً. إنما يبين ما دفعه من جسده، وما حمله أهله معه بعد أن انصرف الحرس.

باع الثياب التي خلعها عليه السلطان وتصدق بثمنها. لم يبقها زينة يذكر بها مقاماً في القصر. كان يخرج من أثر المجلس بما يستطيع؛ أما أثر السياط فلم يكن مما يخلعه الإنسان مع ثوبه.

الفصل الرابع والعشرون: الجرح الذي لم يمنعه العفو

استدعي من يبصر الضرب والعلاج. نظر المعالج إلى ما صنع بظهره، ثم جعل يأتية ويتعاهده. وفي بعض الجراح لحم احتاج إلى قطعه. يروي صالح:

وبه قال ابن أبي حاتم: قال أبو الفضل صالح: خلي عنه، فصار إلى المنزل، ووجه إلى المطبق. فجيء برجل ممن يبصر الضرب والعلاج، فنظر إلى ضربه، فقال قد رأيت من ضرب ألف سوط، ما رأيت ضرباً مثل هذا. لقد جر عليه من خلفه، ومن قدامه، ثم أخذ ميلاً، فأدخله في بعض تلك الجراحات. فنظر إليه فقال: لم ينقب؟ وجعل يأتية ويعالجه. وكان قد أصاب وجهه غير ضربة. ومكث منكبا على وجهه كم شاء الله. ثم قال له: إن هاهنا شيئاً أريد أن أقطعه، فجاء بمحديدة، فجعل يعلق اللحم بها، فيقطعه بسكين معه، وهو صابر لذلك، يجهر بحمد الله في ذلك، فبرأ منه. ولم يزل يتوجع من مواضع منه، وكان أثر الضرب بينا في ظهره إلى أن توفي.^{X¹⁶⁸}

١٦٨ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/256-257. قبل النقل على الصورة؛ وانظر أصل خبر الضرب والعودة في سيرة صالح، ط3، ص61-64. ألفاظ النقل هنا للسير.

ظل أثر الضرب ظاهراً إلى الوفاة. وبعد نحو ثلاث سنين سأله أبو حاتم عن الألم؛ فأراه يديه وما بقي فيهما من أثر الخلع.¹⁶⁹ لم تكن المحنة أياماً أغلقت صفحتها يوم خرج من السجن. كانت تعود مع البرد، وتحتاج إلى تسخين وعناية، وتدخل في تفاصيل حياة لا يراها من لا يذكر من أحمد إلا موقفه أمام الخليفة X.

وخاف أهله، كما يروي حنبل، أن يصل إلى دوائه ما يؤذيه، فصنعوا المرهم عندهم وحفظوه. هذا احتياط روي عنهم، ولا يثبت أن محاولة تسميم وقعت.

ثم ظهر من الرجل اختيار آخر. لم يحج الوجع كي يستطيع أن يعفو؛ عفا والوجع معروف، وأثره باق. قال حنبل:

وسمعه يقول: كل من ذكرني ففي حل إلا مبتدعاً، وقد جعلت أبا إسحاق - يعني: المعتصم - في حل، ورأيت الله يقول: وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم وأمر النبي - صلى الله عليه وسلم - أبا بكر بالعفو في قصة مسطح.

قال أبو عبد الله: وما ينفعك أن يعذب الله أخاك المسلم في سببك؟!¹⁷⁰ X

١٦٩ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/257-258.

١٧٠ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/261.

قرأ الآية التي تدعو إلى العفو والصفح رجاء مغفرة الله، ووضع
أذاه الشخصي أمام هذا الرجاء. سأل: ماذا ينفعل أن يعذب الله
أخاك المسلم بسببك؟ ليس في السؤال إنكار لما صنع المعتصم، ولا
تسوية بين من ضرب ومن ضرب؛ بل فيه ترك للانتقام في الحق
الذي يرى أنه يملكه لنفسه.

وتبقى عبارته في استثناء المبتدع من الحل كما وردت، فلا نلغيها
لنصنع قصة ألطف. كان يفرق بين أذى نفسه وبين ما يتعلق
بالدين. وقد يقرأ القارئ في شدته على القول ما يحتاج إلى فهم
مستقل، كما يقرأ في عفو سعة. يجتمع الأمران في الرجل نفسه،
ولا يلزم لكي نفهم رحمته أن نحو صلابته، ولا لكي نفهم صلابته
أن نحو رحمته. وعندما طلب إسحاق بن إبراهيم أن يجعله في حل
من حضوره الضرب، قال إنه جعل كل من حضره في حل.¹⁷¹
ليس هذا عفواً سريعاً لا يمتحن إلا في الخاطر؛ جاء بعض من
حضروا الاعتداء يطلبه، فسمع الجواب من صاحبه.

كان يستطيع أن يحمل المحنة إلى بقية عمره على هيئة خصومة
شخصية مع كل اسم مر فيها. لكنه حمل معها مسؤولية أوسع: أن
يبقى العلم، وأن يعرف الناس ما يعتقده، وأن لا تجعل جراحه
دماء هم مباحة في غضب لا يضبطه أحد. وسوف يظهر هذا في

عهد الوثائق، حين يعود الخوف إلى بغداد وتأتيه دعوة إلى طريق آخر.

الفصل الخامس والعشرون: حين أغلق باب البيت

عاد أحمد إلى الجمعة والجماعة، وإلى الحديث والفتوى، والجراح باقية في ظهره. مات المعتصم وولي الواثق، ثم اشتدت المحنة من جديد. كان للبيت باب يرجع إليه، وسيأتيه من السلطان أمر يضيق خروجه منه.¹⁷² X

بقي رجال القضاء والدولة، واتسع أثر الامتحان إلى البيوت. يروي حنبل التفريق بين بعض الأزواج ونسائهم، وخوف أهل بغداد أن يبلغ الأمر تعليم الصبيان. صار للخلاف أثر في يوم الناس، يتجاوز مجلس المحدث.

وجاء نفر إلى أحمد يرون أن الأمر فشا وتفاقم، ويتحدثون عن رفض الإمارة. فمنعهم من ذلك وناظرهم وأمرهم بالصبر.¹⁷³ لم تكن عنده شجاعة المواجهة الشخصية إذن موافقة على كل مواجهة. كان يعلم أن من يحتمل الألم في نفسه قد لا يملك أن

١٧٢ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 264-11/263.

١٧٣ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 264-11/263، عن حنبل. قبول موضع الامتناع عن المشاركة على الصورة؛ وهو قرار أحمد في الواقعة التي وصفت له، لا نص في أحكام جميع الوقائع السياسية اللاحقة.

يحتمل عن غيره الدم والخراب. ووراء كل اقتراح كبير بيوت أخرى، وأطفال لا اختيار لهم في القرار الذي يتخذه الرجال.

رسالة في الليل

قال حنبل:

قال: فبينما نحن في أيام الواصل، إذ جاء يعقوب ليلاً برسالة الأمير إسحاق بن إبراهيم إلى أبي عبد الله: يقول لك الأمير: إن أمير المؤمنين قد ذكرك، فلا يجتمعن إليك أحد، ولا تساكني بأرض ولا مدينة أنا فيها، فاذهب حيث شئت من أرض الله. قال: فاختفى أبو عبد الله بقية حياة الواصل. وكانت تلك الفتنة، وقتل أحمد بن نصر الخزاعي. ولم يزل أبو عبد الله مختفياً في البيت لا يخرج إلى صلاة ولا إلى غيرها حتى هلك الواصل. وعن إبراهيم بن هانئ قال: اختفى أبو عبد الله عندي ثلاثاً، ثم قال: اطلب لي موضعاً، قلت: لا آمن عليك، قال: افعل، فإذا فعلت، أفدتك. فطلبت له موضعاً، فلما خرج، قال: اختفى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في الغار ثلاثة أيام ثم تحول. X¹⁷⁴

تنتهي العبارة إلى البيت: لا خروج إلى الصلاة ولا إلى غيرها. كان من نهج حياته أن يبكر إلى المجالس، وأن يرحل، وأن يقصد الناس

طلباً للعلم. والآن يحجب عنهم ويُحجبون عنه. إن عزل العالم عن مجلسه عقوبة تتجاوز الجسد؛ إنها تضرب الطريق الذي تعود أن يؤدي به أمانته.

وفي هذه المدة كان مقتل أحمد بن نصر الخزاعي، كما يذكر حنبل في الخبر نفسه. يحمل الاسم إلى جوار اسم أحمد بن حنبل دلالة شدة العصر، لكن الرجلين لا يدجان في سيرة واحدة، ولا يجعل مسار أحدهما مسار الآخر. اختار ابن حنبل أن لا يدفع الناس إلى الفتنة، ولم يجعل ذلك تسليماً بالقول الذي أرادت السلطة إلزامهم به.

كان البيت، على ضيقه، يحمل علماً لا يقدر أمر المنع على نزعه. يبقى الابن والقريب، وتبقى الكتب، ويبقى سؤال يمكن أن يقال في وقته. غير أن صورة حلقة بعد المحنة تحتاج إلى دقة: تميز الأخبار بين التحديث العام، والمذاكرة، وإجابة المسائل. فلا نضع في كل سنة مجلساً مكتظاً، ثم نطمئن إلى الصورة لأنها تلائم شهرة الرجل.¹⁷⁵

غربة أخرى على باب بغداد

ومن الأندلس جاء بقي بن مخلد في طلب العلم. قطع المسافة التي تفصل بلاده عن المشرق، وأخذ عن شيوخ كثيرين، وكان ممن اتصل بأحمد وأخذ عنه مسائل وفوائد. تحفظ ترجمته صلة العلم هذه، وتحفظ معها خبراً أطول ذاع بعد ذلك عن تنكره في زي سائل ليبلغ البيت الذي أغلقته المحنة.¹⁷⁶ X

لكن الذهبي أنكر القصة المطولة، وناقش تاريخ الوصول والتحديث، ووصف الطريق المختصر لخبر الزي بالانقطاع. لذلك لا نعتمد تنكره في هيئة سائل مشهداً ثابتاً. بقي أصل الحكاية ونقدها في ملحق التحقيق.¹⁷⁷

وليس الثابت في رحلة بقي قليلاً. أن يبلغ طالب من أقصى الغرب الإسلامي بغداد، وأن يطلب علم رجل ضيقت السلطة عليه، شاهد على أن شبكة العلم أوسع من حدود السياسة. وما حمله أهل الرحلة من مسائل وفوائد عاد معهم إلى بلاد لا يصل إليها أمر بغداد كما

١٧٦ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، ترجمة بقي بن مخلد، 13/285-295.

١٧٧ - سير أعلام النبلاء، 13/291-294؛ حكم الذهبي على الطريق المختصر: «هذه حكاية منقطعة»، وعلى المطول: «وهي منكورة».

يصل إلى دروبها. ليس لانتقال العلم دائماً صوت موكب؛ قد
يكون في دفتر صغير يرجع به صاحبه آلاف الأميال.

الفصل السادس والعشرون: حين تغيرت الرسائل

ولي المتوكل سنة اثنتين وثلاثين ومائتين. وبدأ رفع المحنة وإظهار السنة، فانقلبت جهة الخوف التي عرفها أهل الحديث.¹⁷⁸ X

قال أحمد في ذلك العهد: «ما كان الناس إلى الحديث والعلم أحوج منهم إليه في زماننا». انحسر الإكراه، وبقي العمل الذي يحمله: تعليم يحتاجه الناس بعدما امتدت فيهم سنوات الخوف والخصومة.¹⁷⁹

ثم جاءت الرسالة التي تطلب خروج أحمد إلى العسكر، أي سامراء. هذه المرة يراد قربه وتكريمه. وقد يتوقع القارئ أن يستريح أخيراً: الخليفة الجديد يخالف الذين آذوه، والدنيا تقبل عليه بعد إدبارها. لكن الرجل الذي خشي أن يشتري السلامة بكلمة، خشي الآن أن يشتري قربه بالعطاء.

١٧٨ — الذهبي، سير أعلام النبلاء، ترجمة المتوكل 12/30-32؛ وترجمة أحمد 11/265 وما بعدها.

١٧٩ — الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/265.

المال الذي لم يبت في الكيس

يروى حنبل خبر مال جاءه من جهة السلطان، وما فعله به في الليلة التي أعقبت وصوله:

قال حنبل: ولم يكن عند أبي عبد الله ما يتحمل به أو ينفقه، وكانت عندي مائة درهم، فأتيت بها أبي، فذهب بها إليه، فأصلح بها ما احتاج إليه، واكترى وخرج، ولم يمض إلى محمد بن إسحاق بن إبراهيم ولا سلم عليه. فكتب بذلك محمد، إلى أبيه، ففقدوها إسحاق عليه. وقال: يا أمير المؤمنين! إن أحمد خرج من بغداد، ولم يأت مولاك محمداً. فقال المتوكل: يرد ولو وطئ بساطي - وكان أحمد قد بلغ بصرى - فرد، فرجع وامتنع من الحديث إلا لولده ولنا، وربما قرأ علينا في منزلنا. ثم إن رافعا رفع إلى المتوكل: إن أحمد ربح علويًا في منزله، يريد أن يخرج به ويبيع عليه. قال: ولم يكن عندنا علم، فبينما نحن ذات ليلة نيام في الصيف، سمعنا الجلبة، ورأينا النيران في دار أبي عبد الله، فأسرعنا، وإذا به قاعد في إزار، ومظفر بن الكلي صاحب الخبر، وجماعة معهم، فقرأ صاحب الخبر كتاب المتوكل: ورد على أمير المؤمنين أن عندكم علويًا ربحته لتبايع له، وتظهره، في كلام طويل. ثم قال له مظفر: ما تقول؟ قال: ما أعرف من هذا شيئاً، وإني لأرى له السمع والطاعة في عسري ويسري، ومنشطى ومكرهى، وأثرة علي، وإني لأدعو الله له بالتسديد والتوفيق في الليل والنهار، في كلام كثير. فقال مظفر: قد

أمرني أمير المؤمنين أن أحلفك، قال: فأحلفه بالطلاق ثلاثاً، أن ما عنده طلبه أمير المؤمنين. ثم فتشوا منزل أبي عبد الله والسرب والغرف والسطوح، وفتشوا تابوت الكتب، وفتشوا النساء والمنازل، فلم يروا شيئاً، ولم يحسوا بشيء، ورد الله الذين كفروا بغيظهم، وكتب بذلك إلى المتوكل، فوقع منه موقعا حسنا، وعلم أن أبا عبد الله مكذوب عليه. وكان الذي دس عليه رجل من أهل البدع. ولم يمت حتى بين الله أمره للمسلمين، وهو ابن الثلجي. فلما كان بعد أيام بينا نحن جلوس بباب الدار، إذا يعقوب أحد حجاب المتوكل قد جاء، فاستأذن على أبي عبد الله، فدخل، ودخل أبي وأنا، ومع بعض غلمانه بدرية على بغل، ومعه كتاب المتوكل. فقرأه على أبي عبد الله: إنه صح عند أمير المؤمنين براءة ساحتك، وقد وجه إليك بهذا المال تستعين به. فأبى أن يقبله، وقال: ما لي إليه حاجة. فقال: يا أبا عبد الله، اقبل من أمير المؤمنين ما أمرك به، فإنه خير لك عنده، فإنك إن رددته، خفت أن يظن بك سوءا. فحينئذ قبلها. فلما خرج، قال: يا أبا علي، قلت: لبيك، قال: ارفع هذه الإنجانة وضعها، يعني: البدرية، تحتها. ففعلت وخرجنا.

فلما كان من الليل، إذا أم ولد أبي عبد الله تدق علينا الحائط، فقالت: مولاي يدعو عمه، فأعلمت أبي، وخرجنا، فدخلنا على أبي عبد الله، وذلك في جوف الليل، فقال: يا عم، ما أخذني النوم،

قال: ولم؟. قال: لهذا المال، وجعل يتوجع لأخذه، وأبي يسكنه ويسهل عليه. وقال: حتى تصبح وترى فيه رأيك. فإن هذا ليل، والناس في المنازل، فأمسك وخرجنا.

فلما كان من السحر، وجه إلى عبدوس بن مالك، وإلى الحسن بن البزار فحضرا وحضر جماعة، منهم: هارون الحمال، وأحمد بن منيع، وابن الدورقي، وأبي، وأنا، وصالح، وعبد الله. وجعلنا نكتب من يذكرونه من أهل الستر والصلاح ببغداد والكوفة. فوجه منها إلى أبي كريب، وللأشج وإلى من يعلمون حاجته. ففرقها كلها ما بين الخمسين إلى المائة وإلى المائتين، فما بقي في الكيس درهم.¹⁸⁰ X

دخل المال البيت، ثم استدعى أحمد من يعرفون أهل الحاجة، فكتبت الأسماء، ومضى يفرق المال حتى لم يبق منه شيء. قبله ثم تولى توزيعه؛ وبين دخول الكيس وخروجه أسماء بيوت وأناس وصل إليهم العطاء.

ويذكر صالح أنهم كانوا هم أنفسهم في حال يعلمها الله.¹⁸¹ يزداد المشهد صعوبة بهذه الجملة. لو كانت خزانة البيت وافرة لكان توزيع المال سهل الفهم. أما أن يراه الأولاد يخرج وهم محتاجون، فذلك

١٨٠ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 266/11-268.

١٨١ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 273/11.

يدخل موقف أبيهم في حياة كل واحد منهم. سيحتاج فهم ورعه إلى أن نسمعهم أيضاً.

شيخ لا يريد السفر

عندما تكرر أمر الخروج، اعتذر بأنه شيخ ضعيف عليل. ثم جاء الإصرار، وبات الأجناد على الباب أياماً حتى تهيأ. خرج معه من أهله من يعينه. كان قد خرج من بغداد من قبل طالب علم، وخرج منها مقيداً، ويخرج الآن مطلوب القرب من الخليفة. تختلف الوجوه، ويبقى الرجل يحاول حفظ المسافة التي يحتاج إليها دينه.

وفي الطريق عرض عليه أن يتكلم في عدوه؛ لقد أمكنه الله منه، والخليفة يقبل قوله. فلم يجب. لا يحتاج صاحب الجراح إلى من يذكره باسم ابن أبي دواد، لكنه لم يجعل تحسن موقعه فرصة ليطلق كلمة يعلم أنها ستبلغ صاحب السلطان.¹⁸²

هذه وقفة لا تقل صعوبة عن رفض المال. فالانتقام يمكن أن يجيء مرتدياً ثياب النصر، وأن يقال لصاحبه إنه إنما يستعمل فرصة لإحقاق الحق. وكان أحمد يعرف ما يصنعه الكلام حين

يصل إلى قصر. لقد عاش، بجسده، نتيجة ما قاله رجال آخرون
عنه هناك.

الفصل السابع والعشرون: مائدة القصر وباب العودة

دخل سامراء في سنة سبع وثلاثين ومائتين، على ما يؤرخه صالح. أنزلوه في دار، فلما عرف صاحبها طلب أن يستأجروا له غيرها. وأرسلت إليه الموائد بألوان الطعام والفاكهة والثلج، فلم يذق منها.¹⁸³ X

جاءته الموائد، وجاء معها قرب من دار الخلافة وإلحاح في العطاء. كانت السياسة قد تغيرت إلى نصره أهل الحديث، وبقي أحمد يتحرى ما يقبله وما يرده. أمام الطعام الذي لم يذقه تظهر مشقة أخرى غير مشقة السوط.

يحكي حنبل ما جرى في سامراء، من مرضه، وحوار عمه معه، إلى دخوله على المعتز ثم رجوعه:

وكانت تأتينا في كل يوم مائدة فيها ألوان يأمر بها المتوكل والثلج والفاكهة وغير ذلك، فما ذاق منها أبو عبد الله شيئا، ولا نظر إليها. وكان نفقة المائدة في اليوم مائة وعشرين درهما. وكان يحيى بن خاقان، وابنه عبيد الله، وعلي بن الجهم يختلفون إلى أبي عبد الله برسالة المتوكل. ودامت العلة بأبي عبد الله، وضعف شديدا. وكان يواصل، ومكث ثمانية أيام لا يأكل ولا يشرب، ففي الثامن

دخلت عليه، وقد كاد أن يطفأ، فقلت: يا أبا عبد الله، ابن الزبير كان يواصل سبعة، وهذا لك اليوم ثمانية أيام. قال: إني مطيق. قلت: بحقي عليك. قال: فإني أفعل. فأتيته بسويق فشرب. ووجه إليه المتوكل بمال عظيم، فردّه، فقال له عبيد الله بن يحيى: فإن أمير المؤمنين يأمرُك أن تدفعها إلى ولدك وأهلك. قال: هم مستغنون، فردّها عليه، فأخذها عبيد الله، فقسمها على ولده، ثم أجرى المتوكل على أهله وولده في كل شهر أربعة آلاف. فبعث إليه أبو عبد الله: إنهم في كفاية، وليست بهم حاجة. فبعث إليه المتوكل: إنما هذا لولدك، فما لك ولهذا؟ فأمسك أبو عبد الله، فلم يزل يجري علينا حتى مات المتوكل. وجرى بين أبي عبد الله وبين أبي كلام كثير. وقال: يا عم، ما بقي من أعمارنا. كأنك بالأمر قد نزل. فالله الله، فإن أولادنا إنما يريدون أن يأكلوا بنا، وإنما هي أيام قلائل، له وإنما هذه فتنة. قال أبي: فقلت: أرجو أن يؤمنك الله مما تحذر. فقال: كيف وأنتم لا تتركون طعامهم ولا جوائزهم؟ لو تركتموها، لتركوكم. ماذا ننتظر؟ إنما هو الموت. فإما إلى جنة، وإما إلى نار. فطوبى لمن قدم على خير. قال: فقلت: أليس قد أمرت ما جاءك من هذا المال من غير إشراف نفس، ولا مسألة أن تأخذ؟ قال: قد أخذت مرة بلا إشراف نفس، فالثانية والثالثة؟ ألم تستشرف نفسك؟ قلت: أفلم يأخذ ابن عمر وابن

عباس؟ فقال: ما هذا وذاك! وقال: لو أعلم أن هذا المال يؤخذ من وجهه، ولا يكون فيه ظلم ولا حيف لم أبال.

قال حنبل: ولما طالت علة أبي عبد الله، كان المتوكل يبعث بآبن ماسويه المتطبب، فيصف له الأدوية، فلا يتعالج. ويدخل ابن ماسويه، فقال: يا أمير المؤمنين ليست بأحمد علة، إنما هو من قلة الطعام والصيام والعبادة، فسكت المتوكل. وبلغ أم المتوكل خبر أبي عبد الله، فقالت لابنها: أشتي أن أرى هذا الرجل، فوجه المتوكل إلى أبي عبد الله، يسأله أن يدخل على ابنه المعتز، ويدعو له ويسلم عليه، ويجعله في حجره. فامتنع، ثم أجاب رجاء أن يطلق، وينحدر إلى بغداد، فوجه إليه المتوكل خلعة، وأتوه بدابة يركبها إلى المعتز، فامتنع، وكانت عليه ميثرة نمور. فقدم إليه بغل لتاجر، فركبه، وجلس المتوكل مع أمه في مجلس من المكان، وعلى المجلس ستر رقيق. فدخل أبو عبد الله على المعتز، ونظر إليه المتوكل وأمه. فلها رأته، قالت: يا بني، الله الله في هذا الرجل، فليس هذا ممن يريد ما عندكم، ولا المصلحة أن تحبسه عن منزله، فائذن له ليذهب، فدخل أبو عبد الله على المعتز، فقال: السلام عليكم، وجلس، ولم يسلم عليه بالإمرة. فسمعت أبا عبد الله بعد يقول: لما دخلت عليه، وجلست، قال مؤدبه: أصلح الله الأمير، هذا هو الذي أمره أمير المؤمنين يؤدبك ويعلمك؟ فقال الصبي: إن علمني شيئاً، تعلمته! قال أبو عبد الله: فعجبت من ذكائه وجوابه

على صغره، وكان صغيراً. ودامت علة أبي عبد الله، وبلغ المتوكل ما هو فيه، وكلمه يحيى بن خاقان أيضاً، وأخبره أنه رجل لا يريد الدنيا، فأذن له في الانصراف. فجاء عبيد الله بن يحيى وقت العصر، فقال: إن أمير المؤمنين قد أذن لك، وأمر أن يفرش لك حراقة تنحدر فيها. فقال أبو عبد الله: اطلبوا لي زورقا أنحدر الساعة. فطلبوا له زورقا، فانحدر لوقته.

قال حنبل: فما علمنا بقدمه حتى قيل: إنه قد وافى، فاستقبلته بناحية القطيعة. وقد خرج من الزورق، فمشيت معه، فقال لي: تقدم لا يراك الناس فيعرفوني، فتقدمته. قال: فلما وصل ألقى نفسه على قفاه من التعب والعياء. وكان ربما استعار الشيء من منزلنا ومنزل ولده، فلما صار إلينا من مال السلطان ما صار، امتنع من ذلك حتى لقد وصف له في علته قرعة تشوى، فشويت في تنور صالح، فعلم، فلم يستعملها. ومثل هذا كثير.^{X¹⁸⁴}

في هذه الرواية أخبار شدة انقطاعه عن الطعام وضعف بدنه، وتقدير الطبيب لسبب ذلك. ننقلها بوصفها وصفاً تاريخياً لحاله كما رآه أصحابه، لا برنامج عبادة ولا نصيحة صحية. إن الذي يقرأها ليفهم أحمد يرى أيضاً خوف عمه عليه، وإلحاحه أن يشرب، واستجابته حين أقسم بحقه.

الصبي والشيخ

لم يغلق ورعه عينه عن ذكاء طفل. دخل على المعتز، فقال مؤدبه كلاماً في أن الإمام جاء ليعلمه، فأجاب الغلام: إن علمي شيئاً تعلمته. وعجب أحمد من حسن الجواب مع صغر السن. يحفظ لنا هذا التعليق قدرة على ملاحظة الإنسان داخل البلاط الذي يضيق به. لم يمنعه نفوره من القرب السلطاني أن يرى في طفل جواباً حسناً.

وطلبت أم المتوكل من ابنها أن يأذن لأحمد بالعودة؛ رأت أنه لا يريد ما عندهم. في الخبر نساء يشاركن في تغير المصير، كما بدأت السيرة بأمر تمسك ثوب ابنها قبل الفجر. لا تتشابه المقامات، لكن حضورهن يمنعنا من اختزال التاريخ في أسماء الرجال الذين تولوا المنصب وحدهم.

الزورق الذي اختاره

جاء الإذن بالانصراف، ومعه عرض مركب يفرش له. طلب زورقاً يخدر فيه من ساعته. وعند بغداد لقيه حنبل، فطلب منه أن يتقدم كي لا يعرفه الناس فيتبعوه. وصل، وألقى نفسه من التعب والعياء.

كانت العودة نعمة محددة: أن يرجع إلى بيته، وأن ينقطع ما استطاع عن الموائد والرسائل التي تثقل عليه. لكن ما حاول الابتعاد عنه لحق بأهله. أجري عليهم المال، وأصبح للورع داخل البيت فصل أشد تعقيداً من رفض الشيخ أن يمد يده إلى مائدة الخليفة.

الفصل الثامن والعشرون: الوزير في المطر

وحكى صالح مشهداً من تلك السنين. قال: «وقدم المتوكل فنزل الشماسية يريد المدائن. فقال لي أبي: يا صالح، أحب أن لا تذهب اليوم ولا تنبه علي. فلما كان بعد يوم، وأنا قاعد خارجاً، وكان يوماً مطيراً، إذا يحيى بن خاقان قد جاء والمطر عليه في موكب عظيم، فقال: سبحان الله، لم تصل إلينا حتى نبليغ أمير المؤمنين السلام على شيخك حتى وجه بي. ثم نزل خارج الزقاق، فجهدت به أن يدخل على الدابة فلم يفعل، فجعل يخوض في المطر. فلما صار إلى الباب نزع جرموقه، وكان على خفه، ودخل. وأبي في الزاوية قاعد عليه كساء مربع وعمامة، والستر الذي على الباب قطعة خيش. فسلم عليه وقبل جبهته وسأله عن حاله، وقال: أمير المؤمنين يقرئك السلام ويقول: كيف أنت في نفسك، وكيف حالك، وقد أنست بقربك، ويسألك أن تدعو له. فقال: ما يأتي علي يوم إلا وأنا أدعو الله له». X¹⁸⁵

١٨٥ - صالح بن أحمد، سيرة الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق فؤاد عبد المنعم أحمد، دار السلف، ط 3، 1415 هـ/1995 م، ص 118. قول لفظ صالح على صورة الطبعة، وهو يروي مشهداً حضره.

ثم قال الوزير: «قد وجه معي ألف دينار تفرقها على أهل الحاجة. فقال له: يا أبا زكريا، أنا في البيت منقطع عن الناس، وقد أعفاني من كل ما أكرهه. فقال: يا أبا عبد الله، الخلفاء لا يحتملون هذا. فقال: يا أبا زكريا، تلتطف في ذلك. فدعا له ثم قام. فلما صار إلى الدار رجع وقال: أهكذا كنت لو وجه إليك بعض إخوانك تفعل؟ قال: نعم».¹⁸⁶

في رواية صالح يأتي الوزير إلى دار أحمد في المطر، ثم يعرض عليه مالا ليفرقه، فيمتنع أحمد ويعتذر بانقطاعه في البيت. وبعد ذلك يعرض الوزير الألف دينار على صالح لتكون عنده، فيخبر صالح أباه بما جرى. تختلف اليد التي يعرض عليها المال والعبارة التي تقال في كل موضع؛ فلا يدمج عرض الوزير على أحمد في عرضه على صالح.¹⁸⁷

وطلب ابن طاهر، أمير بغداد، أن يزوره في داره، فأرسل إليه أحمد: «أنا رجل لم أخالط السلطان، وقد أعفاني أمير المؤمنين مما أكره، وهذا مما أكره». فجهد أن يصير إليه فأبى.¹⁸⁸

١٨٦، ١٨٧ - صالح بن أحمد، سيرة الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق فؤاد عبد المنعم أحمد، دار السلف، ط3، 1415هـ/1995م، ص118-119. ينتهي جواب أحمد عند «نعم»، ثم يأتي عرض الوزير الألف دينار على صالح في الدهليز؛ فلا يدمج العرضان.

الفصل التاسع والعشرون: ورع الأب وحاجة الأولاد

طلب الأب من صالح أن يترك رزق السلطان. أمامه ابن كثير العيال، يكره أن يعد ثم يخالف، ويبين حاجته. حفظ صالح كلامه وغضب أبيه، فدخلت إلى السيرة أصوات البيت عند هذا الاختلاف.

وهذه روايته كما أوردتها الذهبي:

فقدم علينا، ثم قال: يا صالح، قلت: لبيك. قال: أحب أن تدع هذا الرزق، فإنما تأخذونه بسببي فسكت، فقال: ما لك؟ قلت: أكره أن أعطيك بلساني، وأخالف إلى غيره، وليس في القوم أكثر عيالا مني، ولا أعذر. وقد كنت أشكو إليك، وتقول: أمرك منعقد بأمري. ولعل الله أن يحل عني هذه العقدة، وقد كنت تدعولي، فأرجو أن يكون الله قد استجاب لك. فقال: والله لا تفعل. فقلت: لا. فقال: لم؟ فعل الله بك وفعل!! وذكر قصة في دخول عبد الله أخيه عليه، وقوله وجوابه له، ثم دخول عمه عليه، وإنكاره للأخذ، قال: فهجرنا أبي، وسد الأبواب بيننا وبينه، وتحامى

١٨٨ - صالح بن أحمد، سيرة الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق فؤاد عبد المنعم أحمد، دار السلف، ط 3، 1415 هـ/1995 م، ص 120. رواية صالح في طلب محمد بن عبد الله بن طاهر استزارته.

منازلنا، ثم أخبر بأخذ عمه، فقال: نافقتني وكذبتني!! ثم هجره، وترك الصلاة في المسجد، وخرج إلى مسجد آخر يصلي فيه. ثم ذكر قصة في دعائه صالحا ومعاتبته له، ثم في كتابته إلى يحيى بن خاقان ليترك معونة أولاده، وأن الخبر بلغ المتوكل، فأمر بحمل ما اجتمع لهم من عشرة أشهر إليهم، فكان أربعين ألف درهم. وأن أبا عبد الله أخبر بذلك، فسكت قليلا وأطرق. ثم قال: ما حيلتي إن أردت أمرا، وأراد الله أمرا؟!^{X 189}

سد الأبواب بينه وبينهم، وتحامى منازلهم، واشتد على عمه حين علم بأخذه. لهذه الشدة أثر داخل الأسرة، لا يصح أن نمر عليه كأنه عبارة عابرة في فضيلة الزهد. كان أحمد يرى أن المال وصل إليهم باسمه، وأنه قد يربطهم بالسلطان ويعيد ذكره إلى الدائرة التي يريد الخروج منها. وكان أولاده يرون نفقة البيوت وكثرة العيال. وإذا قرأنا الطرفين عرفنا مقدار ما يصنعه اختلاف التقدير بين أناس يجمعهم الحب والقرابة.

١٨٩ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 278/11-279. قبول النقل على الصورة؛ يتضمن اختصار الذهبي لرواية صالح بعبارة «وذكر قصة»، فلا تعد جميع جملة كلاماً مباشراً لصالح.

سؤال عبد الله

وفي عيادة أخرى، كان عبد الله هو المريض وأبوه الزائر. سأل أباه عن مال بقي عندهم مما برهم به المتوكل، أيجب منه؟ فقال: نعم. سأله إذن: لم لا تأخذ أنت؟ فأجاب:

«ليس هو عندي حرام، ولكن تنزهت عنه». ¹⁹⁰X

هذه الجملة تحفظ حدًا مهمًا في قراءة سيرته. لا نختصر موقفه كله في حكم واحد على كل مال يأتي من خليفة. لقد نظر في مصدر المال، وفي صلته الشخصية بمن يعطيه، وفي ما قد يحدثه القبول في نفسه وفي أمره. وفرق هنا بين ما أجازه لابنه وبين ما آثر لنفسه أن يتنزه عنه.

ومن شأن القارئ المعاصر أن يتعلم هذا الفرق قبل أن يقلد صورة الفعل. يستطيع المرء أن يختار لنفسه احتياطًا، ثم لا يجعل كل من لم يختره متهمًا. أما ما ترتب على موقف أحمد داخل بيته من هجر وعتاب، فيبقى جزءًا من خبر الأسرة نفهمه في ظرفه، ولا نستخرج منه إذنًا عامًا بالتضييق على أهلنا باسم الورع.

صوت من وراء الباب

روى ابن جبلة أنه كان عند الباب، والباب مجاف، فسمع أم ولده تقول إنها معه في ضيق، وأهل صالح يأكلون ويفعلون. وكان يجيبها: قولي خيراً. وخرج صبي يبكي، فسأله ما يريد، فقال: زبيب. فأرسله يأخذه من البقال بحبة. ¹⁹¹X

في هذا الخبر تقف الحياة اليومية كلها على العتبة: مقارنة بين يتين، وضيق امرأة، وطلب طفل. ليس الطفل مشغولاً بجائزة الخليفة ولا بما قد تجره من تبعات؛ يريد زيباً. وأبوه يسمع الطلب ويأذن به. ما بين هذا الإذن الصغير وبين رد الأموال الكبيرة تظهر طبيعة عيشه: لا يحب أن يملك الكثير، ولا يمنعه ذلك أن يرى رغبة ولد في شيء يسير.

وقبل ذلك كانت أم صالح تغزل في الغلاء، وتبيع غزلها فيكون منه قوتهم. قالها أحمد لابنه وهو يذكر أمه. ¹⁹² في السيرة إذن امرأتان لا ينبغي أن تختلطا: أمه التي وليته يتيماً وربته، وزوجته أم صالح التي شاركته ضيق العيش والعمل لقوت البيت. الإيمان

١٩١ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/325.

١٩٢ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/324.

الذي نراه في حياة رجل له حوله أيد عملت، وقلوب صبرت،
وأناس دفعوا بعض ثمن اختياراته.

وحين انتهى إلى أن المال جرى على أهله رغم سعيه لقطعه، أطرق
وقال: «ما حيلتي إن أردت أمراً، وأراد الله أمراً؟». ¹⁹³ نسمع في
آخر الخبر حدود قدرته. ليس الإمام قادراً على حمل كل من
حوله على اختياره، ولا على إيقاف كل ما يريده السلطان. ينتهي
تدبيره عند موضع، ثم لا يملك إلا التسليم لله فيما خرج عن يده.

الفصل الثلاثون: جواب لم يكتبه السوط

عاد السؤال عن القرآن من دار الخلافة إلى بيت أحمد.

بلغ السؤال هذه المرة مع كتاب يبين أنه للمعرفة والتبصرة، وليس امتحاناً. تبدلت جهة الرسالة، وصار الخليفة يسأل أحمد عن القول الذي عوقب من أجله. سيكتب الشيخ جوابه، ويبقى ما مر من الإكراه ظاهراً في حرصه على فهم ما يطلب منه.

أملى أحمد جوابه على عبد الله. بين الأب والابن مجلس كتابة، وبينهما وبين القصر تاريخ لا يختصر في أن الخليفة الجديد أحسن إليهما. يعرف أحمد موضع ما رفعه المتوكل عن الناس، فيدعوله ويذكر أثر انجلاء المحنة. ثم لا يحول الرسالة إلى قصة جراحه، بل إلى كلام في القرآن والخصومات والرجوع إلى ما جاء عن السلف.

هذه الرسالة جديرة بأن تقرأ في مقابل رسائل المأمون التي تقدمت. هناك خطاب يقرر ما يريده الحاكم، ويمتحن الناس به، ويصف الممتنعين بما يسقط عدالتهم. وهنا جواب عالم يبين مذهبه ويذكر ما يخشاه من المراء. لا تتشابه منزلتا الرسالتين ولا أغراضهما، لكن اجتماعهما في السيرة يجعل القارئ يسمع طرفي التحول التاريخي بألفاظ أصحابه.

نوردها كما ساقها الذهبي، إلى تمام جواب أحمد:

حدثنا عبد الله بن أحمد قال: كتب عبيد الله بن يحيى بن خاقان إلى أبي يخبره أن أمير المؤمنين أمرني أن أكتب إليك أسألك عن القرآن، لا مسألة امتحان، لكن مسألة معرفة وتبصرة. فأملى على أبي: إلى عبيد الله بن يحيى، بسم الله الرحمن الرحيم، أحسن الله عاقبتك أبا الحسن في الأمور كلها، ودفع عنك المكاره برحمته، قد كتبت إليك، رضي الله عنك، بالذي سألت عنه أمير المؤمنين بأمر القرآن بما حضرني، وأني أسأل الله أن يديم توفيق أمير المؤمنين، فقد كان الناس في خوض من الباطل، واختلاف شديد ينغمسون فيه، حتى أفضت الخلافة إلى أمير المؤمنين، فنفى الله به كل بدعة، وانجلى عن الناس ما كانوا فيه من الذل وضيق المحابس فصرف الله ذلك كله، وذهب به بأمر المؤمنين، ووقع ذلك من المسلمين موقعا عظيما، ودعوا الله لأمر المؤمنين [وأسأل الله أن يستجيب في أمير المؤمنين صالح الدعاء، وأن يتم ذلك لأمر المؤمنين] وأن يزيد في نيته، وأن يعينه على ما هو عليه. فقد ذكر عن ابن عباس أنه قال: لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض، فإنه يوقع الشك في قلوبكم.¹⁹⁴ وذكر عن عبد الله بن عمرو، أن نفرا

١٩٤ - أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف، كتاب فضائل القرآن، من طريق حفص عن ليث عن عطاء عن ابن عباس، بلفظ مقارب؛ رقم 29579 في ترقيم العرض الإلكتروني المستعمل. وفي هذا الطريق ليث بن أبي سليم؛ نقل الذهبي في ترجمته من

كانوا جلوسا بباب النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال بعضهم: ألم يقل [الله] كذا، وقال بعضهم: ألم يقل الله كذا؟^X

فسمع ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فخرج كأنما فقيء في وجهه حب الرمان، فقال: أبهذا أمرتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض؟ إنما ضلت الأمم قبلكم في مثل هذا [إنكم لستم مما هاهنا في شيء] انظروا الذي أمرتم به، فاعملوا به، وانظروا الذي نهيتهم عنه، فانتهوا عنه.¹⁹⁵ وروي عن أبي هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: مرأ في القرآن كفر.¹⁹⁶ وروي عن أبي جهيم عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: لا تماروا في القرآن؛ فإن مرأ فيه كفر.¹⁹⁷ وقال ابن عباس: قدم رجل على عمر، فجعل عمر يسأله عن الناس، فقال: يا أمير المؤمنين، قد قرأ القرآن منهم كذا وكذا.

السير تضعيفه واضطراب حديثه، فلا يصح هذا الطريق. وهذا حكم على الطريق المعين، لا دعوى استيعاب طرق الأثر؛ وهو موقوف، غير الحديث المرفوع الآتي بعده.

١٩٥ - أصل التهي في صحيح مسلم، رقم 2666، من حديث عبد الله بن عمرو. واللفظ المطول في مسند أحمد، طبعة الرسالة، 11/434، رقم 6845، بخوه؛ وحكم محققو السير 11/282 على إسناده بالحسن. فلا ينسب كل لفظ الرسالة إلى صحيح مسلم، ولا يصح طريق مجرد مشابهته له.

١٩٦ - أبو داود، السنن، رقم 4603؛ قال الألباني: حسن صحيح.

فقال ابن عباس: فقلت: والله ما أحب أن يتسارعوا يومهم في القرآن هذه المسارعة. فزبرني عمر، وقال: مه. فانطلقت إلى منزلي كئيباً حزينا، فبينما أنا كذلك، إذ أتاني رجل، فقال: أجب أمير المؤمنين. فخرجت، فإذا هو بالباب ينتظرني، فأخذ بيدي، فخلا بي، وقال: ما الذي كرهت؟ قلت: يا أمير المؤمنين، متى يتسارعوا هذه المسارعة، يحتقوا، ومتى ما يحتقوا يختصموا، ومتى ما يختصموا يختلفوا، ومتى ما يختلفوا يقتتلوا. قال: لله أبوك، والله إن كنت لأكتمها الناس، حتى جئت بها.¹⁹⁸ وروي عن جابر، قال: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يعرض نفسه على الناس بالموقف، فيقول: هل من رجل يحملني إلى قومه؛ فإن قريشا قد منعوني أن

١٩٧ - مسند أحمد، طبعة الرسالة، رقم 17577، من حديث أبي جهيم؛ وفيه ذكر الأحرف السبعة ثم انهي عن المراء. صحح إسناده محققو السير 11/283؛ وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم 4444. نص الرسالة يقتصر على موضع الاستشهاد.

١٩٨ - أخرجه عبد الرزاق، المصنف، 216/11-218، رقم 20368، من طريق معمر عن علي بن بذيمة عن يزيد بن الأصم عن ابن عباس. قُرى النص المسند وقوبل بلفظ الرسالة: في العرض الإلكتروني للمصنف «يخيفوا»، وفي الرسالة «يحتقوا»، كما اختصرت الرسالة بعض تفصيل عودته إلى بيته. لا يستبدل أحد اللفظين بالآخر داخل الاقتباس دون مقابلة صورة الطبعة. بقي الحكم النقدي الشامل على الطريق وتحرير هذا الاختلاف مفتوحين؛ فالإحالة إلى أصل مسند ليست تصحيحاً مستقلاً.

أبلغ كلام ربي.¹⁹⁹ وروي عن جبير بن نفير، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم: -إنكم لن ترجعوا إلى الله بشيء أفضل مما خرج منه، يعني: القرآن.²⁰⁰ وروي عن ابن مسعود قال: جردوا القرآن، لا تكتبوا فيه شيئاً إلا كلام الله.²⁰¹ وروي عن عمر أنه قال: هذا القرآن كلام الله، فضعوه مواضعه.²⁰² وقال رجل

١٩٩ - حديث جابر أخرجه أبو داود، رقم 4734، وهو مصدر اللفظ المنقول. وأخرجه الترمذي، رقم 2925، وقال: غريب صحيح.

٢٠٠ - خبر جبير بن نفير مرسل؛ أخرجه الترمذي، رقم 2912، وضعفه الألباني. يذكر هنا ضمن نص الرسالة التاريخية، ولا يحتاج به استقلالاً.

٢٠١ - أصله موقوف عن ابن مسعود. أخرجه ابن أبي شيبة، المصنف، كتاب فضائل القرآن، رقم 29660 في العرض الإلكتروني بموقع السنة، من طريق وكيع عن سفيان عن سلمة بن كهيل عن أبي الزعراء عنه، بلفظ «جردوا القرآن، ولا تلبسوا به ما ليس منه»، وأتبعه بطرق أخرى مختصرة. فهذا أصل مسند قريب المعنى، لا مطابقة لفظية لعبارة الرسالة «لا تكتبوا». لم يثبت هنا حكم نقدي مستقل شامل لطرقه؛ فلا ينسب إلى المحرر تصحيح الزيادة بعينها، ولا يستخرج من النص منع مطلق لكل علامات الضبط أو وسائل التعليم.

٢٠٢ - أخرجه الخلال، السنة، رقم 1956 في ترقيم النص الإلكتروني، من طريق المروزي عن أبي المنذر عن جرير عن ليث عن سلمة بن كهيل عن أبي الزعراء عن عمر،

للحسن: يا أبا سعيد، إني إذا قرأت كتاب الله، وتدبرته، كدت أن آيس وينقطع رجائي، فقال: إن القرآن كلام الله، وأعمال ابن آدم إلى الضعف والتقصير، فاعمل وأبشر.²⁰³ وقال فروة بن نوفل الأشجعي: كنت جارا لخباب، فخرجت يوما معه إلى المسجد، وهو آخذ بيدي، فقال: "يا هناه، تقرب إلى الله بما استطعت، فإنك لن تقترب إليه بشيء أحب إليه من كلامه". وقال رجل للحكم: ما حمل أهل الأهواء على هذا؟ قال: الخصومات.²⁰⁴ وقال معاوية بن

بلفظ قريب. وأخرج الدارمي أصل القول من طريق جرير عن ليث، كتاب فضائل القرآن، باب القرآن كلام الله، رقم 3355 في العرض الإلكتروني؛ وحكم حسين سليم أسد بضعف إسناده لضعف ليث بن أبي سليم. حكم الضعف هنا للطريق المعين، ولا يتغير بمجرد وروده في الرسالة الصحيحة النسبة إلى أحمد.

٢٠٣ — أخرجه الخلال، السنة، رقما 1962 و1963 في ترقيم النص الإلكتروني، من طريقين يلتقيان عند صالح المري عن الحسن، مع اختلاف اللفظ. وصالح المري ضعفه أئمة؛ انظر الذهبي، السير، 47/8-48، حيث نقل إنكار البخاري لحديثه وتضعيف ابن معين له. فالطريقان المذكوران لا يستقل أحدهما بتقوية الآخر مع اتحادهما عند موضع العلة. يبقى اللفظ جزءاً من وثيقة الرسالة، ولا يصحح هذا الكتاب نسبته إلى الحسن اعتماداً على هذين الطريقين.

٢٠٤ — أخرجه اللالكائي، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، رقم 218، من طريق الأشجعي عن سفيان عن عمرو بن قيس، قال: قلت للحكم بن عتيبة؛ وأخرجه الخلال

قرة: إياكم وهذه الخصومات; فإنها تحبط الأعمال.²⁰⁵ وقال أبو قلابة: لا تجالسوا أهل الأهواء، أو قال: أصحاب الخصومات. فإني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم، ويلبسوا عليكم بعض ما تعرفون.²⁰⁶ ودخل رجلان من أصحاب الأهواء على محمد بن

في السنة، رقم 1965، من طريق معاوية بن هشام عن سفيان به، ولفظه «ما اضطر الناس إلى هذا؟». يثبت بذلك موضع الخبر وطريقه المسند واختلاف لفظه؛ وهو قول تابعي، لا حديث مرفوع. لم تستكمل هنا دراسة جميع رجال الطريقين، فلا يضاف إليهما حكم صحة جازم.

٢٠٥ - أخرجه اللالكائي، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، رقم 221، من طريق يزيد بن هارون عن العوام بن حوشب، قال: سمعت معاوية بن قرة يقول ذلك. وأحاله أسعد الزعتري في الآثار الواردة عن السلف في العقيدة من خلال كتب المسائل، ص 269، إلى الشريعة للآجري رقم 115، ناقلًا تصحيح محققه لإسناده. قرئ طريق اللالكائي مباشرة، وأما حكم طريق الآجري فنقول بواسطة الزعتري، لا عن مقابلة صورة طبعة الشريعة. الأثر مقطوع من كلام معاوية، ولا يحمل على أن كل نقاش يبطل جميع أعمال صاحبه.

٢٠٦ - أخرجه الدارمي في مسنده المعروف بسنن الدارمي، تحقيق حسين سليم أسد الداراني، دار المغني، ط 1421، 1/2000م، 1/387، رقم 405، من طريق سليمان بن حرب عن حماد بن زيد عن أيوب عن أبي قلابة. قال المحقق: «إسناده صحيح». ولفظه: «لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم»؛ وفي آخره «أو يلبسوا عليكم ما كنتم تعرفون».

سيرين، فقالا: يا أبا بكر، نحدثك بحديث؟ قال: لا. قالوا: فنقرأ عليك آية؟ قال: لا. لتقومان عني، أو لأقومنه، فقاما. [فقال بعض القوم: يا أبا بكر، وما عليك أن يقرأ عليك آية؟ قال...] وقال: خشيت أن يقرأ آية فيحرفانها، فيقر ذلك في قلبي.²⁰⁷ وقال رجل من أهل البدع لأيوب: يا أبا بكر أسألك عن كلمة؟ فولى، وهو يقول بيده: لا، ولا نصف كلمة.²⁰⁸ وقال ابن طاوس لابن له يكلمه رجل من أهل البدع: يا بني أدخل أصبعيك في أذنك حتى لا تسمع ما يقول. ثم قال: اشدّد اشدّد.²⁰⁹ وقال عمر بن عبد

فالتصحيح للطريق المسند هناك، ولا يلزم منه تصحيح كل اختلاف لفظي في الرسالة.

٢٠٧ — أخرجه الدارمي، 1/389-390، رقم 411، من طريق سعيد بن عامر عن أسماء بن عبيد، في خبر الرجلين مع محمد بن سيرين، بنحو القصة مع تفصيل زائد في جواب ابن سيرين. قال حسين سليم أسد: «إسناده صحيح». وهذا خبر عن ابن سيرين، وليس حديثاً مرفوعاً؛ وتصحيح الطريق لا يساوي دعوى تطابق لفظ الرسالة معه حرفياً.

٢٠٨ — أخرجه الدارمي، 1/390، رقم 412، عن سعيد بن عامر عن سلام بن أبي مطيع، في خبر الرجل مع أيوب، بلفظ مقارب، وقال حسين سليم أسد: «إسناده صحيح». فيه وصف إشارة أيوب بأصبعه؛ وأبقي هنا لفظ الرسالة في وصف إشارته بيده.

٢٠٩ — أخرجه عبد الرزاق، المصنف، 11/125، رقم 20099، عن معمر، قال: كنت عند ابن طاوس؛ فساق القصة مع ذكر حضور الابن وكلام الرجل في القدر.

العزیز: من جعل دینه غرضاً للخصومات، أكثر التثقل.²¹⁰ وقال
إبراهيم النخعي: إن القوم لم يدخر عنهم شيء خبيء لكم لفضل
عندكم.²¹¹ وكان الحسن يقول: شر داء خالط قلباً، يعني:

وأخرجه اللالكائي، شرح أصول الاعتقاد، رقم 248، من طريق عبد الرزاق به؛ فهما
ليسا طريقين مستقلين دون عبد الرزاق. صحح أسعد الزعتري هذا الإسناد في الآثار
الواردة عن السلف، ص 271. هو خبر مقطوع يصف موقفاً، لا حديث مرفوع ولا منع
عام من السؤال للتعلم؛ ويظل لفظ الرسالة متميزاً من تفصيل المصنف.

٢١٠ - أخرجه الدارمي، 1/342، رقم 312، من طريق يحيى بن حسان عن عبد الله
بن إدريس عن إسماعيل بن أبي حكيم، قال: سمعت عمر بن عبد العزيز يقول ذلك. قال
حسين سليم أسد: «إسناده صحيح». ولا يخلط هذا بالطريق التالي رقم 313، الذي نبه
المحقق إلى انقطاعه.

٢١١ - أخرجه ابن بطة في الإبانة الكبرى، رقم 1245 في عرض مكتبة إسلام
ويب، من طريق عبد الله عن أبيه أحمد عن إسماعيل عن ابن عون عن إبراهيم. وأخرجه
ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله من طريق حماد بن زيد عن عبد الله بن عون عن
إبراهيم، في باب ما يكره فيه المناظرة والجدال والمراء؛ وأحال أسعد الزعتري في الآثار
الواردة عن السلف، ص 271، إلى 2/134 ناقلاً تصحيح محقق الجامع لإسناده. قُرى
الأصل المسند، ونقل الحكم بواسطة الزعتري؛ لا يدعى أن رقم الصفحة موحد بين جميع
الطباعات. الأثر مقطوع على إبراهيم، لا حديث نبوي.

الأهواء.²¹² وقال حذيفة: اتقوا الله، وخذوا طريق من كان قبلكم، والله لئن استقمتم، لقد سبقتم سبقا بعيدا، ولئن تركتموه يمينا وشمالا، لقد ضللتكم ضلالا بعيدا، أو قال: مينا. قال أبي: وإنما تركت الأسانيد لما تقدم من اليمين التي حلفت بها مما قد علمه أمير المؤمنين، ولولا ذاك، ذكرتُها بأسانيدها. وقد قال الله تعالى: وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله وقال ألا له الخلق والأمر فأخبر أن الأمر غير الخلق. وقال: الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان فأخبر أن القرآن من علمه. وقال تعالى: ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير وقال ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك إلى قوله: ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين فالقرآن من علم الله. وفي الآيات دليل على أن الذي جاءه هو القرآن. وقد روي عن

٢١٢ — حفظ هذا اللفظ ضمن رسالة أحمد في السير 11/285-286، ونحوه في رواية الرسالة بحلية الأولياء، ترجمة الإمام أحمد. لم يثبت في المصادر التي قبلت في هذه الجولة طريق مستقل كاف للحكم على نسبته إلى الحسن. أُبقي بصفته جزءاً من الوثيقة المنقولة، دون الاحتجاج به مستقلاً أو وصفه بالصحيح؛ وهذا حد الاستعمال، لا حكم بأن الحسن لم يقله.

السلف أنهم كانوا يقولون: القرآن كلام الله غير مخلوق، وهو الذي أذهب إليه، لست بصاحب كلام، ولا أرى الكلام في شيء من هذا إلا ما كان في كتاب الله، أو في حديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أو عن أصحابه، أو عن التابعين. فأما غير ذلك، فإن الكلام فيه غير محمود.^{X²¹³}

لماذا لم يذكر الأسانيد؟

يفسر أحمد في آخر الرسالة أنه ترك الأسانيد ليمين سبق أن حلفها، وقد علمها أمير المؤمنين. وهذه الإشارة تصل الكتاب بظروف حياته بعد المحنة وبالحد الذي وضعه لنفسه في التحديث. لم تكن

٢١٣ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/281-286. قوبلت الرسالة في الجولة السابقة على الصور. قال الذهبي في إسنادها: «كالشمس»؛ وهذا في طريق نسبتها إلى أحمد، لا تصحيح لكل خبر علقه داخلها. فصلت الحواشي المرفوع والموقوف والمقطوع، وبينت أحكام الطرق التي وجدت وحدود ما لم يستكمل؛ فلا يشمل التصحيح أثر عمر ذي الطريق الضعيف، ولا طريقي صالح المري عن الحسن. وأصل أثر حذيفة في صحيح البخاري، كتاب الاعتصام، رقم 7282، من طريق أبي نعيم عن سفيان عن الأعمش عن إبراهيم عن همام عنه، وهو صحيح موقوف بلفظ مقارب، لا شاهد على كل زيادة في الرسالة. ما بين المعقوفين من زيادات طبعة السير. الآيات: التوبة: 6؛ الأعراف: 54؛ الرحمن: 1-4؛ البقرة: 120 و145.

الرسالة مصنفًا مستقلًا أعده ليجمع فيه طرق كل أثر، بل جواباً محددًا أرسله في ظرف محدد.

لذلك تبقى صيغ «روي» و«ذكر» كما وردت فيها. صحة نسبة الرسالة غير صحة كل خبر استشهدت به؛ وقد أثنى الذهبي على إسناد الرسالة نفسها.²¹⁴ وفصلت الحواشي ما يحتاج إلى بيان من الآثار.

وفي هذا تتجلى قيمة الوثيقة: نعرف ما اختار الإمام أن يقوله حين طلب منه البيان في زمن ارتفع فيه السوط عنه، ونراه يلتزم الطريق الذي دعا إليه تحت الإكراه. تغير السائل وموقع السؤال، ولم يتحول جوابه إلى طلب انتقام ممن خالفه.

الشكر الذي لا يبيع صاحبه

في صدر الكتاب دعاء للخليفة، واعتراف بما وقع للمسلمين من الفرج. قد يبدو ذلك بعيداً عن أخبار امتناعه من المال وتضايقه من القرب. لكنه يجتمع معها بلا حاجة إلى إلغاء أحد الجانبين.

٢١٤ — الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/286-287. قال الذهبي في إسناد الرسالة: «كالشمس». كلامه هنا في طريق نسبتها إلى أحمد، وهو غير الحكم المفصل على مروياتها المعلقة.

يستطيع الرجل أن يعرف للحاكم فعلاً يراه حسناً، ثم لا يريد أن يصير من أهل بابه، ولا أن يجعل عطاءه مورداً لعياله.

فليس استقلال أحمد أن يصم أذنه عن كل إحسان يأتي من السلطة، كما أنه ليس الوفاء للإحسان أن يفتح لها كل ما كان يحرسه من مسافة. رأى رفع المحنة خيراً فذكره، ورأى القرب والمال مما يخشى على نفسه به فاحترز. ومن أراد فهمه لزمه أن يبقى الأمرين في الصورة معاً.

والعبارات الواسعة في الثناء على انكشاف البدعة تعبر عن مقام الرسالة وما يحمد فيها. لا تحول عهد المتوكل كله إلى صفحة لا خطأ فيها، ولا تغنينا عن تاريخ حكمه في جوانبه الأخرى. السيرة هنا تتبع أثر سياسته في أحمد وأصحابه، وتعرف أن لحياة الخليفة أبواباً لا تتسع لها ترجمة الإمام وحدها.

نهاية الخصومة ليست نهاية العلم

أكثر الرسالة آثار في الحذر من الخصام وخطط الآيات بعضها ببعض. وقد يقول قارئ إن صاحبها قضى مجالس طويلة يناظر، ثم حذر من الجدال. لكن بين البيان الذي يدفع به الإكراه وبين اتخاذ الدين غرضاً لخصومات لا تنتهي فرقاً عاشه بنفسه. لم يختار المجلس الذي قيد فيه، ولم يكن حريصاً على أن يعاد أمام كل وافد بعد أن خرج منه.

تجمع الرسالة بين الدعوة إلى العمل والتحذير من الخصومة. ويمكن أن نقرأ اختيار أحمد لهذه النصوص في هذا الاتجاه؛ فهذه قراءة لمضمون جوابه، لا خبر مستقل عن نيته. ويظهر معنى الرجاء في الأثر الذي ساقه عن الحسن، مع بقاء ضعف الطريق المبين في الحاشية؛ فلا يتحول جمال المعنى إلى تصحيح للنسبة.

ومع خاتمتها يعود أحمد إلى عبارة مذهبه، ثم إلى حدود الكلام الذي يختاره. لا يدعي أنه صاحب مدرسة جدل يريد أن يزيد أبوابها، بل يرد نفسه إلى كتاب الله وحديث رسوله وما جاء عن الصحابة والتابعين. كان هذا الاختيار مما كَوّن مكانه في عصره: اتساع الرواية والمعرفة، مع تحفظ على المسالك التي رأى أنها تجر أصحابها إلى حيرة وخصومة.

انتهى الجواب، وبقي فيه صوت أحمد بعد سنوات المحنة: يذكر ما يعتقده، ويشكر انجلاء البلاء، ويحذر من الخصام. لم يجعل جراحه خاتمة الرسالة؛ ختمها بالطريق الذي يريد أن يلزمه، بعد أن زال الإكراه كما لزمه وهو في القيد.

الفصل الحادي والثلاثون: المحنة في الأمصار

بلغت المحنة أمصاراً أخرى. امتحن رجال، وبقي بعضهم في الحبس حتى مات. نتسع القصة هنا لأسماء وراء بغداد، وتبقى لكل رجل أخبار موقفه وحكم أهل الحديث على روايته.

نعيم بن حماد

كان نعيم بن حماد من المحدثين الذين امتحنوا في القول بخلق القرآن؛ حمل من مصر، وحبس، ومات في الحبس. وتختلف الأخبار في تعيين بعض تواريخ هذه المرحلة وكيفية دفنه؛ لذلك لا نبني عليها تسلسلاً يومياً، ولا نجمع تفاصيلها المختلفة في مشهد واحد.^{X²¹⁵}

وفي ترجمة نعيم كلام للنقاد في حفظه وكثرة أوهامه. إثبات خبره في المحنة لا يصح بذلك جميع مروياته؛ فباب عدالة الموقف غير باب ضبط الحديث.

٢١٥ — الذهبي، سير أعلام النبلاء، ترجمة نعيم بن حماد، 612-10/595. تميز أخبار المحنة في ترجمته من كلام النقاد في حفظه.

البويطي

وكان يوسف بن يحيى البويطي من كبار أصحاب الشافعي وخلفه في مجلسه بمصر. وتحفظ ترجمته امتناعه في المحنة وحمله في الحديد وموته في الحبس سنة إحدى وثلاثين ومئتين.²¹⁶ يرد اسمه هنا ليبقى الثبات أوسع من سيرة رجل واحد. X

تذكر هذه الرواية بوصية محمد بن نوح لأحمد: أن يراعي من يقتدي به. وهي تكشف معنى المسؤولية في خبرين معينين، ولا تبيح الحكم على نيات جميع من أجاب أو امتنع.

أحمد بن نصر الخزاعي

وأحمد بن نصر الخزاعي من أصحاب الحديث ببغداد. يذكر الطبري خبر من اجتمع إليه وأراد الخروج على الواثق، ثم حمله إلى الخليفة وسأله عن القرآن والرؤية وقتله سنة إحدى وثلاثين ومئتين.²¹⁷

٢١٦ — انظر ترجمة البويطي في: الذهبي، سير أعلام النبلاء؛ وابن كثير، البداية والنهاية، حوادث سنة 231. والخبر مشهور في ترجمته، وذكر هنا بالمعنى.

٢١٧ — الطبري، تاريخ الرسل والملوك، حوادث سنة 231، في ذكر مقتل أحمد بن نصر الخزاعي.

يتصل في خبره النزاع السياسي والسؤال العقدي، ولا يحذف أحدهما من سياق الآخر. X

يتصل خبر أحمد بن نصر بمحاولة الخروج وبسؤال الواثق له عن الاعتقاد معاً. لذلك لا تعرض الرواية وكأنها خلت من أحد الجانبين، ولا ينقل ما نستنتجه من أثر الخبر في أحمد بن حنبل على أنه كلام قاله.

وأمر المتوكل بعد ذلك بإيزال جثمانه ودفنه. ويبين امتداد هذا الخبر أن آثار المحنة لم تنقض بانقضاء مجلس واحد من مجالسها.

الأسرى

وبلغ من الأمر في زمن الواثق أن المسلمين الذين وقعوا في أسر الروم لم يفد منهم إلا من قال إن القرآن مخلوق. ففي سنة 231 جرى الفداء بين المسلمين والروم على نهر اللامس، فأمر الواثق أن يمتحن الأسرى من المسلمين، «فمن قال منهم: إن القرآن مخلوق، وإن الله عز وجل لا يرى في الآخرة، فودي به، ومن لم يقل ذلك ترك في أيدي الروم». وامتحن الواثق أهل الثغور، فقالوا

كلهم بخلق القرآن إلا أربعة²¹⁸ نفر، فأمر بضرب أعناقهم إن لم يقولوا. X²¹⁹

بلغ الإكراه هنا أسرى ينتظرون الفداء. وسؤال الاعتقاد على هذا الوجه ربط خلاص الأسير بالجواب المطلوب منه؛ وهذه هي الدلالة التي يثبتها الخبر، من غير حاجة إلى إنشاء حوار لم ينقل أو تقدير مدة أسر كل رجل.

أربعة كلهم من مرو

نقل ابن الجوزي قولاً في حصر الصابرين في أربعة من أهل مرو.²²⁰ ولا يحمل هذا الحصر على جميع המתحنين؛ فقد حفظت التراجم ثبات غيرهم. كذلك لا يجعل انتسابهم إلى بلد تفسيراً كافياً لموقف كل واحد منهم. X

٢١٨ — الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 9/141-142، حوادث سنة 231 هـ في امتحان الأسرى.

٢١٩ — الطبري، المصدر نفسه.

٢٢٠ — ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، تحقيق التركي، ص 550.

ما الذي يعنيه هذا؟

اتسعت أخبار أحمد بما رواه أبنائوه وأصحابه وبما جمعه من جاء بعدهم. أما غيره فتفاوت ما بقي من أخبارهم. كثرة المادة المحفوظة تيسر كتابة السيرة، لكنها لا تمنح مؤلفها علماً بمنازل الناس عند الله.

وتبين أخبار الأسرى وأهل الأمصار أن أثر الامتحان جاوز مجلس الخليفة والعلماء الذين أحضروا أول مرة. حين نقرأ كلام أحمد في أثر إجابة الأعلام، نفهم أنه كان ينظر إلى ما قد تحمله أسماؤهم إلى من وراءهم.

الفصل الثاني والثلاثون: أحمد والسلطان

امتنع أحمد عن الكلمة التي طلبها الخليفة، وأنكر في الوقت نفسه الدعوة إلى الخروج عليه. تحفظ أخبار المحنة هذا الموقف بأصوات من جاءوه؛ عند كل سؤال يبين ما يراه في القول والعمل وعاقبة الدماء.

ما كان يعتقد

وتشتمل أصول السنة، من رواية عبدوس بن مالك، على السمع والطاعة للأئمة، وإمضاء الغزو معهم، ورد إقامة الحدود وقسمة الفئء إليهم، والنهي عن شق جماعة المسلمين. هذا عرض لمعنى فقرات متتابعة من الرواية، لا نص موصول بجميع ألفاظها. ²²¹X

تتصل هذه الأصول بموقفه زمن المحنة: امتنع عن القول الذي لا يعتقد، وأنكر في الأخبار الآتية الدعوة إلى شق الجماعة وسفك الدماء. وفي جمع الموقفين ما يبين أن الطاعة في المعروف لا تقتضي الإجابة إلى المعصية، وأن شدة الظلم لا تغني عن النظر في عاقبة الفعل.

٢٢١ - ابن أبي يعلى، طبقات الحنابلة، 1/244، في أصول السنة من رواية عبدوس بن مالك؛ أدّى المعنى مختصراً مع حذف ما ليس من موضوع الفقرة.

الذين جاؤوه في زمن الواثق

وقد امتحن هذا الاعتقاد عملياً. روى الخلال عن حنبل قال: اجتمع فقهاء بغداد إلى أبي عبد الله في ولاية الواثق، فقالوا له: إن الأمر قد تفاقم وفشا، يعنون إظهار القول بخلق القرآن وغير ذلك، ولا نرضى بإمرته ولا سلطانه. فناظرهم في ذلك، وقال: عليكم بالنكرة بقلوبكم، ولا تخلعوا يدا من طاعة، ولا تشقوا عصا المسلمين، ولا تسفكوا دماءكم ودماء المسلمين معكم، وانظروا في عاقبة أمركم، واصبروا حتى يستريح بر أو يستراح من فاجر. ²²²X

طلب الفقهاء رأيه في وضع اشتد عليهم، فذكّرهم بعاقبة الدماء وشق الجماعة. تلك هي الكلمات التي تحملها الرواية؛ ولا نضيف إليها قدرة مفترضة على تحريك بغداد كلها، أو نجزم بما كان سيقع لو أجابهم جواباً آخر.

ويقرأ هذا الموقف بجوار خبر أحمد بن نصر، مع الفصل بين الخبرين. لا يكفي تشابه الزمن لنسبة تأييد أو شماتة أو تفسير نفسي إلى أحمد بن حنبل من غير نص عنه.

٢٢٢ — الخلال، السنة، الجزء الأول، رقم 90، خبر علي بن عيسى عن حنبل في اجتماع فقهاء بغداد بأحمد زمن الواثق. أدي الخبر بالمعنى.

لماذا؟

يبين تعليله في الخبر أن حفظ الدماء والنظر في العاقبة كانا حاضرين في جوابه. ولا يلزم لفهم ذلك أن ندعي أنه شهد حصار بغداد بعينه أو رأى مجاري القتال؛ فالتاريخ العام للمدينة لا يثبت حضور فرد في كل ما وقع فيها.

ولم يكن هذا يعني أن يطاع الخليفة في المعصية. فقد قيل له: قل إن القرآن مخلوق، فقال: لا، وصبر على ما جاء بعد لا. وتجتمع في الأخبار طاعة في المعروف، وامتناع عن المعصية، وتحذير من الدماء. ولا تؤرخ بهذا لا ابتداء أصل من أصول السنة بعد أحمد؛ فهذه المعاني لها نصوصها وآثارها قبله، وإنما تكشف سيرته صورة عملية من التمسك بها في حال شديدة.

ما الذي كلفه ذلك؟

وفي مجلس المعتصم قيل له إن الخليفة قائم على رأسه، فعاد إلى طلب الدليل من الكتاب والسنة. جمع موقفه بين امتناعه عن الجواب الذي لا يعتقده وتحفظه من الدعوة إلى قتال المسلمين. هذا ما تكشفه الأخبار، من غير حاجة إلى ترتيب آلامه وآلام غيره في مقياس واحد.

لقارئ السيرة أن يلاحظ اجتماع هذين الموقفين في روايات
الرجل. أما تنزيل أحكام الوقائع على أحوال أخرى فباب يحتاج
إلى معرفة شروطها وتفصيلها، ولا يحسمه التشابه الأدبي بين
عصرين.

الفصل الثالث والثلاثون: الذين أجابوا والذين اختلفوا معه

أجاب رجال تحت الإكراه، وامتنع آخرون، وحمل بعضهم قول السلطة قبل التهديد وبعده. ثم انتهت أيام الامتحان، وبقيت آثارها في الصلوات بين أهل العلم: من يحدث عن من، ومن يدخل على صاحبه، ومن يعذره فيما صنع.

لا تتم صورته إن عرفنا الذين أحبه وحدهم. لقد أحدثت المحنة مسافات بين رجال جمعهم مجالس الطلب، وصار لما يقوله المحدث في وقت الإكراه أثر في الثقة به وفي مكانته العامة. ومن شدة ما رأى أحمد من منزلة العالم عند الناس، حمل بعض أصحابه على ما احتمله هو، واشتد في مواضع رأى غيره فيها سعة.

ذاكرة الصحبة لا تخبى

شهد يحيى بن معين أنه صحب أحمد خمسين سنة فما افتخر عليه بشيء مما فيه من الخير. ثم جرى في المحنة ما جرى من اختلاف المواقف. لا تلغي الشدة اللاحقة صدق الشهادة السابقة، ولا تمنعنا الصحبة من رؤية أثر الخلاف. إن قراءة الرجال في صورة لون واحد تفسد معنى الزمن؛ فالصحبة قد تكون طويلة، ثم يقع امتحان يغير طريقة اللقاء.

وفي الأخبار عن بعض من أجابوا ندم بعد ذلك واعتذار، وعند أحمد تحفظ أو امتناع عن الرواية. وجمع الذهبي هذه الأخبار، وتعقب في مواضع طريقة التشديد على المكروه.²²³ ثبت الخلاف في تقدير الرخصة ومسؤولية القدوة؛ لا نجعل احتمال أحمد حجة على أن كل من لم يحتمل مثله أراد الدين بسوء.

بعد الجملة الأولى

لم تنته الخصومة بزوال امتحان الناس بلفظ «مخلوق». نشأت عبارات أخرى تتصل بالتلاوة واللفظ والوقف، واختلف الناس في مراد قائلها. كان أحمد شديد التحفظ من عبارات يرى أنها قد تعيد القول الذي قاومه في صورة أخرى. ووقع بين أهل الحديث أنفسهم نزاع في بعض هذه الألفاظ.²²⁴ X

والتمييز الذي يحتاج إليه القارئ هو بين القرآن من حيث هو كلام الله، وبين أصوات العباد وأفعالهم التي تقع منهم. فلا نخلط صفة الرب بأفعال المخلوقين، ولا نجعل كل لفظ مجمل آمناً من سوء الفهم.

٢٢٣ — انظر الذهبي، سير أعلام النبلاء، 321-323، 298-11/289 مع تمييز تعليقات الذهبي من كلام أحمد.

٢٢٤ — الذهبي، سير أعلام النبلاء، 290-11/298.

ومن هنا كانت حساسية ذلك العصر تجاه عبارة قصيرة لا يظهر لمن يسمعها بعد قرون مقدار ما حملته من تاريخ.

وبقيت هذه الخلافات جزءاً من تاريخ المدرسة، ولم يحفظها المصنفون كلهم بالطريقة نفسها. لذلك لا نرتب على حكاية مبتورة حكماً على شخص، ولا ننسب إلى أحمد كل رسالة عقدية حملت اسمه في العصور التالية. إن احترام علمه يقتضي أن يبقى ما ثبت عنه متميزاً مما نسبت إليه به أقوال لم يثبت طريقها.

الكلمة التي لم يقلها

لم يكن انتهاء الضرب نهاية الامتحان في دقة العبارة. بقيت كلمات قصيرة تحمل وجوهاً متباينة، وينقلها أناس يريدون نصرة أحمد، فينسبون إليه منها ما لم يقله. وفي واحد من هذه الأخبار وقف صالح بين أبيه وبين أبي طالب، وهو من ناقلي مسائله، وقد بلغه أن الرجل يكتب إلى الناس باسم الإمام قولاً في اللفظ بالقرآن.

يحفظ صالح ما جرى:

وقال صالح بن أحمد: تناهى إلى أبي أن أبا طالب يحكي أنه يقول: لفظي بالقرآن غير مخلوق. فأخبرت بذلك أبي، فقال: من حدثك؟ قلت: فلان، قال: ابعث إلى أبي طالب، فوجهت إليه، فجاء، وجاء فوران، فقال له أبي: أنا قلت لك: لفظي بالقرآن غير مخلوق؟!!

وغضب، وجعل يردد، فقال: قرأت عليك: قل هو الله أحد فقلت لي: ليس هذا بمخلوق. قال: فلم حكيت عني أني قلت: لفظي بالقرآن غير مخلوق؟ وبلغني أنك كتبت بذلك إلى قوم، فاحمه، واكتب إليهم أني لم أقله لك. فجعل فوران يعتذر إليه. فعاد أبو طالب، وذكر أنه حكى ذلك، وكتب إلى القوم، يقول: وهمت على أبي عبد الله.^{X 225}

تبدأ القضية بسؤال عن المصدر: من حدثك؟ ثم يستدعي الناقل، ويواجه بالعبارة التي حملها عنه. قرأ أبو طالب سورة الإخلاص، فسمع من أحمد نفي الخلق عما قرأ؛ وحين نقل الجواب جعله حكماً على «لفظي بالقرآن». والفرق الذي ظنه النقل يسيراً لم يره أحمد يسيراً، فغضب وطلب المحو والكتابة إلى من بلغهم الخطأ.

لا يكفي في مثل هذه الحال أن يعرف الحاضرون أنه لم يقل. ثمة قوم وصلت إليهم الرسالة، ولن يحو ما عندهم حوار وقع في بغداد ولم يبلغهم. ولهذا كان جزء من التصحيح أن يسلك الطريق الذي سلكه الخطأ. خرج أبو طالب، ثم عاد يخبر أنه كتب إليهم: «وهمت على أبي عبد الله». لم يجعل مكانته بين أصحابه عذراً لتبقى العبارة معلقة باسمه.

٢٢٥ — الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/288؛ قبيل اللفظ على الصورة، وهو نقل

الذهبي عن صالح.

وهذا خبر له موضع في تاريخ العقيدة، وله موضع كذلك في أخلاق الرواية. قد يتحمس المرء لنصرة عالم حتى يحسن الظن بكل لفظ يوافق غرضه؛ فإذا ظن أن المعنى قريب، أطلقه عنه. لكن القرب الذي يقدره المحب لا يقوم مقام اللفظ الذي قاله صاحبه. وكانت حساسية عصر المحنة لهذه الفروق أشد، لأن العبارة قد تصبح علامة يوزع بها الناس الولاء والالتهام.

ولكي لا يحمل القارئ ألفاظ النزاع بعضها على بعض، يشرح الذهبي الفرق بين فعل القارئ والكلام المقروء، ثم يذكر ما فهمه من منع أحمد إطلاق العبارتين. وهذا نصه في الموضوع:

فقد كان هذا الإمام لا يرى الخوض في هذا البحث خوفاً من أن يتدفع به إلى القول بخلق القرآن، والكف عن هذا أولى. آمنا بالله - تعالى - وبملائكته، وبكتبه، ورسله، وأقداره، والبعث، والعرض على الله يوم الدين. ولو بسط هذا السطر، وحرر وقرر بأدلتها لجاء في خمس مجلدات، بل ذلك موجود مشروح لمن رآه، والقرآن فيه شفاء ورحمة للمؤمنين، ومعلوم أن التلفظ شيء من كسب القارئ غير الملفوظ، والقراءة غير الشيء المقروء، والتلاوة وحسنها وتجويدها غير المتلو، وصوت القارئ من كسبه فهو يحدث التلفظ والصوت والحركة والنطق، وإخراج الكلمات من أدواته المخلوقة، ولم يحدث كلمات القرآن، ولا ترتيبه، ولا تأليفه، ولا معانيه. فلقد أحسن الإمام أبو عبد الله حيث منع من الخوض في المسألة

من الطرفين إذ كل واحد من إطلاق الخلقية وعدمها على اللفظ موهم، ولم يأت به كتاب ولا سنة بل الذي لا نرتاب فيه أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق، والله أعلم. الحاكم: حدثنا الأصم، سمعت محمد بن إسحاق الصغاني، سمعت فوران صاحب أحمد يقول: سألت الأثرم وأبو عبد الله المعيطي أن أطلب من أبي عبد الله خلوة، فأسأله فيها عن أصحابنا الذين يفرقون بين اللفظ والمحكي. فسأله، فقال: القرآن كيف تصرف في أقواله وأفعاله، فغير مخلوق. فأما أفعالنا فمخلوقة. قلت: فاللفظية تعدهم يا أبا عبد الله في جملة الجهمية؟ فقال: لا. الجهمية الذين قالوا: القرآن مخلوق. وبه قال: وسمعت فوران يقول: جاءني ابن شداد برقعة فيها مسائل، وفيها: إن لفظي بالقرآن غير مخلوق، فضرب أحمد بن حنبل على هذه، وكتب: القرآن حيث تصرف غير مخلوق. X²²⁶

هنا نرى مؤرخاً يفصل بين صوت العبد وحركته وبين كلام الله الذي يقرؤه، ويرى في إطلاق لفظ مجمل على الجميع منشأ للاضطراب. ولا يلزم القارئ أن يخوض كل فروع الجدل ليفهم الحدث الإنساني والعلمي: رجل يخشى أن تصبح إجابة قائلها في

٢٢٦ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/290-291. التفسير الأول للذهبي، ثم تليه رواية فوران؛ لا تنسب عبارات الذهبي إلى أحمد.

مقام حجةً على قول آخر لم يرده، فيعود إلى العبارة، ويطلب تصحيحها، ولا يسكت لأن ناقلها من أصحابه.

وبقاء هذه الواقعة في كتب محبيه شاهد أمانة أيضاً. فلو كان غرض النقلة أن يجعلوا كل من حول الإمام مصيباً، لما حفظوا وهم أبي طالب واعتذاره. لكنهم حفظوه، وصار خطأ التليذ نفسه طريقاً إلى فهم حرص شيخه على دقة ما ينسب إليه. وما أحوج سيرة القدوة إلى هذا اللون من الأخبار؛ نرى فيها العلم وهو يصلح نفسه، لا مديحاً يخفي مواضع التصحيح.

الذين بقيت بينه وبينهم مسافة

بقي بين أحمد وبعض أصحابه أثر المحنة، وسيأتي في الفصل التالي نص أبي زرعة وخبر الميموني كاملين، مع التفريق بين الموقف من الإجابة والحكم على رواية المحدث. ولا تحو هذه المسافة ما سبق من صحة وشهادة بالعلم؛ فقد عرف بعض هؤلاء بعضاً في مجالس السماع والرحلة قبل أن تفرق بينهم إجابات الامتحان.

خضم يطلب سلامته

وصل إلى المتوكل اتهام بأن علوياً قدم من خراسان وأن أحمد وجه إليه من يلقاه. حبس الخليفة الرجل الذي رفع الخبر، ثم

أرسل إلى أحمد في شأنه. كان يمكن أن يترك الواشي للعقوبة، لكنه أجاب: «هذا باطل، يخلى سبيله».^{X 227}

كان الاتهام في عالم السياسة العباسية ذا ثقل، وكانت علاقة العالم بمن قد يعد خصماً سياسياً أمراً لا يمر سهلاً. ومع ذلك لم يقل: قد نال الرجل ما يستحق، أو دعوه يتعلم كيف يتكلم في الناس. رد الخبر وطلب إطلاق صاحبه. عرف أحمد معنى أن يبلغ تقرير عن إنسان إلى صاحب سلطان؛ فلما صارت الكلمة عنده لم يستخدمها ليزوق غيره ما ذاق.

يتضح هنا أن العفو لم يكن جملة حسنة قالها عن ميت فحسب. امتد إلى قرار في إنسان حي، والقدرة على إيدائه موجودة. وما كان ينبغي للسيرة أن تجعل سوطه آخر شاهد على شجاعته وتغفل هذه القدرة على كف اليد حين يصبح الانتقام ممكناً.

الفصل الرابع والثلاثون: الهجر والعذر: علي بن المديني ويحيى بن معين

كان يحيى بن معين وعلي بن المديني من أصحاب العلم الذين جمعته بهم الرحلة والمجالس. ثم جاءت المحنة، وأجابا. بعد رفعها بقي لأحمد موقف منهما، وبقيت عنهما أخبار العذر والألم وما جرى بين الرجال.

عند هذه الصلوات نرى أثر المحنة بعد أن خفت السوط: صحبة قديمة يباعد بينها موقف، ورجل ثبت، ورجال رأوا لأنفسهم رخصة. تحفظ الأخبار كلام الأطراف، وتظهر فيها مشقة العودة إلى ما كان قبل الامتحان.

الهجر

تذكر الأخبار ترك أحمد الكتابة عن جماعة ممن أجابوا. وفي النص الآتي خبر أبي زرعة، ثم ظن الميموني في سبب غياب أحمد عن أبي نصر التمار، ثم استثناء يفسره الذهبي:

سعيد بن عمرو البرذعي: سمعت أبا زرعة، يقول: كان أحمد لا يرى الكتابة عن أبي نصر التمار، ولا يحيى بن معين، ولا أحد ممن امتحن فأجاب. أبو عوانة: سمعت الميموني، يقول: صح عندي أن أحمد لم يحضر أبا نصر التمار لما مات، فحسبت أن ذلك لإجابته في

المحنة. وعن حجاج بن الشاعر، سمع أحمد يقول: لو حدثت عن أحد ممن أجاب، لحدثت عن أبي معمر وأبي كريب. قلت: لأن أبا معمر الهذلي ندم، ومقت نفسه، والآخرون أجروا له دينارين بعد الإجابة، فردهما مع فقره. ^{X 228}

نسب الميموني تعليل غياب أحمد إلى ظنه، أما تفسير ندم أبي معمر ورد أبي كريب المال فمن كلام الذهبي. وقال أبو زرعة أيضًا: «كان أحمد لا يرى الكتابة عن علي بن الجعد ولا سعيد بن سليمان، ورأيت في كتابه مضروباً عليهما». ^{X 229}

وترد في طبقات الحنابلة حكاية زيارة ابن معين لأحمد واعتذاره إليه. لم يثبت في هذه المراجعة ما يكفي للاعتماد على طريقتهما؛ لذلك لا نبني عليها تصوير اللقاء ولا ننسب إلى أحمد بسببها ترك رد السلام أو التعهد بقطيعة دائمة. ²³⁰

٢٢٨ — الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/322.

٢٢٩ — الذهبي، سير أعلام النبلاء، 10/465، في ترجمة علي بن الجعد، من رواية أبي زرعة.

٢٣٠ — ابن أبي يعلى، طبقات الحنابلة، تحقيق محمد حامد الفقي، 1/404، ترجمة يحيى بن معين، رقم 530. طريقته: عن والده، عن إبراهيم، وفيه «وجدت بخط أبي»، عن عبد العزيز الحربي، عن أبي الفرج الهندي، عن المروزي. وترجمة الهندي في 2/16،

وأصل عذر المكروه منصوص عليه في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ
وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: 106]. أما خبر عمار في سبب
النزول، ففي طريقه إرسال وضعف، وقد قرر ابن حجر أن مراسيله
تتقوى بعضها ببعض.²³¹ فلا نسوي بين صحة أصل العذر، وقوة
مجموع طرق القصة، وثبوت كل لفظ روي فيها، ولا نستخرج من
حكاية الزيارة تعريفاً كاملاً للإكراه المذمور.

رقم 585، تذكر صحبته للهروذي وروايته عنه، ولا تتضمن توثيقاً صريحاً. لم يثبت لنا
تصحيح هذا الطريق؛ لذلك لا نعتمد تفاصيل ترك رد السلام أو الحلف على دوام
القطيعة في تصوير العلاقة، ولا نصف الخبر بالوضع. ومجرد الوجدادة لا يوجب بطلان
الرواية، كما أن العثور على إسنادها لا يكفي لتصحيحها.

٢٣١ - ابن حجر، فتح الباري، افتتاح كتاب الإكراه، شرح قوله تعالى «إلا من أكره
وقلبه مطمئن بالإيمان». ذكر طريق أبي عبيدة بن محمد بن عمار وقال إنه مرسل ورجاله
ثقات، وزيادة «عن أبيه» عند البيهقي مرسله أيضاً؛ وذكر ضعف طريق عطية عن ابن
عباس وطريق زيد بن أسلم، وثقة رجال مرسل ابن سيرين، ثم قال: «وهذه المراسيل
تقوى بعضها بعضاً». هذا حكمه على مجموع الطرق، وليس تصحيحاً منفرداً لجميع الأسانيد.
ولفظ «مررت بهم وهم يسبونك فبهتهم فضربوني» في حكاية الزيارة غير لفظ «كيف تجد
قلبك... فإن عادوا فعد»؛ فلا يسحب حكم أحدهما على الآخر.

لماذا كان بهذه الشدة؟

قد يستغرب القارئ أخبار الهجر من رجل عفا عمن ضربه. وفهم هذا الاختلاف يحتاج إلى نص يبين نظر أحمد، دون بناء المقارنة على تفصيل لم يثبت.

والجواب في كلمة لأحمد نفسه حفظها حنبل. قال: سمعت أبا عبد الله، وذكر الذين حملوا إلى الرقة إلى المأمون وأجابوا، فقال: «لو كانوا صبروا وقاموا لله عز وجل، لكان الأمر قد انقطع، وحذرهم الرجل، يعني المأمون، ولكن لما أجابوا وهم عين البلد اجترأ على غيرهم».²³²

يفسر كلام أحمد وجهاً من شدة موقفه: كان يرى لإجابة الأعلام أثراً في جرأة الممتحن على غيرهم. ننسب هذا التعليل إليه بحدوده، ولا نتحدث عنه كأننا أحطنا بجميع ما حمله على كل هجر أو عفو.

ومن جهة الرواية، يذكر الذهبي رجوع علي بن المديني عن مقالته، ويذكر رواية البخاري عنه. ويناقش ما حكى من إمساك أحمد عن الرواية عنه، وينبه إلى وجود أحاديث له في المسند.²³³ بذلك يفترق البحث في الموقف زمن الحنة عن البحث في ضبط المحدث

٢٣٢ — حنبل بن إسحاق، ذكر محنة الإمام أحمد، تحقيق محمد نغش، الطبعة الثانية،

1403هـ، ص34. قبل هذا الموضع على صورة الطبعة.

وما يحتاج به من روايته. ويشرح ابن تيمية أن هجر أحمد لمن أجاب، مع وجود أئمة فيهم، لا يمنع معرفة فضلهم. فهذا تفسير فقهي لاحق للهجر، وليس قولاً ننسبه إلى أحمد ولا حكماً بأن كل مهجور ساقط العدالة.

علي بن المديني

كان علي بن المديني أعلم أهل زمانه بعلل الحديث، وكان أحمد يقول عنه ما لا يقوله في غيره. وقد أجاب في المحنة، وزاد على الإجابة أنه كان في جملة من يحضر مجلس ابن أبي دؤاد. وترد في المسند عبارة تقيد زمن السماع منه؛ ففي مسند طلق بن علي: «حدثنا علي بن عبد الله قبل أن يمتحن».²³⁴ نحفظ هذا القيد كما ورد، ولا نجعله وحده دليلاً على تاريخ جميع مرويات أحمد عنه. X.

٢٣٣ — الذهبي، سير أعلام النبلاء، 57/11-59، في ترجمة علي بن المديني؛ وابن تيمية، مجموع الفتاوى، جمع عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد، مجمع الملك فهد، 1416 هـ، 377-10/376.

٢٣٤ — أحمد بن حنبل، المسند، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد وآخرين، مؤسسة الرسالة، 39/464، مسند طلق بن علي، الخبر الذي أوله: «كنا إذا صلينا مع نبي الله». المقابلة على النص الإلكتروني ذي ترقيم الطبعة.

وحفظت الرواية عن علي بن المديني ثناءه على أحمد: «أعز الله الدين بالصديق يوم الردة، وبأحمد يوم المحنة».²³⁵ وفي ترجمة علي يذكر الذهبي اختلاف مواقف النقاد من الرواية عنه بعد المحنة، وينبه إلى أن ترك أبي زرعة للرواية عنه لم يكن بمنع من أحمد.²³⁶ ومات علي بن المديني سنة أربع وثلاثين ومئتين. ولا تكفي الأخبار الباقية لتحديد ما انتهت إليه الصلة بين الرجلين.

ماذا قال يحيى بعد ذلك؟

لم يحمل يحيى بن معين على أحمد. روى ابن الجوزي عنه قولين منفصلين: «والله ما نقوى على ما يقوى عليه أحمد ولا على طريقة أحمد»، وقوله: «أراد الناس أن أكون مثل أحمد بن حنبل، لا والله! لا أكون مثل أحمد أبداً».²³⁷ في القولين اعتراف بمنزلة أحمد

٢٣٥ — الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/196، في ثناء علي بن المديني على ثبات أحمد.

٢٣٦ — الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/59، في ترجمة علي بن المديني. صرح الذهبي بأن أحمد لم يمنع أبا زرعة من الرواية عنه.

٢٣٧ — ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، ط2، 1409 هـ، ص154، في ثناء يحيى بن معين. ورد القولان بإسنادين إلى

وما احتمله. ولا تركيبها في جملة واحدة، ولا نجعلهما وصفاً
جازماً لجميع ما اعتقده يحيى في مسألة الإكراه X.

ولا تكفي أخبار هذه المرحلة لرسم جميع تفاصيل العلاقة بين
الرجلين بعد المحنة، ولا للجزم بما كان في نفس أحدهما تجاه الآخر.

ما الذي نتعلمه؟

فيه معنيان لا بد أن يؤخذوا معاً، وإلا فسد الفهم.

أول المعنيين أن فضل الإمام لا يجعل كل اجتهاد له ملزماً لمن
بعده. تقرأ أخبار الهجر في أسبابها وألفاظها، ويقرأ معها قبول أئمة
الحديث روايات جماعة ممن أجابوا.

والثاني أن العفو عن حق شخصي والهجر لسبب يراه العالم متعلقاً
بالدين بابان مختلفان في أصل النظر. قد يعين هذا التفريق على فهم
الأخبار، لكنه لا يبيح الجزم بنيات أصحابها في كل موقف.

ويبقى من هذا الفصل سؤال يتركه الكتاب للقارئ: إذا كنت في
موضع يقتدى بك فيه، فإن كلمتك ليست لك وحدك. هذا هو
الذي كان يراه أحمد، وهو الذي قاله له محمد بن نوح في المحمل.

أما إذا لم تكن في ذلك الموضع، فاعرف قدرك ولا تطالب نفسك
بما لم يطالب أحمد به الناس كلهم.

الباب الرابع: الإمام العالم

الفصل الخامس والثلاثون: العلم الذي بقي في الأجوبة

كان الناس يقصدون أحمد قبل المحنة من أجل الحديث والفقه. وبعدها بقيت الأجوبة تتناقل عنه: سؤال في رجل، ومسألة في معاملة، وتوقف عند ما يحتاج إلى نظر. يعود المجلس هنا إلى العمل الذي شغل أكثر عمره.

جواب يتسع لكلمتين

سأله عبد الله عن عمر بن حميد، فقال: «لا أدري». وسأله عن أبي الحياة يحيى بن يعلى، فذكر أنه كوفي، ثم قال إنه لا يدري كيف حديثه.

ثمة فرق بين أن يعرف البلد وأن يعرف من حال الرجل ما يسمح بالحكم على روايته. حفظ الابن الفرق، ولم يكمل الجواب من عنده.²³⁸

وإذا كان اسم الأب كبيراً، فإن هذه الأجوبة القصيرة أكبر دلالة على أمانته من خطاب لا يعترف فيه صاحبه بحدود علمه.

٢٣٨ — أحمد بن حنبل، العلل ومعرفة الرجال، رواية عبد الله، الرقمان 1648

و1657.

وكان عبد الله يتابع السؤال. قال أبوه في إسماعيل بن جعفر: ما أعلم إلا خيراً. فسأله: ثقة؟ فقال: نعم.²³⁹ وفي عطاء بن دينار قال: ما أرى به بأساً. فسأله السؤال نفسه، فعاد إلى عبارته: ما أرى به بأساً.²⁴⁰

ليست مهمة الابن أن يستخرج الكلمة الأقوى بأي طريق؛ مهمته أن يحمل الكلمة التي اختارها الأب، ويترك لمن يقرأ وزنها وسياقها. تبدو هذه التفاصيل صغيرة لمن يتخيل العلم موسوعة من الأجوبة الجاهزة. لكنها المكان الذي تكون فيه المعرفة الموثوقة. الاسم الواحد قد يشتبه، والعبارة الواحدة قد تزيد في الحكم ما لم يقله صاحبه، والنقل عن شيخ قد يحمل على السماع المباشر وهو بلاغ.

هشيم حاضر بعد السنين

قال أحمد عن هشيم خيراً في يعلى بن عطاء، فسأله عبد الله: أسمعته من هشيم؟ قال: «لا، بلغني عنه».^{X²⁴¹}

٢٣٩ — أحمد بن حنبل، العلل ومعرفة الرجال، رواية عبد الله، رقم 3195.

٢٤٠ — أحمد بن حنبل، العلل ومعرفة الرجال، رواية عبد الله، 3/111، رقم

هذا هو الشيخ الذي لازمه في مطلع طلبه، وحفظ من حديثه ما حفظ. ومع ذلك لم تجعل الملازمة كل خبر ينسبه إليه مسموعاً. يعيدنا الجواب إلى الفتى الذي يجلس في مجلسه، ثم يبين ما أثره ذلك الطلب بعد عشرات السنين: معرفة دقيقة بالطريق الذي جاء منه كل خبر، واستعداد لأن يذكر موضع الواسطة حين يسأل. ومن هذه الصناعة نقرب من معنى الرحلة. لم تكن مجرد انتقال إلى مكان مبارك أو لقاء اسم مشهور. كان الطالب يريد أن يميز الرواية التي سمعها من التي لم يسمعها، وأن يقارن نسخة بنسخة، وأن يرى الراوي ويسأله، وأن يعرف ما يخطئ فيه وما يصيب.

صحيفة عبرت إلى البصرة

سئل عن سليمان اليشكري ومن روى عنه، فذكر صحيفة وصلت إلى البصرة وحفظها قتادة، وفرق بين رواية المادة وسماعها من صاحبها: سمعت أبي يقول: سليمان اليشكري شيخ قديم، قتل في فتنة ابن الزبير. قيل له: من روى عنه؟ قال: قتادة، وما سمع منه شيئاً، وأبو بشر روى عنه أحاديث وما أرى سمع منه شيئاً. ثم قال: قدموا بصحيفة سليمان اليشكري البصرة فحفظها قتادة. ف قيل له:

سمع منه عمرو بن دينار؟ قال: لعل عمراً أدركه. قال أبي: وقد حدث عنه الجعد أبو عثمان. فقلت له: سمع منه؟ قال: يقول الجعد: حدث سليمان، حدث سليمان؛ فلا أدري، يعني: سمع منه أم لا. X²⁴²

تصل الصحيفة، وتنتقل الأحاديث، ويعرفها الحفاظ؛ لكن وصول النص لا يصنع لقاء بين رجلين. هنا عمل المؤرخ والناقد في أدق صوره: تاريخ وفاة، وبلد، ولفظ أداء، واحتمال إدراك، ثم توقف حيث لا يكفي الدليل. ومن يقرأ هذا الجواب يفهم لماذا لم يكتف أحمد بأن تكون العبارة حسنة أو أن يكون ناقلها محبوباً.

الفتوى وحق الإنسان

ومن أسألته المحفوظة سؤال عن رجل شق ثيابه عند المصيبة: أيعزى؟ قال: «لا يترك حق لباطل». وسئل عن الأخذ بيده، فقال: «خذ». X²⁴³

كان يستطيع أن يختصر الرجل في خطئه. لكنه رأى حق التعزية باقياً مع إنكار الفعل. وهذا الجواب، بجوار أجوبته في الأسانيد،

٢٤٢ — أحمد بن حنبل، العلل ومعرفة الرجال، رواية عبد الله، رقم 3202.

٢٤٣ — أحمد بن حنبل، العلل ومعرفة الرجال، رواية عبد الله، رقم 3207.

يعيد تركيب صورته: الذي يدقق في كلمة الناقل يستطيع أن يدقق كذلك في حق إنسان أخطأ. لا تتوقف دقته عند الكتب؛ تتصل بكيفية معاملة الناس.

وفي خبر ذهابه مع صالح إلى الجمعة، وصلوا وقد انصرف الناس، فصلى بهم الظهر أربعاً وذكر فعل ابن مسعود مع علقمة والأسود.²⁴⁴ موقف يومي قد ينتهي بانصراف عابر، صار عنده موضع تعليم هادئ: يعمل ويذكر أصل عمله. وفي البيوت والطرق والمساجد جرى من هذا الفقه ما لم يحتاج إلى مجلس رسمي حتى ينتقل.

كيف صار المذهب مذهبا؟

لم يجلس أحمد ليكتب للقارئ اللاحق كل ما يسمى اليوم بالمذهب الحنبلي في مصنف واحد مرتب. سمع منه أبناؤه وأصحابه أجوبة في أوقات مختلفة، ونقلوها، ثم جمعها علماء بعده وقارنوا بينها واستخرجوا منها طرقاً في الفهم والترجيح. لذلك كان حفظ أسماء الناقلين وظروف السؤال جزءاً من فهم المذهب، لا أمراً زائداً على الأحكام. وقد تختلف الروايات عنه؛ لتغير اجتهاد، أو اختلاف صورة السؤال، أو تفاوت ما حفظه الناقل، أو سبب يحتاج إلى

بحث في موضعه. وجود أكثر من جواب لا يبيح أن ننسب إليه تناقضا بلا نظر، كما لا يبيح أن نسوي بينها بكلام عام. تاريخ المدرسة عمل متصل من الجمع والفهم والتحرير، ولا تختصره شخصية المؤسس وإن كان أصلها الكبير.

ومن كتبه التي بقيت «المسند»، برواية ابنه عبد الله وطرق نقله، وفي مادته زيادات تعرف في مواضعها بطرقها وصيغها. وليس مجرد وجود الحديث فيه حكماً بأن كل ما فيه صحيح؛ للأحاديث مراتب وعلل، وللقاد كلام في أسانيدھا ومتونها.²⁴⁵

إن أهم ما يخرج به قارئ السيرة من هذا الباب أن أثر أحمد العلمي أوسع من عبارة واحدة في المحنة، وأن كتبه لا تعفي قارئها من عمل التثبت الذي كان يمارسه. لقد ترك مادة وطريقة سؤال، وترك قبل ذلك نموذج عالم لا يستحي أن يقول لابنه: لا أدري.

٢٤٥ — انظر مقدمة تحقيق مسند الإمام أحمد، مؤسسة الرسالة، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين، في روايات المسند وزياداته ومنهج الحكم على أحاديثه.

الفصل السادس والثلاثون: الدفاتر التي خرجت من البيت

تفتح الكتب في البيت، فيسمع منها الابن والقريب، ويراجع الشيخ لفظاً. يحملها معه لعله يجد من يسمعهها. ثم تمضي الأوراق بعد موته من يد إلى يد، ويبدأ للعلم الذي جمعه طريق أطول من عمر صاحبه.

ليس كل ما نسب إلى الإمام في فهارس المتأخرين كتاباً ألفه على الصورة التي وصلت إلينا. منه ما جمعه، ومنه ما رواه، ومنه مسائل حفظها أصحابه، ومنه زيادات وقعت في رواية من بعده، ومنه ما لم تصح نسبته إليه. هذا التنوع نفسه جزء من تاريخ أثره، ولا ينتقصه أن نراه كما هو.

مجلس المسند

يروى حنبل أن أحمد جمعه مع صالح وعبد الله، وقرأ عليهم «المسند». كانت هذه جلسة من جلسات حفظ العلم في العائلة، لكن الكتاب لم يبق شأناً عائلياً. نقله عبد الله، وحملته طبقات من الرواة، وصار من أوسع دواوين السنة التي يرجع إليها المسلمون.²⁴⁶

X

وعمل المسند يقوم على جمع أحاديث الصحابي في موضع، فيرى القارئ مادة تتصل بناقلها الأول، لا كتاب فقه رتبت جميع أبوابه على الطهارة والصلاة والبيع وسائر الأحكام. ويحتاج من يستخرج حكماً إلى أن يجمع ما يتصل به من مواضع، وينظر في طريقه ودلالته، ولا يكتفي بأن يعثر على جملة توافق ما أراد.

وفي خبر حنبل كلام لأحمد عن انتقاء مادة المسند من مجموع كبير. يعقب الذهبي على ما قد يفهم من الخبر، فيقرر أن وجود الحديث في المسند لا يلزم منه أن يكون حجة، وأن فيه أحاديث ضعيفة وزيادات لعبد الله.²⁴⁷ يصون هذا التعقيب قيمة الكتاب من مبالغة قد تضر بها؛ فالمحدثون لم يكونوا يقرؤون دواوين الحديث على قاعدة أن كل ما بين الدفتين في رتبة واحدة.

وصورة الأب وهو يقرأ على الثلاثة تعيدنا إلى معنى العمل الذي امتد سنين. ما سمعه في الأمصار، وما كتبه وقابله، وما عرف اختلاف رواته، يصل في النهاية إلى مجلس يمكن للابن أن يحمل منه علماً إلى غيره. الرحلة الطويلة تحتاج إلى هذا الفصل الهادئ من التبليغ، وإلا انقطع أثرها عند صاحبها.

الكتب التي يحملها إلى المسجد

قال أبو حاتم إنه لقيه أول ما لقيه سنة ثلاث عشرة ومائتين، وقد أخرج معه إلى الصلاة كتاب «الأشربة» وكتاب «الإيمان». لم يسأله أحد، فردهما إلى البيت. ثم أتاه في يوم آخر وقد أخرجهما كذلك. وفهم أبو حاتم أنه يحتسب في إخراجهما لما يتعلق بأصل الدين وبصرف الناس عن الشر.^{X 248}

العالم هنا لا يخطب في جمع ينتظره، ولا يضمن أن يجد من يأخذ عنه ما حمل. يخرج بالكتاب، فإن سئل بذل، وإن لم يسأل رجع به. في هذا المشهد تواضع الخدمة كما هي: استعداد للعلم لا يقترن دائماً بحدث كبير أو جمهور واسع.

ويقول الخبر شيئاً عن اختياره لما يقدمه. هناك مسائل أصلية في الاعتقاد، وهناك سلوك يمس حياة الناس وما يدخل عليها من فساد. ليس العلم عنده رفاً واحداً من الروايات؛ تختلف حاجاته، ويختار العالم ما يرجو أن ينفع في الوقت الذي يخرج فيه.

من السؤال إلى المذهب

كان المروزي يسأل، وكان عبد الله يسأل، وكان أبو داود وغيرهم يسمعون أجوبة تتصل بوقائع وأدلة. ثم حفظت رواياتهم أسماء السائلين وطرائق السؤال. فإذا قال ناقل: سألت، كان في الكلمة تحديد لعلاقته بالجواب؛ وإذا قال: سمعت، كان لها موضعها؛ وإذا روى عن غيره، بقيت الوسطة جزءاً من الخبر.

يجمع الذهبي أسماء كثيرة ممن نقلوا مسائل الإمام، ثم يصف ما صنعه أبو بكر الخلال في جمعها. نثبت هذا القسم من كلامه ليظهر العمل الذي قام به من جاء بعد الشيخ:

وجمع أبو بكر الخلال سائر ما عند هؤلاء من أقوال أحمد، وفتاويه، وكلامه في العلل، والرجال والسنة والفروع، حتى حصل عنده من ذلك ما لا يوصف كثرة. ورحل إلى النواحي في تحصيله، وكتب عن نحو من مائة نفس من أصحاب الإمام. ثم كتب كثيراً من ذلك عن أصحاب أصحابه، وبعضه عن رجل، عن آخر، عن آخر، عن الإمام أحمد، ثم أخذ في ترتيب ذلك، وتهذيبه، وتبويبه. وعمل كتاب "العلم" وكتاب "العلل" وكتاب "السنة" كل واحد من الثلاثة في ثلاث مجلدات. ويروي في غضون ذلك من الأحاديث العالية عنده، عن أقران أحمد من أصحاب ابن عينة ووكيعة وبقيّة مما يشهد له بالإمامة والتقدم. وألف كتاب "الجامع

” في بضعة عشر مجلدة، أو أكثر. وقد قال: في كتاب ” أخلاق أحمد بن حنبل ” لم يكن أحد علمت عني بمسائل أبي عبد الله قط، ما عنيت بها أنا. وكذلك كان أبو بكر المروزي، رحمه الله، يقول لي: إنه لم يعن أحد بمسائل أبي عبد الله ما عنيت بها أنت إلا رجل بهمدان، يقال له متويه، واسمه محمد بن أبي عبد الله، جمع سبعين جزءا بكارا. ^{X 249}

خرج الخلال إلى النواحي، وكتب عن أصحاب الإمام وعن أصحاب أصحابه، وجمع ورتب ووب. لم يكن عمله وضع أقوال جديدة في فم أحمد، بل محاولة حفظ المتفرق وفهم مواضعه. ولكل مرحلة من هذا العمل أسئلتها: أي الألفاظ أصح؟ وهل أجاب أحمد عن الصورة نفسها؟ وما المتقدم من قوله وما المتأخر إذا ثبت التاريخ؟ وما الذي زاده تفسير الراوي؟

ومن هنا نفهم لماذا احتاج المذهب بعده إلى علماء، ولم يستغن عن الاجتهاد بمجرد وجود أقوال المؤسس. كان لا بد من فهم النصوص المروية عنه وردها إلى أدلتها، ومن تمييز ما هو جواب خاص عما يراد به حكم عام. وكلما اتسعت المادة احتاجت إلى تحرير، لا إلى إلغاء الفروق بينها.

كتب تحمل اسمه

سرد ابن الجوزي عناوين منسوبة إلى أحمد، وتعقب الذهبي بعض ذلك. ففي خبر تفسير ضخم ناقش مقدارَه ووجوده، وفي رسائل أخرى صرح بإنكار النسبة.²⁵⁰ لا يجوز أن نجعل الأسماء في قائمة طويلة ثم نقدمها للقارئ كلها على مرتبة واحدة من الثبوت. X

ويكون الإغراء أشد حين تكون الرسالة المنسوبة موافقة لما يجب القارئ أن يراه في إمامه. لكن الموافقة لا تثبت التأليف. قد يأخذ واضع أو جامع معنى شائعاً، ثم ينسب إليه ألفاظاً لم يقلها. وقد يختلط متن قديم بشرح راو أو ناسخ. لذلك تحفظ النسبة بدراسة طرق الكتاب ونسخه ونقول العلماء عنه، لا بقوة العبارة التي فيه. حتى قول الذهبي في كتاب إنه موضوع على الإمام يثبت بوصفه حكم الذهبي في الموضوع، ويحتاج الباحث المتخصص إذا أراد استقصاء المسألة إلى أن يدرس حججه وما يقابلها. ليس مقصد قارئ السيرة أن يحسم جميع نزاعات نسبة الكتب؛ مقصده أن لا يظن أن كل عنوان يجد اسم أحمد عليه صوت مباشر له.

الزيادة التي ينبغي أن تعرف باسم صاحبها

ذكر الذهبي زيادات عبد الله في المسند، وزيادات له ولأبي بكر القطيعي في «فضائل الصحابة». والزيادة، حين تعرف طريقها وصاحبها، ليست خداعاً، إنما يقع الخلط إذا قرأ القارئ كل مادة في الكتاب كأنها من طبقة واحدة، ثم نسب الجميع إلى الإمام من غير تمييز.

ومن أمثلة ذلك الخبر رقم 427 في المسند، إذ جاء في أوله التصريح برواية عبد الله عن محمد بن أبي بكر، لا عن أبيه:

حدثنا عبد الله، حدثنا محمد بن أبي بكر، حدثنا خالد بن الحارث، حدثنا ابن أبي ذئب، عن سعيد بن عبد الله بن قارظ، عن أبي عبيد، قال: شهدت علياً وعثمان رضي الله عنهما في يوم الفطر والنحر يصليان ثم ينصرفان فيذكران الناس، فسمعتهما يقولان: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صوم هذين اليومين. ²⁵¹X

يفيد هذا الإسناد في تعيين صاحب الزيادة: الحديث هنا من رواية عبد الله عن شيخ آخر. وتعين طبقة الرواية سؤال غير السؤال عن صحة الحديث؛ فقد حكم محققو المسند بصحة إسناد هذا الخبر. لا

٢٥١ — عبد الله بن أحمد، زياداته على المسند، رقم 427، مسند عثمان بن عفان.

قال محققو طبعة الرسالة: «إسناده صحيح». الحكم على هذا الخبر بعينه.

يصبح جميع ما في كتاب مشهور في درجة واحدة، ولا تضعف الزيادة لمجرد كونها زيادة. ومن أمانة الاستعمال أن يبقى الطريق ظاهراً، فيعزى الخبر إلى عبد الله في زياداته على المسند في هذا الموضع.

هذه عودة، على مستوى الكتاب، إلى الدقة التي رأيناها في سؤال عبد الله: أسمعته من هشيم؟ فقال أبوه: بلغني عنه. النص ينتقل، لكن طريق انتقاله لا يذوب في محبة الناقل ولا في شهرة الكتاب.

ما لا تحفظه الفهارس وحدها

تخبرنا الفهارس أن كتاباً موجود، وأن آخر مفقود، وأن رواية وصلت من طريق. لكنها لا تستطيع أن تحفظ وحدها هيئة المجلس أو صبر المعلم على السؤال. لهذا كان للمسائل والأخبار قيمة مزدوجة: نقرأ فيها العلم، ونرى كيف جرى بين الناس.

يسأل الابن مرة ثانية ليعرف هل يريد أبوه التوثيق الصريح. ويعيد الأب عبارته إذا لم يرد أن يزيد عليها. ويصحح له صاحب ما بلغه عنه، فيأمره أن يكتب إلى من كتب إليهم بالتصحيح. بهذه الأفعال تتكون أخلاق النقل التي يحتاج إليها الكتاب بعد أن يفارق مؤلفه. وإذا أردنا أن نفهم بقاء أحمد في ثقافة المسلمين، فلا يكفي أن نقول إن له مسنداً كبيراً أو مذهباً مشهوراً. ينبغي أن نرى من نسخ وحمل، ومن رحل يجمع، ومن قارن روايتين، ومن

نبه إلى قصة لا تصح. إن أثر العالم أمانة موزعة بين أجيال،
يستطيع جيل أن يحسن حملها، ويستطيع أن يضيف إليها ما يبعد
الناس عن صاحبها.

حين يعود القارئ إلى البيت

بعد أسماء المصنفات والرواة، يعود الخاطر إلى البيت الصغير الذي
كانت الكتب مطروحة حول صاحبه. هناك حفظت مواد
كثيرة، وهناك قال بعض أجوبته، وهناك سمع أبناءه ما صار بعد
ذلك مراجع عامة.

لم يحتاج ذلك الأثر إلى أن يكون البيت واسعاً. احتاج إلى عمل
طويل، وإلى أمانة في القول، وإلى من يواصل العناية بعد موت
صاحبه. وما بين غرفة فيها كتب وجموع تقرأ تلك الكتب بعد
قرون مسافة قطعها أناس كثيرون، يعرف بعضهم اسمه في الإسناد
ولا يعرف القارئ من حياته أكثر من الاسم.

ومن الوفاء لأحمد أن نفي لهؤلاء أيضاً. لولاهم لما سمعنا عبارته في
الخوف ولا رأينا يده على رأس الصبي ولا عرفنا كيف كان
يسأل ويحجب. لقد نقلوا الإمام إلينا إنساناً يتكلم ويتوقف ويختار،
فاستحقوا أن تبقى آثار أيديهم ظاهرة في الكتاب الذي نقرأه عنه.

الفصل السابع والثلاثون: حين يصير العلم جواباً لحياة الناس

يقصد بابه رجل يسأل عن ميراث، وآخر يحمل ديناً أو نذراً. يصل الحديث إلى حياة الناس من هذه الأسئلة، ويظهر الفقيه في الجواب الذي يبين لصاحب الحاجة ما يصنع.

قد يحمل ميراثاً، أو ديناً، أو متاعاً استعاره، أو نذراً أوقع نفسه فيه. وبينما يرى أهل الحديث فيه حافظاً يميز طريق الراوي من طريق آخر، يرى صاحب الحاجة رجلاً يرجو أن يدلّه على ما يصنع. ولهذا كان يحيى بن معين، حين سئل عن مسألة سكنى في دكان، يرد السائل إلى باب آخر: «ليس هذا بابتنا، هذا بابه أحمد بن حنبل».²⁵²

وراء هذا الجواب اعتراف بحدود التخصص داخل عالم يجمعه الحديث. معرفة الرجال لا تستغني عن فهم ما تؤول إليه الروايات في البيع والسكنى والمال، كما أن الفقه لا يستغني عن معرفة ما يصح أن يبنى عليه. عاش أحمد عند ملتقى الأمرين: يسمع الخبر، ويختبر طريقه، ويجمع ما ورد في بابه، ثم يسأل عما يدل عليه إذا نزلت حاجة الناس به.

٢٥٢ — ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، الباب التاسع، خبر الخلال عن أحمد بن

محمد بن عبد الحميد الكوفي عن يحيى بن معين.

وقد حفظ إسحاق بن راهويه صورة مجلس مذاكرة:

قال: سمعتُ إسحاق بن راهويه، يقول: كنتُ أجالس بالعراق أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وأصحابنا، فكنا نتذاكر الحديث من طريق وطريقين وثلاثة، فيقول يحيى بن معين من بينهم: وطريق كذا، فأقول: أليس قد صحَّ هذا بإجماع منا؟ فيقولون: نعم. فأقول: ما مراده؟ ما تفسيره؟ ما فقهه؟ فييقنون كلهم إلا أحمد بن حنبل. ^{X²⁵³}

يسأل إسحاق: ما مراده؟ ما تفسيره؟ ما فقهه؟ نتتابع الأسئلة بعد اتفاقهم على صحة الحديث. فالتثبت بداية الطريق، ثم يأتي فهم النص ووضعه في موضعه. وليس في الشهادة إذن بالتقليل من أصحابه؛ إنما هي نافذة على ملكة ظهرت له عند أحمد، وهو رجل يعرفهم ويجالسهم وينظرهم.

المسألة لا تشبه عنوانها دائماً

بعد قرون، واجه ابن عقيل قول من يحصر أحمد في التحديث وينفي عنه الفقه، فجمع أمثلة من أجوبته. نقرأ كلامه بوصفه كلام فقيه حنبلي يستدل على سعة إمامه، ونعرف أن تفسيره لوجه

٢٥٣ — ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، الباب التاسع، رواية ابن أبي حاتم عن أحمد بن سلمة عن إسحاق بن راهويه. الوصف متعلق بهذا المجلس.

الجواب زيادة منه على النص المنقول. ولهذا يبقى قوله «كأن المعنى» أو «كأنه نظر» في مكانه؛ فهو استنباط ابن عقيل، لا حديث أحمد عن باطن اجتهاده.

قال أبو الوفاء علي بن عقيل رضي الله عنه: ومن عجيب ما تسمعه عن هؤلاء الأحداث الجهال أنهم يقولون: أحمد ليس بفقيه، لكنه مُحَدِّث. وهذا غاية الجهل؛ لأنه قد خرج عنه اختيارات بناها على الأحاديث بناء لا يعرفه أكثرهم، وخرج عنه من دقيق الفقه ما ليس نراه لأحد منهم، وانفرد بما سلوه له من الحفظ، وشاركهم وربما زاد على كبارهم،^{X²⁵⁴}

دين في ذمتين

إذا اشترك رجلان في دين، فهل يقسمانه بينهما قبل أن يقبضاه؟ ليست المسألة تقسيم قطع موضوعة أمامهما، بل توزيع حق مطالبة لم يتحول بعد إلى مال حاضر. وإذا كان الدين على شخصين، فإن القدرة على الوفاء قد تختلف، وقد يكون أحدهما أيسر من الآخر أو أسرع قضاءً. هنا ينقل ابن عقيل اختلاف الرواية عن أحمد، ويبين وجه ما فهمه من كل رواية:

٢٥٤ — ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، الباب التاسع، من كلام ابن عقيل؛ يميز شرحه وتعليقه من الألفاظ المنقولة عن أحمد.

وَمِنْ دَقِيقٍ مَا خَرَجَ عَنْهُ أَنَّهُ اخْتَلَفَتِ الرَّوَايَةُ عَنْهُ فِي قِسْمَةِ الدِّينِ إِذَا كَانَ فِي ذِمَّةِ اثْنَيْنِ، وَلَمْ يَخْتَلَفْ فِي نَفْيِ صِحَّةِ الْقِسْمَةِ إِذَا كَانَ فِي ذِمَّةِ وَاحِدٍ، وَكَأَنَّ الْمَعْنَى فِيهِ إِذَا كَانَ فِي ذِمَّةِ أَنَّهُ لَا يَتَأْتِي قِسْمَتُهُ؛ لِأَنَّ الْمُلْتَزِمَ لَهُ وَاحِدٌ، وَلَيْسَ لِمَنْ لَهُ الدِّينُ مِنَ الشَّرِيكَيْنِ إِلَّا حَقُّ الْمَطَالَبَةِ لَهُ بِحَقِّهِ مَعَ الْإِشْتِرَاكِ، وَلَا يَكُونُ لَهُ إِلَّا ذَلِكَ فَكَيْفَ يَتَأْتِي الْإِنْقِسَامُ؟ وَلَيْسَ كَذَلِكَ إِذَا كَانَ عَلَى اثْنَيْنِ؛ لِأَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يَنْفَرِدَ أَحَدُ الشَّرِيكَيْنِ الْمُسْتَحَقِّينَ لِلدِّينِ بِمَا فِي ذِمَّةِ أَحَدِ الْاِثْنَيْنِ الْمُسْتَحَقَّ عَلَيْهِمَا الدِّينَ، فَتَصَحُّ الْقِسْمَةُ، لَا مُمْتَازَ أَحَدِ الْمُحْلَيْنِ عَنِ الْآخَرِ. وَعَلَى الرَّوَايَةِ الَّتِي مَنَعَ مِنَ الْقِسْمَةِ وَإِنْ كَانَ الدِّينُ عَلَى اثْنَيْنِ إِنَّمَا مَنَعَ لِأَنَّ الذِّمَّ يَخْتَلَفُ وَلَا تُكَافَأُ غَالِبًا.^{X 255}

تَبْدُو الْمَسْأَلَةُ لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ بَعِيدَةٍ عَنْ صُورَةِ الزَّاهِدِ الَّذِي يَلْبَسُ الْمَرْقَعَ. لَكِنَّا مِنْ الصُّورَةِ نَفْسَهَا: مَاذَا يَمْلِكُ الْإِنْسَانُ بِالْفِعْلِ؟ وَمَا الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْقُلَهُ إِلَى غَيْرِهِ؟ وَهَلْ يَتَسَاوَى نَصِيبَانِ فِي الْأَسْمِ إِذَا اخْتَلَفَ إِمَّا كَانَ الْحَصُولُ عَلَيْهِمَا؟ يَتَّصِلُ الْفَقْهُ هُنَا بِعَدَلٍ دَقِيقٍ فِي حَقُوقِ الشَّرَكَاءِ، لَا بِمَشْهَدِ اسْتِثْنَائِيٍّ مِنْ مَشَاهِدِ الْبَطُولَةِ.

٢٥٥ - ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، الباب التاسع، من كلام ابن عقيل الذي نقله ابن الجوزي؛ التعليل الفقهي في هذا السياق لابن عقيل، ولا يعد كله من ألفاظ أحمد.

نذر لا يحول الإنسان إلى دابة

ومن أغرب ما نقل في هذا الباب سؤال رجل نذر أن يطوف بالبيت على أربع. في السؤال رغبة تعبد صيغت في هيئة لا تلائم العبادة ولا الإنسان، وفي الجواب تحويل للوفاء إلى صورة أخرى. وقد قرأ ابن عقيل في ذلك صيانة للبيت ولصاحبه من الشهرة والمثلة:

قال: ومما وجدنا من فقه أحمد ودقة علمه أنه سئل عن رجل نذر أن يطوف بالبيت على أربع، فقال: يطوف طوافين، ولا يطوف على أربع. فانظر إلى هذا الفقه كأنه نظر إلى الانكباب، فرآه مثلة وخروجاً عن صورة الحيوان

الناطق إلى التشبيه بالبهيم، فصان وصان البيت والمسجد عن الشهرة، ولم يبطل حكم لفظه بالمشي على اليدين، فأبدلها بالرجلين التي هي آلة المشي.^{X²⁵⁶}

٢٥٦ - ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، الباب التاسع، من كلام ابن عقيل الذي نقله ابن الجوزي؛ التعليل الفقهي في هذا السياق لابن عقيل، ولا يعد كله من ألفاظ أحمد.

نظر الفقيه، كما شرح قوله، إلى النذر وما يترتب عليه. يتوقف الحكم على صورة المسألة ودليلها؛ وفيها يظهر علم يزن ما يختاره المرء لنفسه من تشديد، ويبين ما يلزمه منه.

إن أحمد الذي احتمل الضرب لم يكن يرى قيمة الفعل في مقدار ما فيه من إيلاام صاحبه. كان يطلب الدليل والاتباع؛ فإذا خالف التشديد وجه العبادة، لم يصبح محموداً لمجرد أنه شاق. ومن الخطأ أن نقرأ المحنة ثم نعود إلى سائر حياته بمقياس واحد هو البحث عن أصعب ما يستطيع الإنسان احتماله.

مال اليتيم وحدود المنفعة

وعرضت على أحمد مسألة مال ورثه صبي، وفيه جارية مغنية. ينقل ابن عقيل جوابه بأن تباع من غير احتساب صفة الغناء في قيمتها، وإن كان ذلك ينقص الثمن نقصاً كبيراً. هذا خبر من مجتمع كان الرق فيه قائماً، ومن فقه البيع في ذلك المجتمع، لا وصف لعلاقة عمل حرة في عصرنا. وإثبات سياقه جزء من فهمه. قال ابن عقيل: وقد سئل أحمد عن رجل مات وخلف ولداً وجارية مغنية. فاحتاج الصبي إلى بيعها. فقال: لا تباع إلا على أنها ساذجة، فقليل له: تساوي مغنية ثلاثين ألفاً، وساذجة عشرين ديناراً. فقال: لا تباع إلا على أنها ساذجة. قال: وهذا فقه حسن من أحمد، لأن الغناء في الجارية كالتأليف في آلة اللهو، وذلك لا

يقوم في الغضب، فلو غصب جارية مغنية، فنسيت الغناء لم
يغرم. ²⁵⁷X

يقف الفقيه عند حد يراه شرعياً، فلا يجعل زيادة المال وحدها
مبرراً لكل طريق إليها. وفي الوقت نفسه لا يصح أن نستخرج من
المثال إذناً مطلقاً لأحد أن يهدر مال من تحت ولايته بتقديره
الخاص؛ فالمسألة المنقولة لها موضوعها وحكمها وأدلتها عند
أصحابها. القدوة التي نقرأها هي خوف المسؤول عن مال غيره من
أن يدخل فيه ما لا يراه جائزاً، مع ضرورة العلم الذي يضبط هذا
الخوف.

صنعتان صغيرتان

في مثال آخر، يسأل السائل عن سسم ابتل وماتت فيه فأرة، ثم
عن غسل يذهب أثر ما وقع فيه. وفي مثال يليه، ينتقل السؤال
إلى دود القز وصناعة الحرير. تحفظ هذه الأسئلة أثر السوق
والصناعة داخل مجلس الفقيه؛ هناك من ينتظر جوابه لينظر ما
يفعل بطعام أو محصول أو مادة يعتمد عليها في رزقه.

٢٥٧ - ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، الباب التاسع، من كلام ابن عقيل الذي
نقله ابن الجوزي؛ التعليل الفقهي في هذا السياق لابن عقيل، ولا يعد كله من ألفاظ
أحمد.

قال: وسئل أحمد عن سَمِمْ مبلول ماتت فيه فأرة. قال: يُعَلَف النواضح. فقيل له: يغسل مراراً حتى يذهب الماء عنه، فقال: أليس قد ابتل؟! وإذا فقه دقيق من أحمد، لأنَّ البَلَلَ الذي حصل فيه لا يدخل عليه الماء الذي يُفَاض عليه، لأنَّ الماء لا يُخْرَج الماء، فانظروا فقه هذا الرجل ودقته.

قال: وسئل أحمد عن تَشْمِيس دود القَرِّ ليموتَ في ذلك المنسوج عليه كيلا يعود فيقرض ما عليه من القَرِّ، فقال: إذا لم يجدوا منه بدءاً، ولم يريدوا بذلك أن يُعَذِّبوه بالشمس، فليس به بأس. وهذا من أحمد فقه كبير، حيث اعتبر في جواز التعذيب عدم قصدهم نفس التعذيب. X²⁵⁸

ليس المقصود تحويل هذه الأجوبة إلى تعليمات صحية أو صناعية مستقلة عن معرفة العصر. المقصود أن نرى العالم وهو ينظر في فعل محدد وآثاره: ما الذي دخله الماء؟ وما الذي يمكن تطهيره؟ وما قصد الصانع؟ وهل أمامه طريق آخر؟ نتصل هذه الأسئلة بحياة الناس التي لا ترد في الحكايات الكبرى عن الخلفاء.

٢٥٨ - ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، الباب التاسع، من كلام ابن عقيل الذي نقله ابن الجوزي؛ التعليل الفقهي في هذا السياق لابن عقيل، ولا يعد كله من ألفاظ أحمد.

وفي جواب دود القزيرز التفريق بين قصد التعذيب وبين عمل لا يجد الصانع منه بداً بحسب الواقعة المعروضة. وقد عظم ابن عقيل هذا الاعتبار، ورأى فيه دليل فقه. يظل شرحه من قراءته للجواب، ويظل لنا أن نلاحظ أن لفظ الرحمة لا يقتصر في السيرة على معاملة الإمام أصحابه؛ يدخل أيضاً في تقدير الأفعال التي تقع على مخلوقات أخرى.

مجلس يتسع لصاحبه

ثم يختم ابن عقيل أمثله بنخبر صغير: قام أحمد عن مجلسه لأبي عبيد، فذكر له أبو عبيد أن الرجل أحق بمجلسه. فجمع أحمد بين الحق وبين حرية صاحبه في إكرام غيره: «يجلس ويجلس فيه من أحب». ²⁵⁹X

الحق هنا لا يتحول إلى منع للفضل، والفضل لا يلغي معرفة الحق. يعرف صاحب المجلس أنه أحق به، ثم يختار أن يجلس فيه من يحب. وبمثل هذا تبقى أحكام المعاملة قريبة من الحياة؛ ليست خصوصاً تحرس الأنانية، ولا مشاعر تلغي الحدود، بل معرفة تمكن الإنسان من أن يعطي وهو يعلم ما يعطي.

٢٥٩ — ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، الباب التاسع، في كلام ابن عقيل؛ وراجع خبر أبي عبيد في أبواب أصحاب أحمد وآدابه.

وتلتقي عند نهاية هذا الفصل صورة الفقيه بصورة صاحب البيت
الذي عرفناه. الذي يملك أن يتنازل عن مجلسه لصديق هو نفسه
الذي يتوقف عند درهم لا يملكه، وعند حديث لا يثبت لديه،
وعند كلمة ستخرج باسمه إلى الناس. تختلف الأشياء، ويجمعها
سؤال الأمانة: ما الذي لي؟ وما الذي علي؟ وما الذي أستطيع أن
أقول فيه نعم؟

الفصل الثامن والثلاثون: ناقد الرجال

لو لم تقع المحنة ل بقي اسم أحمد في التاريخ بسبب شيء آخر: أنه كان أحد الرجال الذين صنعوا علم نقد الحديث. وهذا العلم هو الذي حفظ للأمة أن تعرف ما قاله نبيها ﷺ مما نسب إليه. ولم يكن أحمد وحده في هذا؛ كان معه يحيى بن معين وعلي بن المديني وشيوخهم يحيى القطان وابن مهدي. لكن أحمد كان، كما قال عبد الرزاق، «أجمعهم لذلك كله». X²⁶⁰

كيف يعرف الصادق من الكاذب؟

لم يكن نقد الحديث تخميناً. كان علماً له أدوات: أن تعرف الراوي، متى ولد ومتى مات ومن لقي ومن لم يلق، وأن تقابل روايته برواية غيره عن الشيخ نفسه، وأن تعرف هل كان يحدث من كتابه أم من حفظه، وهل تغير حفظه في آخر عمره، وهل كان يلقي فيتلقي. ثم تجمع ذلك كله وتحكم. وكان أحمد يحفظ في

٢٦٠ - ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، تحقيق التركي، ص 87-88، من رواية محمد بن سهل بن عسكر عن عبد الرزاق: «رحل إلينا من العراق أربعة من رؤساء الحديث»، ثم وصف الشاذكوني وابن المديني وابن معين وأحمد.

هذا الباب ما لا يحصى، وقد روى عنه ابنه عبد الله ذلك في كتاب «العلل ومعرفة الرجال»، وسأله فيه عن آلاف الرواة. ومن أمثلة توقفه أن عبد الله سأله عن عبد الحميد بن الحسن الهلالي، فقال: «لا أعرفه».²⁶¹ ومعرفة حكمه في راو بعينه تحتاج إلى جمع أجوبته فيه؛ فلا يجعل جواب واحد تفسيراً لمذهبه كله. وسئل عن أبي صيفي الذي يحدث عن مجاهد فقال: «ليس بثيء».²⁶² وقال في مروان بن سالم الذي يحدث عن صفوان بن عمرو: «ليس هو بثقة».²⁶³ وقال عن عمر بن هارون البلخي: «قد أكثرت عن عمر بن هارون، ولا أروي عنه شيئاً».²⁶⁴

٢٦١ — أحمد بن حنبل، العلل ومعرفة الرجال، رواية عبد الله، تحقيق وصي الله بن محمد عباس، دار الخاني، ط 2، 1422 هـ، رقم 1676.

٢٦٢ — رواه عبد الله بن أحمد؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/307.

٢٦٣ — أحمد بن حنبل، العلل ومعرفة الرجال، رواية عبد الله، تحقيق وصي الله عباس، رقم 4909. اللفظ: «مروان بن سالم الذي يحدث عن صفوان بن عمرو ليس هو بثقة».

٢٦٤ — الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/308.

كتب عن الرجل ثم ترك الرواية عنه. يبقى في هذا الفعل استعداد لمراجعة ما حصله؛ ولا يلزم منه أن جميع ما كتبه ضاع أو أنه لم ينتفع بمعرفته في نقد الروايات.

ويروى عنه إنكار جمع أسانيد مختلفة في متن واحد في أخبار الواقدي.²⁶⁵ هذا اعتراض على طريقة معينة في سوق الخبر، ولا يفيد وحده أن نقده للواقدي اقتصر عليها، أو أنه لم يتكلم في صدقه وضبطه من جهات أخرى.

الصدق مع الشيخ والصاحب

لم يكن القرب يغير حكمه. قال في إسحاق بن راهويه، وهو صديقه وإمام خراسان: «لم يعبر الجسر إلى خراسان مثل إسحاق، وإن كان

٢٦٥ - الخطيب البغدادي، تاريخ مدينة السلام، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط 1، 1422هـ/2001م، 24/4-26، ترجمة محمد بن عمر الواقدي. وردت عبارة «بلغني أن أحمد أنكر عليه جمعه الرجال والأسانيد في متن واحد» عن إبراهيم الحربي، وهي بلاغ لا يثبت به وحده سماعه هذا الحكم من أحمد. وفي السياق طريق آخر بلفظ «سمعت أحمد»، وطريق فيه «بعض مشايخنا»؛ فلا تندمج الطرق ولا يصحح بعضها بمجرد وجود بعض. وتعقيب الحربي بمشابهة فعل غيره اعتراض منه، لا تراجع ثابت من أحمد ولا دليل على اقتصار نقده على هذه المسألة؛ وفي الترجمة نفسها أخبار نقده تركيب الأسانيد وقلبها.

يخالفنا في أشياء، فإن الناس لم يزل يخالف بعضهم بعضاً».²⁶⁶
 فأثبت إمامته، وأثبت الخلاف معه، وقال إن الخلاف لا يسقط
 الإمامة. ولو كان أهل زماننا يقولون هذا بعضهم في بعض لقل
 الشر. X

وكان إذا سئل عن الرجل وهو حاضر يأبى أن يحدث وهو
 موجود، كما مر في خبر إبراهيم بن سعد. وكان إذا جاءه محدث
 ثقة قام إليه وأمر أصحابه أن يكتبوا عنه. دخل عليه محمد بن يحيى
 الذهلي، محدث نيسابور، فقام إليه أحمد، وتعجب الناس، ثم قال
 لبيه وأصحابه: «اذهبوا إلى أبي عبد الله فاكتبوا عنه».²⁶⁷

وفي هذا الباب كان يرى أن الحديث إذا صح لزم القول به، وأن
 الرأي لا يقدم عليه. قال حنبل: سألت أبا عبد الله عن الأحاديث
 التي تروى عن النبي ﷺ: «إن الله ينزل إلى سماء الدنيا» فقال:
 «نؤمن بها، ونصدق بها، ولا نرد شيئاً منها إذا كانت أسانيد
 صحاحا، ولا نرد على رسول الله ﷺ قوله، ونعلم أن ما جاء به

٢٦٦ — رواه أحمد بن حفص السعدي؛ ابن عدي، الكامل، ترجمة إسحاق؛ والمزي،
 تهذيب الكمال، 2/381.

٢٦٧ — الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/298.

حق». ²⁶⁸ وهذا من تقريره قبول الخبر الثابت. ويظهر في سيرته استعمال النظر في نقد الطريق وفهم الدلالة والجمع بين النصوص؛ فلا تختزل وظيفة الفهم في فحص الإسناد وحده.

ما كتب حديثاً إلا عمل به

ومن كلام أحمد الذي رواه المروزي: «ما كتبت حديثاً إلا وقد عملت به، حتى مر بي أن النبي صلى الله عليه وسلم احتجم وأعطى أبا طيبة ديناراً فاحتجمت وأعطيت الحجام ديناراً». ²⁶⁹ ينقل هذا الخبر صلته بالحديث من باب الحفظ والنقد إلى باب العمل والاعتداء. X

وقد نقل عنه في مرضه الأخير أنه طلب من ابنه أن يخرج له الحديث الذي فيه أن طاووساً كان يكره الأئین، فقرأه عليه، فلم يئن حتى الليلة التي مات في صبيحتها. ²⁷⁰ فهذا رجل يبحث في

٢٦٨ — رواه حنبل. الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/303-304.

٢٦٩ — الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/296، رواية الخلال عن المروزي عن أحمد.

٢٧٠ — الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/215، 341. في رواية صالح: «فلم يئن إلا

ليلة وفاته»، وفي رواية عبد الله: «فما سمع له أنين حتى مات». يحفظ اختلاف اللفظ، ولا يستخرج من الخبر تحريم مطلق الأئین.

مرض موته عن أثر عن تابعي ليعمل به في أئنه. ومن كان هذا
شأنه مع أثر عن تابعي، فكيف كان شأنه مع ما صح عن النبي
ﷺ؟

الفصل التاسع والثلاثون: كيف تقرأ المسند؟

بقي من عمل أحمد كتاب واسع يجمع أحاديث الصحابة: المسند. ما صورته، وكيف رتب، وما الذي يظهر فيه من علم الرجل الذي صحبناه؟ من هذه الأسئلة نقرب من كتابه.

ما معنى مسند؟

المسند في اصطلاح المحدثين كتاب يرتب الأحاديث على أسماء الصحابة الذين رووها، لا على الموضوعات. فإذا أردت أحاديث أبي هريرة ذهبت إلى مسند أبي هريرة فوجدتها مجموعة في موضع واحد، في الطهارة والصلاة والبيع والتفسير وغيرها، لأن الجامع لها هو الراوي لا الباب. وهذه الطريقة تعين على جمع روايات الصحابي، ويحتاج الباحث في مسألة فقهية إلى تتبع مواضعها أو الاستعانة بفهارسها. أما الترتيب على الأبواب فله فائدة أخرى، وقد عرفه التأليف قبل اكتمال مسند أحمد، كما في الموطأ ومصنف عبد الرزاق؛ ثم جرى عليه البخاري وأبو داود وغيرهما. فهذه طرائق متجاورة في خدمة الحديث، ولا يستقيم جعل إحداها مرحلة لا تبدأ إلا بانتهاء الأخرى.

وقد بدأ أحمد مسنده بمسانيد العشرة المبشرين بالجنة، فأبي بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي، ثم أهل البيت، ثم بقية الصحابة على ترتيب

ليس بالدقيق، ثم مسانيد المكيين والمدنيين والشاميين والكوفيين
والبصريين، ثم مسانيد النساء. وفيه مسانيد صحابة لم يرو لهم إلا
حديث واحد.

كم فيه؟

ذكر ابن الجوزي أن المسند يضم ثلاثين ألف حديث، وروى عن
حنبل أن أحمد انتقاه من أكثر من سبعمئة وخمسين ألفاً. هذه
أعداد منقولة في كتب التراجم، ولا نتخذها إحصاءً محرراً لطبعة
بعينها. وتحتاج المقارنة بين أعداد الأحاديث إلى بيان طريقة العد،
وما يدخل فيها من المكرر والطرق والزوائد. ^{X 271}

ما الذي فيه وما الذي ليس فيه؟

في المسند ما في الصحيحين وما ليس فيهما. ففيه الصحيح والحسن
والضعيف، وليس مجرد إخراج أحمد للخبر حكماً بصحته. وقد نبه
الذهبي إلى ذلك، وإلى زيادات عبد الله فيه. وناقش الحفاظ ما
انتقد من أحاديثه، ومنهم ابن حجر في «القول المسدد في الذب عن

٢٧١ - ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، تحقيق عبد الله التركي، ص 261-262.

النص الأول من كلام ابن الجوزي، وخبر الانتقاء مروي بإسناده إلى حنبل. ذكر العدد
في المصدر لا يغني عن دراسة طريقة العد.

مسند أحمد»؛ ويرجع إلى دراسة كل حديث بطريقة، ولا يستعاض عن ذلك بنسبة إجمالية. فلا يصح أن يقال: كل ما في المسند صحيح، ولا أن يقال: المسند كتاب ضعاف. والمحدثون من بعد أحمد يبنوا درجات ما فيه، حتى جاءت الطبعة المحققة فحكت على كل حديث.

وروى حنبل عنه أنه انتقى مادة المسند من جمع كبير، وأمر بالرجوع إليه فيما اختلف فيه من الحديث. وتعقب الذهبي ما قد يفهم من هذه العبارة، فذكر أن في الصحيحين أحاديث ليست في المسند، وأن وجود الخبر فيه لا يلزم منه أن يكون حجة.²⁷² لهذا لا تجعل العبارة شرطاً يحصر السنة الصحيحة في كتاب واحد، ولا ينسب إلى أحمد تفسير لم يصرح به.

الزيادات

وينبغي التمييز في الكتاب بين رواية عبد الله عن أبيه وزياداته عن شيوخه، وبين ما ينسب إلى القطيعي من طريقه. ولا يكفي النظر إلى أول كلمتين من الإسناد؛ بل يقرأ الطريق كاملاً وصيغة

٢٧٢ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/329؛ قرئت رواية حنبل وتعقيب الذهبي في

صورة الصفحة من طبعة مؤسسة الرسالة.

الأداء، ويرجع إلى بيان المحققين في الطبعة المستعملة. وقد تقدم مثال مصرح فيه برواية عبد الله عن شيخ غير أبيه.

كيف يقرؤه غير المتخصص؟

إن أردت أن تقرأ المسند لتعرف حديث صحابي، فاقراً مسنده في الطبعة المحققة واقراً الحكم على كل حديث في حاشيته، ولا تأخذ حديثاً منه لتعمل به أو تنقله حتى تنظر في حكمه. وإن أردت أن تقرأه لتعرف أحمد، فانظر في طريقته: كيف يروي الحديث الواحد من طرق متعددة، وكيف يذكر الاختلاف بين الرواة، وكيف يقول في بعض المواضع: ليس هذا بشيء، أو: هذا منكر. فذلك هو الرجل الذي صحبته في هذا الكتاب، في كتابه.

الفصل الأربعون: الصحابة في قلبه

جمع أحمد ما روي في فضائل الصحابة، وحمله عنه ابنه عبد الله. لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وأهل البيت وغيرهم مواضع في هذا الجمع. ويظهر من اختياره وما حفظ من أقواله تقديره لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في زمن اشتد فيه الخلاف حولهم.

الزمان

تكشف أخبار ذلك العصر اختلاف الناس في بعض الصحابة وفي ترتيب الفضل والخلافة. ويقرأ موقف أحمد من الأخبار التي حفظت قوله، لا من مشهد عام نتخيله للمجالس وما كان يقال في كل واحد منها.

قوله الذي ثبت

ومن أصول السنة المروية عن أحمد: «ومن انتقص واحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أبغضه لحدث كان منه، أو ذكر مساويه كان مبتدعاً حتى يترحم عليهم جميعاً ويكون قلبه

لهم سليماً».²⁷³ وفي ترتيب الخلفاء كان يقول بما استقر عليه أهل السنة: أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي. وكان شديداً في إثبات خلافة علي. روى ابن أبي يعلى بسنده عن أحمد بن زرارة المقرئ قال: سمعت أحمد بن حنبل يقول: «من لم يربع بعلي بن أبي طالب في الخلافة فلا تكلموه ولا تناكوه».²⁷⁴ وأورد ابن الجوزي عنه: «من لم يثبت الإمامة لعلي فهو أضل من حمار أهله».²⁷⁵ X

ومعنى الترييع: أن يجعل علي رابع الخلفاء الراشدين. وكان في زمن أحمد من أهل الحديث من يتوقف في خلافة علي لأن الناس اختلفوا عليه، فقال أحمد كلمته هذه، وقال لمن سأله: عمر خير من ابنه، وقد رضي عليا للخلافة وأدخله في الشورى؛ وعلي سمي نفسه أمير المؤمنين فأقول أنا: ليس بأمر المؤمنين؟²⁷⁶ فكان الذي يحب الشيخين لا يرى حبهما نقصاً من علي.

٢٧٣ — ابن أبي يعلى، طبقات الحنابلة، 1/245، أصول السنة من رواية عبدوس بن مالك.

٢٧٤ — ابن أبي يعلى، طبقات الحنابلة، 1/45، ترجمة أحمد بن زرارة المقرئ.

٢٧٥ — ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، ص 220. لفظه: «من لم يثبت الإمامة لعلي فهو أضل من حمار أهله».

٢٧٦ — الخبر في طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى، ترجمة أحمد بن زرارة؛ بالمعنى.

عثمان

وحفظت أم عمر بنت حسان عن أبيها كلاماً لأحمد في عثمان،
استشهد فيه بقوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾.²⁷⁷
يجري هذا اللفظ القرآني في الأعراف: 43 والمجر: 47، ولا يحدد
الخبر أي الموضعين قصد. X

علي وأهل البيت

وحفظ الحاكم عن محمد بن منصور الطوسي أنه سمع أحمد يقول:
«ما جاء لأحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من
الفضائل ما جاء لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه».²⁷⁸ يؤخذ هذا
الثناء مع ما سبق من إثباته خلافة علي وفضله، من غير أن تبدل
ألفاظه بألفاظ رواية أخرى. X

٢٧٧ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/308-309، من رواية أم عمر بنت حسان
عن أبيها.

٢٧٨ - الحاكم، المستدرک علی الصحیحین، 3/107، في افتتاح مناقب علي، من رواية
محمد بن منصور الطوسي عن أحمد.

لماذا كان هذا مهما؟

تظهر هذه الأخبار جمعه بين معرفة مراتب الصحابة وإثبات فضائلهم والكف عن سبهم. ولا تحتاج هذه الدلالة إلى أن نزعم أن كل من جمع محبتهم اتهم من جميع الجهات.

والذي يؤخذ منه: أن الرجل كان يرى أن حب الناس الذين صحبوا النبي ﷺ دين، وأن الخوض في ما كان بينهم باب إلى بغض بعضهم، وأن أول ما يفسده الجدل هو القلب.

الباب الخامس: العابد والإنسان

الفصل الحادي والأربعون: من أيامه

حفظ ابنه من طعامه ودعائه ما لم يعرفه الزائر، وراه صاحب في الصلاة، وجالسه آخر في الحديث. من هذه الأخبار المتفرقة تقترب من أيامه: بيت وعلم وعبادة، وحاجات تأتيه كما تأتي غيره من الناس.

حين يبقى الصوت في البيت

كان عبد الله يسمع أباه يدعو في السحر لأقوام بأسمائهم، ويسأله عن ذلك فيعرف موضعهم من نفسه. ليست الصحبة عنده ذكر اسم في مجلس الثناء وحده؛ يمتد حق الصاحب إلى ساعة لا يسمع فيها الدعاء من دعا له. ²⁷⁹X

وتظهر في أخبار عبادته وفي كراهته مشي الناس وراءه عناية بخفاء العمل. أما قصد كل قراءة بعينها فلا نجزم به؛ الشاهد هنا ما سمعه عبد الله من دعائه لأصحابه.

ولم يكن الانفراد غاية تنهي صلته بالخلق. إذا جاء أبو زرعة وتذاكرا الحديث قدّم الاشتغال معه على نافلة كان يمكن أن

يصلها.²⁸⁰ عرف للعلم المشترك وقته، وللعبادة المنفردة وقتها. ولو أخذنا من حياته صلاة الليل وحدها، ثم جعلناها تغلب كل واجب وكل حق، لما قرأنا طريقته كما عاشها.

الكتب قريبة من اليد

رآه من دخل عليه وبين يديه كتبه، وحوله أثاث قليل. كانت الكتب جزءاً من المكان الذي يعيش فيه، وليست زينة خلف مجلس يستقبل فيه الناس. يقول عبد الله إنه قلما رآه يحدث من غير كتاب إلا في أحاديث يسيرة.²⁸¹ وبعد أن شهد له الحفاظ بما شهدوا، بقي يرجع إلى المكتوب. لا يرى أن سعة الحفظ تعفيه من وسيلة تضبطه. X

وكانت له مع أصحابه مراجعة للكتب. عرض ومقابلة وسؤال، ثم تثبيت لما يتبين. لا تنتج الأمانة العلمية من إعلان حب الحقيقة وحده؛ تحتاج إلى وقت يبذل في النظر مرة ثانية، وإلى صاحب يسمح له أن يقول: في هذا الموضع خطأ.

٢٨٠ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/228.

٢٨١ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/213، 326.

إذا رأيناه يخرج إلى مجلس يحمل المحبرة والكتب، فقد رأينا عاداته القديمة وهي تبلغ الشيخوخة. وبين الفتى الذي يسمع من هشيم والشيخ الذي يقصد من الآفاق خيط لم ينقطع: لا يزال طالباً للضبط، ولا يزال الكتاب مرجعاً يرجع إليه.

بعد العصر

ذكر المروزي أنه كان يجلس بعد العصر، وأنه لا يتكلم حتى يسأل.²⁸² في زمن تتسابق فيه الأصوات على أخذ المجلس، تكشف هذه العادة عن مقدار ما يرى للكلام من تبعه. لا يلزم الداخل أن يتلقى خطبة كلها دخل، ولا يلزم العالم أن يبرهن على علمه في كل جلسة. X

يجيء السؤال فيجيب على قدره: كلمة، أو توقف، أو حديث وأثر ومقارنة. حفظت كتب المسائل أجوبة صدرت في ساعات متفرقة، وأبقت لنا حركة علمه مع السائلين على امتداد العمر.

خبز وملح وحاجة إلى دفء

في أخباره خبز وباقل وملح وخل، وفيها طعام أجود تناوله ورضيه. وقال إنه رقيق في البرد، ولبس ما يتقي به البرد، ووصف

ما يجده في أطرافه.²⁸³ لا يصح أن نخفي هذه التفاصيل لنصنع جسداً لا يحتاج. إنه يبرد، ويجوع، ويمرض، ويطلب ما يخفف عنه. X.

وقد ضاق عيشه على أهله كما رأينا. لكنه كان إذا جاء محتاج أعطاه، وإذا عرف ضيق صاحب واساه مما عنده، حتى قال في شيء قسمه: هذا نصف ما عندنا. وعظمة العطية في هذه الحال لا تقاس بعدد الدراهم وحده؛ تقاس بمقدار ما تركته في البيت حين خرجت منه.

ضحكة لا تناقض الهيبة

قال المروزي إنه دائم البشر، لين الجانب. ووردت عنه كلمات فيها لطف وتبسم. سئل عن استعمال محبرة بغير إذن في موقف تخرج فيه السائل، فأجابه بما يكسر غلو الاحتياط: لم يبلغ ورعي ورعك هذا.²⁸⁴ ليست كل جدية عبوساً، ولا كل ورع تضيقاً. ورب كلمة لطيفة أعادت المسألة إلى حجمها أكثر مما يفعل درس طويل. X.

٢٨٣ — الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/220، 326.

٢٨٤ — الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/225.

أما هيئته فكانت مما وجدته من جلس إليه، لا مما بناه بالحرس
والباب الواسع والثوب النفيس. كان الناس يشاهدون رجلاً
يجعل لما يقوله وزناً في فعله، ويصمت عما لا يعلم، ثم يرويه لا يبيع
هذا كله حين يخاف أو حين يرجو. تتكون الهيبة من هذا
الاجتماع، ويظل صاحبها قادراً على أن يبتسم لطفل أو يلاطف
سائلاً.

حين يمشي في الطريق

يعود من سفر أتعبه، فيطلب من قريبه أن يتقدم كي لا يعرفه
الناس. وقد رأيناه لا يريد موكباً خلفه. ليست كراهة الشهرة هنا
خوفاً من بذل العلم؛ لقد بذله وتحمل بسببه. وتساعد أقواله في
كراهة الشهرة على فهم امتناعه من الموكب، دون أن ننسب إليه
في كل واقعة خاطراً لم ينقله صاحبها.

ومع ذلك صار اسمه معروفاً، وصارت أخباره تصل إلى القصر
كل يوم. عاش التوتر بين رغبة في خفاء العمل وحقيقة أن الناس
يرون فيه إماماً. لم يستطع أن يلغي الشهرة، لكنه استطاع في
مواضع كثيرة أن يختار كيف يعاملها: لا يسأل بها مالاً، ولا
يجعلها حجة للفخر على أصحابه، ولا يدعها تبيع له الكلام بغير علم.
هكذا تمر الأيام في الشواهد التي بقيت: صلاة، وكتاب، وسؤال،
وأهل، ومرض، وصاحب، وصدقة، وطلب خفاء. وفي هذه

الحركة المتكررة نما الثبات الذي ظهر للناس في يوم الضرب. لم يبدأ أحمد يوم دخل القصر؛ دخل القصر ومعه عمره كله.

الفصل الثاني والأربعون: الثوب والخبز وحرمة الدرهم

«أنا رقيق في البرد».

قالها أحمد وهو يضحك، حين رأى أبو عمران الوركاني ما عليه من الثياب. كان الفضل بن زياد يراه في الشتاء يلبس قميصين، وبينهما جبة، وربما لبس فرواً ثقيلاً، وربما جمع في البرد الشديد ما يقيه.²⁸⁵

هذه الضحكة الصغيرة نافذة إلى جسد الرجل. لقد عرفت سيرته احتمال الألم، لكن احتمال ما ينزل بالإنسان لا يعني أن يطلب الألم في كل يوم. يبرد فيلبس، ويعتل فيتعالج، ويستدفئ بالنار. ويذكر صالح أنهم كانوا يشترون له في الشتاء أصول الشوك، فيوقدون بها في كانون ضيق يصطلي به.²⁸⁶

ولهذا سمى ابن الجوزي باباً من سيرته: «في ذكر رفقه بنفسه». باب قصير، لكنه يعيد التوازن إلى القراءة. فمن يرى الثوب المرقع

٢٨٥ — ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، الباب الثامن والأربعون، رواية الخلال عن الفضل بن زياد.

٢٨٦ — ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، الباب السابع والأربعون، رواية ابن أبي حاتم عن صالح.

وحده قد يحسب أن صاحبه يقصد إلى الخشونة في كل شيء، ومن يراه يرد طعام القصر قد يحسبه يرد كل طعام طيب. ثم تأتي الأخبار بما يبين اختلاف الأحوال: منشأ المال، وموقع الهدية، وحاجة البدن، والعادة التي يخشى أن تستولي عليه.

قطن نظيف

يصف الميموني ثيابه بأنها بين الرقيق والغليظ، لا رقة تنكر ولا غلظ ينكر. ويقول حمدان بن علي إنها قطن نظيف، وأن لباسه تحسن في آخر عمره حين استغنى ولده عن بعض الغلة التي كان يستعين بها. كان تغير الحاجة داخل الأسرة يؤثر في مقدار ما يستطيع أن ينفقه على نفسه؛ ليس الثوب علامة منفصلة عن حساب البيت. وهذه طائفة من شهادة من رآه في فصول السنة:

قال: سمعت عبد الملك بن عبد الحميد الميموني، قال: كانت ثياب أحمد بن حنبل بين الثوبين، تساوي ملحفته خمسة عشر درهماً، وكان ثوب قيصه يؤخذ بالدينار ونحوه، لم تكن له رقة تنكر؛ ولا غلظ ينكر، وكانت ملحفته مهذبة.

أخبرنا ابن ناصر، قال: أخبرنا عبد القادر بن محمد، قال: أنبأنا إبراهيم ابن عمر، قال: أنبأنا عبد العزيز بن جعفر، قال: حدثنا أبو بكر أحمد بن محمد الخلال، قال: حدثنا محمد بن موسى، أنه سمع حمدان بن علي يقول: إن أبا عبد الله لم يكن لباسه بذاك؛ إلا أنه قطن نظيف،

وكان بأخرة في لباسه أجود لما كان يستعين بالغلة لما استغنى ولده عنها.

قال الخلال: وحدثنا محمد بن الحسين: أن الفضل بن زياد حدثهم قال: رأيت علي أبي عبد الله في الشتاء قميصين وجبة ملونة بينهما، وربما لبس قميصاً وفرواً ثقيلاً، وربما رأيت عليه في البرد الشديد الفرو فوق الجبة، ورأيت عليه

عمامةً فوق القلنسوة وكساءً ثقيلاً، فسمعت أبا عمران الوركاني يقول له يوماً: هذا اللباس كله؟ فضحك ثم قال: يا أبا عمران، أنا رقيق في البرد. وربما لبس القلنسوة بغير عمامة.

قال الخلال: وأخبرني منصور بن الوليد، أن جعفر بن محمد حدثهم قال: رأيت علي أبي عبد الله جبة برد معقدة، وقلنسوة وعمامة، وكان في الشتاء أحياناً يلبس الفرو، وأحياناً الجبة، وربما جمعهما.

قال الخلال: وأخبرني جعفر بن محمد بن مغيرة، قال: رأيت علي أبي عبد الله في الصيف قميصاً وسراويل ورداء، وربما لبس قميصاً ورداء، واتشح بالرداء، وكان كثيراً ما يتشح فوق القميص. ^{X 287}

٢٨٧ — ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، الباب الثامن والأربعون؛ أخبار الميموني وحمدان والفضل وجعفر. هي أوصاف في أوقات مختلفة.

كان يأتي الشتاء بثقله، والصيف بخفته، فيتغير اللباس. وقد يرى أحد أصحابه عليه شيئاً لا يراه الآخر؛ لا يتعارض ذلك إذا اختلف الوقت. والسيرة التي تتعجل جمع الصفات في صورة جامدة تفقد حركة الحياة: ليس الرجل ثوباً واحداً يحمله من صباه إلى وفاته، وليس كل ما نقله شاهد في يوم قاعدة لازمة لكل يوم.

ومع نظافة الثوب، بقي الإصلاح والترقيع جزءاً من عادته. يذكر صالح قلنسوة خاطها أبوه بيده وجعل فيها قطناً، فإذا قام بالليل لبسها. ويذكر المروذي أنه احتاج إلى رقعة لقميصه فقطعها من إزاره. شيء من اللباس يعين شيئاً آخر، وثوب قديم يبقى قابلاً للخدمة بعد أن زال جديده.²⁸⁸

لم تكن هذه الأعمال أدنى من منزلته. اليد التي كتبت الحديث تستطيع أن تصلح ما يقي الرأس في الليل، والرجل الذي يقصده العلماء لا ينتظر في كل حاجة صغيرة من يؤديها عنه. وليس لنا أن نحول القلنسوة إلى رمز كبير يفسر كل حياته؛ لكنها تبقى معنى الاعتماد على النفس محسوساً أمام القارئ.

٢٨٨ — ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، الباب الثامن والأربعون، خبري صالح والمروذي في القلنسوة والترقيع.

خف يعرف صاحبه

صنع المروزي له خفًا، ثم رآه يردده بعد ليلة ويدفع إليه خفه القديم ليرقهه. حفظ لنا المروزي عبارته وما شغله:

قال: استعمل لأبي عبد الله خف، فجئته به، فبات عنده ليلة، فلما أصبح قال لي: تفكرت في أمر هذا الخف - أراه قال: عامة الليل - قد شغل علي قلبي قد عزم لي أن لا ألبسه، كم ترى بقي؟ الذي مضى أكثر مما بقي. فدفع إلي خفًا له خلقًا فقال: اضرب على هذا الموضع رقاعًا وسدد خروقه. ثم قال: تدري منذ كم هذا الخف عندي؟ نحو من ست عشرة سنة، وإنما صار إلي وهو لبس، وهذا قد شغل علي قلبي - يعني الجديد -. X²⁸⁹

في هذا الخبر زمانان: السنوات التي بقي فيها الخف عنده، والوقت الذي يرى أنه بقي له من العمر. الجديد شغله، فعاد إلى ما يألفه ويكفيه. ولم يجعل ذلك حكا على الناس جميعًا؛ هو حديث رجل عن شيء وقع في قلبه، وعن اختيار رآه أسلم له في آخر الطريق. وربما كان يسيرًا على قارئ موسر أن يعجب بقدم الخف، ثم يمضي إلى ما اعتاده من الاستكثار. لكن العبرة لا تقوم على أن يبحث

٢٨٩ - ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، الباب الثامن والأربعون، خبر المروزي في الخف.

عن خف مثل خفه؛ تقوم على أن يعرف الأشياء التي تستولي على قلبه فوق حاجته. كان أحمد قادراً على ملاحظة هذا الاشتغال، وعلى أن يغير فعله بسببه، ولو لم ير الناس في الشيء الجديد بأساً.

مورد قليل يستطيع أن يعرفه

لم يكن معاشه كله معلقاً بباب يطرقة السائل. خلف له أبوه داراً وطرزاً يكرهها، فكان له من غلتها مورد يتعفف به.²⁹⁰ والطرز مواضع تتصل بالنسيج والعمل، كما يدل خبر الحاكة في داره. بقي هذا المورد قليلاً، لكنه كان معلوماً لديه، قريباً من قدرته على التحري. وقد عرض عليه المروزي رأي رجل يرى أن ترك الغلة والاعتماد على صديق يصنع له طعاماً أفضل. لم يجد أحمد في ذلك التحرر الذي تخيله صاحبه، بل رأى عادة قد يتعذر على النفس الصبر عنها: X

قال المروزي: سمعت أبا عبد الله، يقول: الغلة ما يكون قوتنا، وإنما أذهب فيه إلى أن لنا فيه شيئاً. فقلت له: قال رجل: لو ترك أبو عبد الله الغلة، وكان يصنع له صديق له، كان أعجب إلي. فقال: هذه طعمة سوء. ومن تعود هذا، لم يصبر عنه. ثم قال: هذا أعجب

٢٩٠ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/319-320 ناقلا كلام ابن الجوزي وأخبار

المروزي في الغلة؛ وابن الجوزي، المناقب، باب ذكر معاشه.

إلي من غيره، يعني: الغلة. وأنت تعلم أنها لا تقيمنا، وإنما أخذها
على الاضطرار. X²⁹¹

في هذه المحاورة يتبين وجه استقلال لا يحتاج إلى الغنى. يعرف
أحمد أن الغلة لا تكفيه، ومع ذلك يفضلها على طعام يعتاده من
يد صاحب حتى يصير تركه شاقاً. ليس الصديق متهماً في الخبر،
إنما يخشى الرجل على نفسه من الاعتیاد والتعلق. وقد يقبل من
صديق في موضع آخر ويقضي ما استقرضه، فلا تختزل كثرة
أحواله في شعار واحد.

وللمورد تبعة أيضاً. كان ينظر في أمر الأرض التي فيها داره وفيما
يلزمه عنها، ويذهب في ذلك إلى قول عمر في أرض السواد.²⁹²
يجمع هنا بين الانتفاع والسؤال عما عليه من حق. ليست الورعيات
عنده ثياباً وطعاماً فحسب، بل صلة بما خلفته الفتوح من أحكام
الأرض وما يجري عليها من مال.

٢٩١ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/320.

٢٩٢ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/319 خبر ابن المنادي عن جده عن أحمد.

الطعام الذي دخلته حبة

وكان في البيت مال يخص الصبيان، ومال يخص أهمهم، ومال يدفعه الأب في حاجته. قد يراها الخادم دراهم قليلة يجمعها شراء واحد، لكن أحمد يطلب أن يبقى لكل مال وجهه. دفع إلى إسحاق بن إبراهيم بن هاني قطعة ليشتري له باقلاء، وأعطته حسن قطعة للصبيان، ففضل من مالهم شيء اشترى به زيتاً وجعله على طعام أحمد. نظر إلى أثر الزيت، وسأله، فلما عرف لم يأكله.²⁹³

قد تبدو الحبة شيئاً لا يغير الحساب، لكنها هنا تكشف صاحبه. لم يجعل الأبوة إذناً مبهماً في أن تختلط الأموال حيث شاء من يشتري، ولم يقبل أن يضاف إلى طعامه ما لم يأمر به من مال غيره. وكان في عتابه شدة حفظها الراوي كما وقعت، فلم يكتف بصورة لطيفة تخفي طريقة تأديبه لمن استعان به.

وفي خبر آخر، أهدى صاحب لصالح حين ولد له مولود، ثم أراد بعد أشهر كتاباً من أحمد إلى شيخ البصرة. كلم صالح أباه، فقال: «لولا أنه أهدى إليك كنت أكتب له».²⁹⁴

٢٩٣ — ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، ص 351-352؛ وخبر الهدية وعبرة

«لولا أنه أهدى...» في ص 354.

لا يلزم أن يكون المهدي قد اشترط شيئاً حين أهدى. يكفي في فهم موقف أحمد أنه خشي أن تدخل الهدية في صلته العلمية بالرجل، أو أن تصبح الكتابة مقابلة لاختصاص ابنه بالعطاء. لقد وضع حداً قبل أن يصير الأمر عادة يُعرف بها بابه: يهدى إلى أهل العالم، ثم يطلب منه ما ترحح الهدية حصوله.

هكذا يصل الدرهم الصغير إلى السؤال الكبير نفسه الذي ظهر في مال الخليفة. تتفاوت المقادير، وتتفاوت الأخطار، ويبقى عند أحمد حرص على أن يعرف وجه ما يأخذ ووجه ما يعطي. ومن عاش هذه الدقة في يومه كان رفضه للكيس الكبير امتداداً لطريق قديم، وإن كانت المحنة قد جعلت ثمن الطريق أشد.

إعلان الدخول

ثم نعود إلى باب الدار. كان إذا أتى من المسجد ضرب برجله ليسمعوا صوت نعله، وربما تنحج ليعلم أهله بقدومه.²⁹⁵ لم يكن البيت مكاناً يلغى فيه حق من داخله لأن صاحبه يريد أن يدخل.

٢٩٤ - ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، الباب التاسع والأربعون، رواية ابن أبي حاتم عن صالح.

٢٩٥ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/318.

صوت صغير يسبق الخطوة، فيستعد أهل البيت، ثم يدخل الرجل
بينهم X.

هذه خاتمة تصلح لقراءة أيامه: ليس كل أدب خطبة، وليس كل
احترام هدية. قد يكون علامة يسمعها من وراء الباب، وقد يكون
أن لا يوقظ الصديق في السحر، وقد يكون أن يدعو الخادم إلى
طعام قدم لطفل. وحين تجتمع هذه التفاصيل مع علمه وثباته،
يخرج أحمد من الصورة البعيدة التي لا نرى فيها إلا السوط
والعمامة، ويقترّب رجلاً عاش مع الناس، يحتاج ويعطي، ويتحرى
في القليل ما يتحرى في الكثير.

الفصل الثالث والأربعون: الورع في فتواه

حفظ المروزي أسئلته وأفعاله في الكسب والشراء والهدية والجار. يعود الورع هنا إلى السوق والبيت والمعاملة، فتكتمل به صورة الرجل الذي رأيناه في مجلس الخليفة.

الكسب أولاً

أول ما يلفت القارئ في كتاب الورع أن أحمد لم يكن يدعو الناس إلى ترك الكسب. قال المروزي: «سمعت أبا عبد الله يقول: قد أمرتهم أن يختلفوا إلى السوق وأن يتعرضوا للتجارة. يعني ولده». وقال أحمد: «قد روي عن عائشة عن رسول الله ﷺ: إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وإن ولده من كسبه». X²⁹⁶

فالرجل الذي كان يأكل الكسر المبلولة أمر أبناءه أن يذهبوا إلى السوق ويتجروا. ولم ير أن زهده يلزم أحداً. وبوب المروزي لما يكره من ترك السوق والعمل. ولا يكفي عنوان الباب للحكم بكراهة كل انقطاع عن عمل؛ فالأحوال تختلف باختلاف القدرة والنفقة

٢٩٦ — أحمد بن حنبل، الورع، رواية المروزي، تحقيق سمير الزهيري، دار الصميعي، 1418 هـ، ص 25، الرقمان 78-79. وحديث عائشة أخرجه أبو داود، رقم 3528، والترمذي، رقم 1358، وقال: حسن صحيح.

الواجبة وما يقوم به الإنسان من مصالح أخرى. وهذا ينفي ما قد يظنه القارئ من فصول هذا الكتاب: أن الورع عند أحمد كان هروبا من الدنيا. كان الورع عنده أن تكسب حلالا وتتجنب الشبهة، لا أن تترك الكسب.

الشراء من حيث يكره

كان أحمد يتجنب الشراء من مواضع بعينها كان يقال إن مالها فيه شبهة. قال المروزي: «سمعت أبا عبد الله يقول في الرجل يشتري الشيء من الموضع الذي يكره: يرجع فيرده. وقد كنت اشتريت له شيئا فأخبرته أنه قيل لي: إنه من بستان رجل يكره، فرددته. فقال لي: قد أحسنت حين رددته».^{X 297}

هذا جواب في واقعة ورع محددة. ولا يستفاد من لفظ «يكره» وحده أنه أراد المكروه في الاصطلاح الفقهي المتأخر؛ فإن ألفاظ الأئمة تعرف بسياقها وجميع أجوبتهم. لذلك يبقى الخبر شاهداً على تحريمه في شراء معين، ولا يحول إلى قاعدة تلزم جميع الناس بترك كل ما تركه.

الجار الذي يؤذي

وفي الكتاب باب: كيف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قال المروزي: «قلت لأبي عبد الله: كيف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ فقال: باليد وباللسان وبالقلب، هو أضعف. قلت: كيف باليد؟ قال: تفرق بينهم. ورأيت أبا عبد الله مر على صبيان الكتاب يقتتلون ففرق بينهم».²⁹⁸

هذا مثال عملي من أمثله في إزالة الأذى: رأى صبياناً يقتتلون ففرق بينهم. لا يستوعب الخبر جميع أحكام التغيير باليد، لكنه يظهر أن المعروف القريب الذي يقدر عليه المرء لا يسقط عن اهتمام العالم.

وشكا المروزي إليه أذى جار بالمنكر، فأمره أن ينصحه فيما بينه وبينه. ولما أخبره بتكرار النصيحة، قال له: «أنكر بقلبك ودعه».²⁹⁹ راعى في جوابه الحال التي وصفها المروزي، فجاءت النصيحة على قدر القدرة والحاجة. كان يسمع السؤال وما وراءه من تعب صاحبه، ثم يذكر ما يراه له.

٢٩٨ - المروزي، الورع، ص 165، رقم 499.

٢٩٩ - أحمد بن حنبل، الورع، رواية المروزي، ص 165، رقم 500. أورد المعنى دون الجزم بلفظ الكلمة المختلف في ضبطها.

وتلتقي هذه الواقعة مع تحذيره من زيادة الشر في أخبار أخرى، على اختلاف أحكام الأشخاص والوقائع. جمع الأخبار يعين على فهم طريقته، بشرط أن يبقى لكل خبر سياقه. ويشرح ابن القيم في بحث مراتب إنكار المنكر أن الحكم يتغير بحسب ما يزول منه وما ينشأ بعده، وأن الإنكار الذي يخلف شراً أكبر ممنوع. هذا شرح فقهي لاحق يعين على النظر في العواقب، لا قول ننسبه إلى أحمد في هذه الواقعة.³⁰⁰

ما قبله وما رده

رأينا في فصل المال ما رده من الأموال. وفي كتاب الورع بابان: «ترك بعض الحلال مخافة الحرام» و«من ورث مالا فيه شبهة»، وفيهما مسائل تبين أنه كان يرى للرجل أن يترك بعض ما يحل له إذا خاف أن يحجره إلى ما لا يحل، وأن المال الموروث إذا كانت فيه شبهة نظر في أصله. وفي الورع اجتناب الحرام الواجب واحتياط في مواضع الشبهة؛ فلا يجعل كله تطوعاً، ولا يجعل كل

٣٠٠ — ابن القيم، إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية، ط 1، 1411 هـ، 3/11-12، فصل مراتب إنكار المنكر. يفرق بين زوال المنكر ونقصه وخلفه بمثله أو بما هو شر منه.

احتياط حَكماً لازماً للناس. وقد كان يقبل الهدية من أصحابه ويكافئ عليها، ويقبل الضيافة، ويرد ما يراه يربطه.

ما يستفاد

تظهر هذه الأخبار الورع في أعمال قريبة: كسب، وشراء، ونصيحة، وحفظ للحقوق. ولا يقرأ فعل واحد منها بعيداً عن بقيتها؛ فالتحري يحتاج إلى علم بالحق الذي للمرء والحق الذي عليه، وإلى تقدير ما يقدر على تغييره من غير زيادة للضرر.

ولعل أجمل ما في الكتاب كله صورة الشيخ يمر على صبيان الكتاب فيفرق بينهم. فالرجل الذي ثبت أمام الخليفة لم يكن يرى نفسه أكبر من أن يفرق بين صبيين يتضاربان في درب. وتذكرنا هذه الصورة ألا نغفل عن معروف قريب لأن أعيننا معلقة بالأعمال الكبيرة.

الباب السادس: الرحيل وما بقي

الفصل الرابع والأربعون: الصبيان عند الفراش

في ربيع الأول سنة إحدى وأربعين ومئتين اشتد مرض أحمد. بلغ سبعا وسبعين سنة، وصار يحتاج إلى يد صالح إذا أراد القيام. يعرف الابن الله، ويسأله عما أفطر عليه، ويعينه على ما يستطيع.³⁰¹

عاد البيت يتعاهد جسده، وفي هذه المرة يقترب الرحيل. تكاثر العائدون وضاق بهم الطريق، وصاروا يدخلون أفواجا. ظل صالح عند فراشه، يرى من ضعف أبيه ما لا يراه الذين عرفوا قوته في المحنة.

قال صالح:

وقال صالح: لما كان أول ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين ومائتين، حم أبي ليلة الأربعاء، وبات وهو محموم، يتنفس تنفسا شديدا، وكنت قد عرفت علته، وكنت أمرضه إذا اعتل، فقلت له: يا أبة، على ما أفطرت البارحة؟ قال: على ماء باقلى. ثم أراد القيام، فقال: خذ بيدي، فأخذت بيده، فلما صار إلى الخلاء، ضعف، وتوكل على. وكان يختلف إليه غير متطبب كلهم مسلمون. فوصف له متطبب قرعة تشوى، ويسقى ماءها، وهذا كان يوم

الثلاثاء، فمات يوم الجمعة، فقال: يا صالح. قلت: لبيك. قال: لا تشوي في منزلك، ولا في منزل أخيك. وصار الفتح بن سهل إلى الباب ليعوده فحجبته وأتى ابن علي بن الجعد فحبسته وكثر الناس. فقال: فما ترى؟ قلت: تأذن لهم، فيدعون لك. قال: أستخير الله، فجعلوا يدخلون عليه أفواجا، حتى تمتلئ الدار، فيسألونه، ويدعون له، ويخرجون، ويدخل فوج، وكثر الناس، وامتلا الشارع، وأغلقت باب الزقاق. وجاء جار لنا قد خضب، فقال أبي: إني لأرى الرجل يحبي شيئا من السنة فأفرح به. فقال لي: وجه فاشتر تمرا، وكفر عني كفارة يمين. قال: فبقي في خريقته نحو ثلاثة دراهم. فأخبرته، فقال: الحمد لله. وقال: اقرأ علي الوصية، فقرأتها، فأقرأها. وكنت أنام إلى جنبه، فإذا أراد حاجة، حركني فأناوله، وجعل يحرك لسانه، ولم يئن إلا في الليلة التي توفي فيها. ولم يزل يصلي قائما، أمسكه فيركع ويسجد، وأرفعه في ركوعه. قال: واجتمعت عليه أوجاع الحصر، وغير ذلك، ولم يزل عقله ثابتا، فلما كان يوم الجمعة، لاثنتي عشرة دخلت من ربيع الأول، لساعتين من النهار، توفي. ³⁰²X

٣٠٢ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/334-335؛ قول على الصورة. وانظر رواية صالح المباشرة، السيرة، ط3، ص121-123، وفيها فروق في الألفاظ والأسماء؛ لفظ النقل هنا للسيرة. واختلاف اليوم العددي للوفاة مبين في موضعه.

طلب كفارة يمين، وسأل عن الباقي من ماله، وأقر وصيته حين قرئت عليه. ما زالت في آخر العمر حقوق يتعاهدها. والوصية التي حفظها أهله تضمنت ديناً لفوران يقضى من غلة الدار.³⁰³ ليس اختتام مشهد انفصال عن الدنيا مع إهمال ما للناس فيها؛ تظل الذمة مشغولة حتى تؤدي الحقوق أو يبين طريق أدائها. X

كان أحمد قد كتب وصيته، فقال لصالح: «اقرأ علي الوصية».

فقرأها عليه فأقرها. وهذا نصها كما حفظه ابنه:³⁰⁴

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أوصى به أحمد بن محمد بن حنبل: أوصى أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون. وأوصى من أطاعه من أهله وقرابته أن يعبدوا الله في العابدين، ويحمدوه في الحامدين، وأن ينصحوا للجماعة المسلمين. وأوصى: أني قد رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً. وأوصى: أن لعبد الله بن محمد المعروف بفوران علي نحو

٣٠٣ — الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/281.

٣٠٤ — صالح بن أحمد، سيرة الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق فؤاد عبد المنعم أحمد، دار السلف، ط 3، 1415 هـ/1995 م، ص 123، في إقراره الوصية عند مرضه، ونص الوصية ص 105. لا يخلط وقت كتابتها بوقت إقرارها الأخير.

نحسين ديناراً، وهو مصدق فيما قال، فيقضى ما له علي من غلة الدار إن شاء الله، فإذا استوفي أعطي ولدي صالح وعبد الله ابنا أحمد بن محمد بن حنبل كل ذكر وأثنى عشرة دراهم، بعد وفاء ما علي لأبي محمد. شهد: أبو يوسف، وصالح وعبد الله ابنا أحمد بن محمد بن حنبل».³⁰⁵

يد الابن في الصلاة

كان صالح يمسكه في صلاته، ويعينه على الركوع والسجود والقيام. ثم ينام إلى جانبه، فإذا احتاج شيئاً حركه فناوله. تختصر هذه الحركة صلة امتدت عمراً: الأب الذي علم الابن، والابن الذي يحمل إليه حاجته في الليل. لا تحتاج هذه الصلحة إلى حوار طويل حتى نرى ما فيها.

ومن الخارج ظل خبر المرض يذهب إلى السلطان. حتى وهو على فراشه لم يخرج من دائرة مراقبة أخباره. وجاء من يبلغ رغبة

٣٠٥ — صالح بن أحمد، سيرة الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق فؤاد عبد المنعم أحمد، دار السلف، ط 3، 1415هـ/1995م، ص 105. اللفظ كما في الطبعة، وفيه «ولدي صالح وعبد الله ... كل ذكر وأثنى»، فلا تختزل عبارته في «ولد صالح» وحده. وفي حاشية المحقق عن المناقب: «بعد وفاء مال أبي عبد الله» بدل «بعد وفاء ما علي لأبي محمد». الشهادة مثبتة في ذيل الوصية.

الأمير في رؤيته، فذكر إعفائه مما يكره. كان يريد أن تبقى له هذه المسافة إلى آخر أيامه.³⁰⁶

«ادعوا لي الصبيان»

قبل الوفاة بيوم أو يومين، قال بلسان ثقيل: ادعوا لي الصبيان. جمعوا إليه، فجعل يشمهم ويمسح رؤوسهم، وعيناه تدمعان.³⁰⁷

اليدين التي عرف الناس ثبات صاحبها في المحنة تمسح الآن رؤوس الصغار. دعاهم في آخر عمره، وقربهم منه، وترك لهم ولمن شهدوا هذا اللقاء خبراً من حبه لأهله. وتكتمل به صورة الجد والأب التي رأينا شيئاً منها في زيارات الجمعة ومائدة البيت.

قربهم ومسح وشم وبكى. كانت الدموع من صورته التي حفظها أهل البيت، كما كان الثبات من صورته التي عرفها الناس. أحب أهله، وبقي لهذا الحب مكان في حياة امتلأت بالعلم والعبادة.

وشدد المروزي في وصف العلة وما لحقه من ضعف، وذكر طلبه تخليل الأصابع عند الوضوء. وبقيت عناية صغيرة بالفعل الذي يؤديه إلى جانب الخبر الكبير الذي ينتظره أهل بغداد.³⁰⁸

٣٠٦، ٣٠٧ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/336.

٣٠٨ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/336-337.

ثم توفي يوم الجمعة في ربيع الأول سنة إحدى وأربعين ومائتين.
والمشهور في الأخبار التي جمعها الذهبي أنه لاثنتي عشرة خلت،
وفي رواية صالح المفردة اختلاف في تعيين اليوم.³⁰⁹

٣٠٩ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/335-337؛ وصالح بن أحمد، سيرة الإمام
أحمد بن حنبل، تحقيق فؤاد عبد المنعم أحمد، دار السلف، ط3، 1415هـ/1995م،
ص30: «ثلاث عشرة ليلة خلت». اختلاف اليوم العددي مثبت في المصدر، فلا تسقط
إحدى الروايتين ليوهم الاتفاق.

الفصل الخامس والأربعون: المدينة التي مشت خلفه

بلغ الخبر الناس، وازدحمت السكك والشوارع. كان الرجل الذي كره أن يمشي الناس وراءه في حياته يحمل الآن في جنازة يقصدها من لا يستطيع أن يمنعه من المجيء. خرج من البيت الذي عرف الضيق، إلى مدينة اتسعت محبته في قلوب أهلها.

ثوبان صارا كفنا

أرسل نائب بغداد ثياباً وطيباً. اعتذر صالح بأن أباه قد أعفي في حياته مما يكره، فلا يحب أن يتبعه بعد موته بما كان يكرهه. وكان عندهم ثوب غزلته الجارية، أعد ليقطع منه قميصان، فجعلوه لفافتين، وزادوا لفافة أخرى، فكفنوه في ثلاث. X^{310}

حكى صالح ما جرى في ذلك اليوم بنفسه. قال: «لما توفي أبي واجتمع الناس في الشوارع، وجهت إليهم أعلمهم بوفاته، وأني أخرجته بعد العصر. ووجه ابن طاهر بحاجبه مظفر ومعه غلامان معهما مناديل فيها ثياب وطيب، فقالوا: الأمير يقرئك السلام ويقول: قد فعلت ما لو كان أمير المؤمنين حاضره، كان يفعل ذلك. فقلت له: أقرئه السلام وقل له: إن أمير المؤمنين قد أعفاه

في حياته مما كان يكره، ولا أحب أن أتبعه بعد موته بما كان يكرهه في حياته. فعاد وقال: يكون شعاره ولا يكون دثاره. فأعدت عليه مثل ذلك».³¹¹

ثم قال صالح: «وقد كانت غزلت له جارية ثوبا عشارياً قوم ثمانية وعشرين درهماً، ليقطع منه قيصين، فقطعنا له لفافتين، وأخذنا من فوران لفافة أخرى، فأدرجناه في ثلاث لفائف، واشترينا حنوطاً. وقد كان بعض أصحابنا من العطارين سألني أن يوجه بحنوط فلم أفعل. وصب في حب لنا ماء، فقلت: قولوا لأبي محمد يشتري راوية ويصب الماء في الحب الذي كان يشرب منه، فإنه كان يكره أن يدخل من منازلنا إليه بشيء. وفرغ من غسله وكفناه، وحضر نحو من مئة من بني هاشم ونحن نكفنه، وجعلوا يقبلون جبهته حين رفعناه على السرير».³¹²

٣١١ - صالح بن أحمد، سيرة الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق فؤاد عبد المنعم أحمد، دار السلف، ط3، 1415هـ/1995م، ص124، خبر الغسل والكفن، من رواية صالح عما باشره.

٣١٢ - صالح بن أحمد، سيرة الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق فؤاد عبد المنعم أحمد، دار السلف، ط3، 1415هـ/1995م، ص124. «فوران» هو الاسم في الصورة، و«الراوية» وعاء الماء الذي يحمل؛ والمقصود هنا شراء ماء يحمل إليه.

في هذا التفصيل بقيت إرادته حاضرة بعد انقطاع صوته. لم يجعل الولد موته فرصة لقبول ما كان يرده، ولم يحتج ليحفظ وصية العيش القليل إلى موعظة عامة. كانت أمامه ثياب أرسلت من الأمير، وثياب في البيت، فاختار ما يوافق حياة أبيه.

وحضر أناس من بني هاشم وهم يكفونونه. ثم أخرجت الجنازة بعد الجمعة، واشتد ازدحام الناس. وفي الصلاة عليه وقع ما يبين أن المنافسة على قربته لم تنته بموته؛ أراد صالح أن يصلي، وتقدم الأمير. حفظ الابن الخبر، وحفظ عبد الله أنه غلبهم على الصلاة.³¹³

قال صالح: «لما توفي أبي وجه إلي ابن طاهر: من يصلي عليه؟ قلت: أنا. فلما صرنا إلى الصحراء إذا ابن طاهر واقف، فخطأ إلينا خطوات وعزانا، ووضع السرير. فلما انتظرت هنيئة تقدمت وجعلت أسوي الناس، فجاءني ابن طالوت ومحمد بن نصر فقبض هذا على يدي وهذا على يدي، وقالوا: الأمير. فمانعتهم، فنحياني، فصلى، ولم يعلم الناس بذلك. فلما كان الغد علم الناس، فجعلوا يجيئون ويصلون عليه على القبر، ومكث الناس ما شاء الله يأتون فيصلون على القبر».³¹⁴

وقال عبد الله: «توفي أبي يوم الجمعة ضحوة، ودفناه بعد العصر،
وصلى عليه محمد بن عبد الله بن طاهر، غلبنا على الصلاة عليه، وقد
كما صلينا عليه نحن والهاشميون داخل الدار».³¹⁵

وقال المتوكل لابن طاهر حين بلغه: «طوبى لك، صليت على أحمد
بن حنبل».³¹⁶

ليست الجنازة صفحة محبة خالصة من كل أثر للسلطة والمكانة.
يدخل فيها الناس بما يحملون، كما دخلوا حياته. وإيراد هذا التفصيل
لا ينتقص من الميت؛ يصدق في وصف العالم الذي فارقه.

كم كانوا؟

نقلت الكتب تقديرات عظيمة لعدد المشيعين، وذكرت أعداداً
تبلغ مئات الألوف أو أكثر. تختلف التقديرات، ولم تكن إحصاء

٣١٤ - صالح بن أحمد، سيرة الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق فؤاد عبد المنعم أحمد،
دار السلف، ط 3، 1415 هـ/1995 م، ص 125. أثبت اسم «محمد بن نصر» كاملاً من
الصورة؛ الخبر شهادة صالح على مزاحمته في التقدم للصلاة، ولا يزداد فيه سبب لم يذكره.

٣١٥ - أبو نعيم، حلية الأولياء، 9/162؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/338.

٣١٦ - ابن أبي يعلى، طبقات الحنابلة، 1/16؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء،

11/339.

بالمعنى الذي نعرفه اليوم. الثابت في مجموع الأخبار كثرة الجمع وامتداد الصفوف وتعطل بعض شؤون المدينة، أما العدد الدقيق فلا نجزم به. X^{317}

يكفي أن اجمع كثر، وأن الناس فتحوا أبوابهم لمن يحتاج الضوء، وأن من فاتته أن يصلي عاد إلى قبره يصلي عليه. يبقى لهذه الأفعال وقعها، وإن اختلف الناقلون في عدد من شهدها؛ ومنها نعرف شيئاً من منزلة الرجل في المدينة التي عاش فيها.

وحين هدأت الطرق، بقيت بيوت فيها صغار فقدوا جدهم، وأبناء حفظوا كلماته، وأصحاب عليهم أن يحملوا ما سمعوا. تنتهي الجنازة أسرع مما ينتهي أثر الميت فيمن عاشوا معه. وما نقرأه اليوم من أخباره مر عبر تلك الأيدي التي كانت قريبة منه؛ ولهذا تستحق أن ترى في السيرة، لا أن تحتفي خلف اسمه.

الفصل السادس والأربعون: ما بقي بعد أن خلا المكان

خلا المجلس من صاحبه، وبقي علم حمله تلاميذه، وأجوبة في دفاترهم، وخبر محنة بلغ الأمصار. يمضي هؤلاء بما سمعوه، وتتسع بعدهم صورة أحمد في ذاكرة الناس.

تلاميذ يحملون ما سمعوا

بقي عبد الله وصالح وحنبل والمروزي وأبو داود والميموني والأثرم وغيرهم ممن حملوا علمه وأخباره. في نقل كل واحد نافذة؛ بعضهم أكثر اتصالاً بالبيت، وبعضهم بالمسائل، وبعضهم بالمحنة. ولا تجمع هذه النوافذ صورة كاملة إلا حين يقارن الباحث بينها، ويرد المتشابه إلى موضعه، ولا يجعل تكرر الخبر في المصنفات تعدداً في الشهود.

ومن بعدهم جاء من جمع الروايات ورتبها، فصار ما كان متفرقاً في مجالس وأسئلة مادة يتعلم منها الناس في بلاد لم يرها أحمد. إن بقاء أثر العالم لا يعتمد على قوة شخصيته وحدها؛ يحتاج إلى تلاميذ أمناء، ونسخ تحفظ، وعلماء ينقدون، وقراء يبذلون وقتاً للفهم.

الاسم الذي صار علامة

صار اسم أحمد عند كثير من أهل السنة علامة على الصبر في المحنة والتمسك بالأثر. لكن الاسم إذا تحول إلى شعار قد يحجب صاحبه. قد يرفعه إنسان في خصومة ثم لا يصبر على أذى جار، أو يحتاج بورعه ثم لا يؤدي حق عياله، أو يحب شدته ثم لا يتعلم كيف قال: لا أدري.

تجتمع في صحبته أعوام العلم قبل الامتحان، والعفو بعد الألم، وبذل المال مع قلته، وخفض الصوت عن النفس. يظهر الثبات في هذه الحياة كلها، ويحمل كل باب منها ما يعين على فهم بقية الأبواب.

المحبة التي تحتاج إلى الثبت

أضافت الذاكرة الشعبية إلى أخباره ما لا يصح. في بعض الروايات أيد خارقة تشد الثياب عند الضرب، وفي بعضها قصص سفر ومداعبة ومناظرة لا ثبت. وقد أنكر الذهبي عدداً منها في ترجمته. ³¹⁸X

ولا يذهب بإنكارها شيء من قدره. إن الذي يحتاج إلى الخرافة ليعظم الثبات لم يفهم ما في الثبات البشري نفسه من عظمة. كان

يتألم، ويخاف السوط، ويحتاج إلى الطبيب، ثم بقي على ما يعتقده.
لو ألغينا عنه ذلك كله، لضاعت المسافة التي قطعها بإيمانه وصبره.
تبقى لنا، بعد انقضاء العمر، صورة رجل لا تختزل في لقب. ولد
يتيمًا، وحملته عناية أم، وتعلم صغيرًا، وارتحل، وجاع، وكتب،
وأخطأ غيره فصيح، وسئل فتوقف، وأحب أهله، وضاقوا ببعض
اختياراته، وخاف، وثبت، ومرض، وعفا، وترك علمًا حملته
أجيال. ومن هذه الصورة يبدأ سؤال القارئ عن نفسه. ليس
المطلوب أن يعيد القرن الثالث الهجري في بيته، بل أن يعرف أي
عمل صادق يقدر عليه في زمانه، وأي حق ينتظر أن يؤديه، وأي
علم ينبغي أن يطلبه قبل أن يرفع صوته. هنا تنتهي رواية الحياة،
وتبدأ مسؤولية الصحبة.

الفصل السابع والأربعون: ما قاله فيه أهل زمانه

بقيت كلمات شيوخه وأقرانه ومن جاء بعدهم. عرفه كل قائل من باب: حفظ وحديث، أو فقه، أو خلق وموقف. نسمع شهاداتهم بعدما مضينا مع الرجل في أخباره.

كلمات الأئمة

روى ابن الجوزي عن الشافعي أنه لم يخلف بالعراق أحداً يشبه أحمد، وروى عنه وصفه بأنه «صغير كلما قال شيئاً صدقه الكبار». وروى عن عبد الرزاق تفضيله في الفقه والورع.³¹⁹

وحفظ الذهبي ثناء إسحاق بن راهويه على حجة أحمد، ونقل عن علي بن المديني قوله: «أعز الله الدين بالصادق يوم الردة، وبأحمد يوم المحنة».³²⁰

٣١٩ - ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، تحقيق عبد الله التركي، ص 87-88،
وص 143-144. فرقت ألفاظ الشهادات عن تلخيص معانيها.

٣٢٠ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/196. قبل موضع ثناء إسحاق وعلي على
صورة طبعة مؤسسة الرسالة.

ما فيه مبالغة

وحفظ ابن كثير عن إسماعيل بن الخليل وأبي الوليد الطيالسي عبارات شديدة المبالغة في الثناء على أحمد.³²¹ تكشف هذه الألفاظ إعجاب قائلها، ولا تحمل على تقرير منزلة شرعية لم يجعلها النص لأحد. X

فهذه الكلمات تدل على شيء واحد صحيح: أن أهل زمانه، وفيهم من هو أعلم منه في فنون، رأوا فيه ما لم يروا في أنفسهم، وهو الاجتماع: علم وورع وثبات في رجل واحد. وأما ما فيها من غلو في اللفظ فيترك.

ما قاله فيه خصومه

وفي رواية المناظرة عبارات من المعتصم وابن أبي دؤاد في الحرص على إجابته. لا تجعل هذه العبارات تزكية لجميع أحواله عندهم؛ إنما تظهر مكانة الجواب الذي كانوا يطلبونه في ذلك المجلس.

٣٢١ - روى ابن كثير عن إسماعيل بن الخليل: «لو كان أحمد في بني إسرائيل لكان نبيا»، وعن أبي الوليد الطيالسي: «لو كان أحمد في بني إسرائيل لكان أحدوثه». البداية والنهاية، حوادث سنة 241.

ما قاله في نفسه

وفي مقابل الثناء حفظت الروايات تحفظه من الشهرة، وخوفه، وقوله في بعض أعماله إنه لم تكن له فيها تلك النية. يظل كلامه عن نفسه جزءًا من الصورة إلى جانب كلام الناس عنه؛ فلا يحجبه مدحهم، ولا نحوله إلى علم منا بخاتمته.

تجاورت هذه الشهادات مع ما حفظ من تعلمه وبيته وعبادته ومحنته. من مجموعها يظهر الإمام صاحب علم وفضل، وإنسان يحمل المشقة ويحتد ويعيش بين الناس.

باب: الأقوال والوصايا المأثورة

تحمل كلمات أحمد أثر مجالس الطلب، وأيام المحنة، وعلاقته بأهل بيته وأصحابه، وحرصه على المال والحقوق. اتسع الجمع هنا للوصايا والأجوبة والمواقف والرسائل، فلا يقتصر على الجمل القصيرة الشائعة، ولا يحول كل فتوى فقهية إلى حكمة مستقلة.

المأثور هنا ما نسبته المصادر إلى صاحب السيرة، ولا تعني الإحالة إلى كتاب تصحيح جميع أسانيده. ذكر ما ظهر من اختلاف النسبة أو تنبيه الناقل، وجمعت الصيغ المتقاربة من الخبر الواحد قدر الإمكان. هذا استقصاء موسع في المصادر الميينة، لا دعوى الإحاطة بكل ما روي في جميع الكتب والمخطوطات. ولم تدخل الأحاديث النبوية التي رواها صاحب السيرة في عداد كلامه، ولا ثناء الآخرين عليه.

الإخلاص والصدق والمحبة

١ - جوابه حين سئل: بم بلغ القوم حتى مدحوا؟

322 «بالصدق»

٢ - قالها حين ذكر له الصدق والإخلاص؛ وهي جواب آخر في الباب نفسه.

«بهذا ارتفع القوم»³²³

٣ - لرجل كان داهنه في شيء؛ في تصحيح القصد.

«لو صححت ما خفت أحدا»³²⁴

٤ - جوابه عن الحب في الله.

«أن لا تحبه لطمع دنيا»³²⁵

٥ - ورد في هذا الباب التحذير من إظهار أدوات العلم طلبا لنظر الناس؛ لا يحكم به على كل من حمل محبرة.

«إظهار المحبرة من الرياء»³²⁶

القلب والرقائق والمبادرة

٦ - وفي الرواية الأخرى: «كل شيء من الخير بادر فيه»؛ لم نفردها بعدد آخر.

«كل شيء من الخير تهم به فبادر به قبل أن يحال بينك وبينه»³²⁷

٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٦ - ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، الباب ٣٠.

٣٢٧ - ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، الباب ٣١.

٧ - جوابه لعمر بن صالح الطرسوسي حين سأله: بم تلين القلوب؟
«يا بني، بأكل الحلال»³²⁸

٨ - رواه عنه المروزي؛ انصبي: اجتهدني وتحملّي التعب.
«يا نفس انصبي وإلا فستحزني»³²⁹

٩ - قاله عند ذكر الدنيا، في رواية ابنه عبد الله.
«قليلها يجزي، وكثيرها لا يجزي»³³⁰

١٠ - جوابه حين ذكر عنده الفقر، في الرواية نفسها.
«الفقر مع الخير»³³¹

١١ - قالها لعبد الملك الميموني.

«يا أبا الحسن، كم يعيش أحدنا؟ خمسين سنة، ستين سنة؛
كأنك بنا»³³²

١٢ - في سرعة انقضاء الشباب، برواية أحمد الوراق.

«ما شبهت الشباب إلا بشيء كان في كي فسقط»³³³

١٣ - رواية المروزي عنه.

«ما قل من الدنيا كان أقل للحساب»³³⁴

٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٤ - ابن الجوزي، مناقب الإمام

أحمد، الباب ٣١.

١٤ - جوابه عن الفتوة، من رواية ابنه عبد الله.

«ترك ما تهوى لما تخشى»³³⁵

١٥ - عاتب بها عبد الصمد بن سليمان حين بات عنده؛ وفي خبر آخر: «رجل يطلب العلم لا يكون له ورد من الليل».

«صاحب حديث لا يكون له ورد في الليل؟»³³⁶

١٦ - رواه ابنه عبد الله في صلة التقوى بالعلم.

«ليس يتقي من لا يدري ما يتقي»³³⁷

صحبة العلم والعمل بالحديث

١٧ - من رواية أبي بكر الأثرم.

«إنما هو السنة والاتباع، وإنما القياس أن تقيس على أصل، أما أن تجيء إلى الأصل فتهدمه ثم تقول: هذا قياس، فعلى أي شيء كان هذا القياس؟»³³⁸

١٨ - وصيته لليموني في التثبت من طريق العلم.

«يا أبا الحسن، إياك أن تتكلم في مسألة ليس لك فيها إمام»³³⁹

٣٣٥، ٣٣٦، ٣٣٧ - ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، الباب ٣١.

٣٣٨، ٣٣٩ - ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، الأبواب ٢١، ٢٢، ٢٥، و٢٦.

١٩ - قالها للهروذي حين سأله عمن مات عليهما.

«من مات على الإسلام والسنة قد مات على الخير كله.»³⁴⁰

٢٠ - رواية الفضل بن زياد؛ بعد ثبوت الحديث ودلالته، لا في كل اختلاف في الفهم.

«من رد حديث رسول الله فهو على شفا هلكة.»³⁴¹

٢١ - فلما سئل عن السبب قال: «ظهرت بدع، فمن لم يكن عنده حديث وقع فيها.»

«ما أعلم الناس في زمان أحوج منهم إلى طلب الحديث من هذا الزمان.»³⁴²

٢٢ - حثه أصحابه على إدراك الشيوخ، في خبر حمدان بن علي.

«تسمعون مني ومثل أبي عاصم في الحياة! اخرجوا إليه.»³⁴³

٢٣ - لما طال بحثه عن حديث، وقال السائل إنه أتعبه؛ فأبى أن يترك البحث.

«لا، الحاجة لنا.»³⁴⁴

٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٤ - ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، الأبواب

٢١، ٢٢، ٢٥، و٢٦.

٢٤ - كان يقولها لطالب غريب بعد أن يملي عليه؛ في خبر المروزي عن بذله العلم.
«اقرأ ما كتبت.»³⁴⁵

التدوين وأمانة الرواية

٢٥ - وصيته لابنه عبد الله، كما أوردها ابن الجوزي في باب مصنفاته.

«احتفظ بهذا المسند فإنه سيكون للناس إماماً.»³⁴⁶

٢٦ - في جوابه عن فاضل بين كتب الرأي؛ لا يفصل عن سياق عنايته بالنقل.
«عليك بالأثر.»³⁴⁷

٢٧ - لمن احتج بفعل ابن المبارك في كتابة كتب الرأي؛ لا يريد إسقاط قدره، بل رد الاستدلال إلى أصله.
«ابن المبارك لم ينزل من السماء، إنما أمرنا أن نأخذ العلم من فوق.»³⁴⁸

٣٤٥ - ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، الأبواب ٢١، ٢٢، و٢٥، و٢٦.

٣٤٦، ٣٤٧، ٣٤٨ - ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، الأبواب ٢٧، ٢٨، و٣٢،

و٣٤.

٢٨ - رواية حرب بن إسماعيل في طلب علو الإسناد.
«طلب الإسناد العالي سنة عمن سلف، لأن أصحاب عبد الله
كانوا يرحلون من الكوفة إلى المدينة فيتعلمون من عمر
وليسمعون منه»³⁴⁹

٢٩ - قالها لحنبل حين رآه يكتب خطأ دقيقاً.
«لا تفعل، أحوج ما تكون إليه يخونك»³⁵⁰
٣٠ - جوابه لأبي القاسم البغوي حين طلب أن يصفه في كتابه بأنه
من أصحاب الحديث.
«صاحب الحديث عندنا من يستعمل الحديث»³⁵¹

المجالسة وحقوق الناس

٣١ - «يؤكل الطعام بثلاث: مع الإخوان بالسرور، ومع
الفقراء بالإيثار، ومع أبناء الدنيا بالمروءة»³⁵²

٣٤٩، ٣٥٠، ٣٥١ - ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، الأبواب ٢٧، ٢٨، و٣٢،
و٣٤٠.

٣٥٢ - ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، الباب ٣٢، والباب ٣٨.

٣٢ - يرويه المروذي.

«إن لكل شيء كرمًا، وكرم القلب الرضا عن الله عز وجل»³⁵³

٣٣ - رواية ذكرها ابن الجوزي في باب الكلام في فنون مختلفة.
«إذا مات أصدقاء الرجل ذل»³⁵⁴

٣٤ - وصيته لولديه في رد التحية والزيارة؛ ومعنى صيانة العلم بعده
تعليق لابن عقيل، لا تتمه لكلام أحمد.

«اكتبنا من سلم علينا ممن حج، فإذا قدم سلمنا عليه»³⁵⁵

٣٥ - كان يقولها لجلسائه حين يريد القيام؛ كلمة قصيرة تكشف
أدب المجلس.

«إذا شتم»³⁵⁶

٣٦ - قالها لابنه صالح حين بلغه ما أعدّه لختان ابنه من طعام كثير.
«فابدأ بالفقراء والضعفاء فأطعمهم»³⁵⁷

٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٥٧ - ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، الباب ٣٢؛
والباب ٣٨.

٣٧ - قالها لأحمد بن جعفر الوكيبي، ثم روى الحديث في إعلام
الأخ بالمحبة.

«يا أبا عبد الرحمن، إني لأحبك.»³⁵⁸

٣٨ - نصيحته لهارون الجمال؛ ذهب إليه ليلا لينصحه.

«جزت عليك اليوم وأنت قاعد تحدث الناس في الفياء والناس في الشمس بأيديهم الأقلام والدفاتر، لا تفعل مرة أخرى، إذا قعدت فاقعد مع الناس.»³⁵⁹

٣٩ - تطفه مع محمد بن يحيى النيسابوري بعدما نهاه عن ذكر حديث فيه ضعف.

«إنما قلت هذا إجلالا لك يا أبا عبد الله.»³⁶⁰

٤٠ - كان يقولها حين يجهل عليه غيره، كما روى المروزي.
«يكفي الله.»³⁶¹

الحلم والعفو

٤١ - في رواية الحسين بن عبد الله الخرقى.

«أحلت المعتصم من ضري.»³⁶²

٤٢ - لرجل استحله من غيبته؛ ثم بين لمن سأله أنه اشترط عليه ترك العودة.

«أنت في حل إن لم تعد.»³⁶³

٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦١ - ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، الباب ٣٢؛ والباب ٣٨.

٣٦٢، ٣٦٣ - ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، الباب ٣٩.

٤٣ - قالها لحنبل حين هدد محمد الخثلي بالبطش به؛ ثم دخل منزله وأمر السكان بترك الرد.

«لا تكلمه ولا تجبه بشيء»³⁶⁴

٤٤ - لمن أساء إليه ثم جاء معتذراً؛ يرد ضمن حكاية نقلها بلال الآجري.

«ما زالت قدماي من مكانهما حتى جعلتك في حل»³⁶⁵

٤٥ - قالها بعدما سكت عن رجل اتهمه بأن عنده كتاب زندقة؛ في رواية إبراهيم الحري.

«إنما يحرز المؤمن قبره»³⁶⁶

الكسب والتعفف وأداء الحقوق

٤٦ - جوابه عن العقار الذي يستغله ويسكن فيه.

«هذا شيء قد ورثته عن أبي، فإن جاءني أحد فصصح أنه له خرجت عنه ودفعته إليه»³⁶⁷

٤٧ - قالها بعدما رأى في رحلة قوماً يفسدون مزارع الناس.

«لا ينبغي لأحد أن يدخل مزرعة رجل إلا بإذنه»³⁶⁸

٣٦٤، ٣٦٥، ٣٦٦ - ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، الباب ٣٩.

٣٦٧، ٣٦٨ - ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، الباب ٤٠؛ والباب ٤١.

٤٨ - جوابه لعبد الرزاق حين عرض عليه مالا في صنعاء.

«يا أبا بكر، لو قبلت شيئا من الناس قبلت منك.»³⁶⁹

٤٩ - جوابه في مال عرض عليه حين احتاج؛ حكاية عن اختياره الشخصي في التعفف، لا تحريم لكل إعانة.

«إني لمحتاج إليها وإني لابن سبيل، ولكن لا أحب أن أعود نفسي هذا؛ ردها عليه.»³⁷⁰

٥٠ - قلها لصديقه حين رد القرض، وقد أخبره صاحبه أنه لم ينو استرداده.

«وأنا ما أخذتها إلا وأنا أنوي أن أردّها إليك.»³⁷¹

٥١ - من كتبه جوابا لمن عرض عليه أربعة آلاف درهم؛ رواية صالح.

«وصل كتابك إلي ونحن في عافية، فأما الدين فإنه لرجل لا يرهقنا، وأما عيالنا فهم في نعمة الله والحمد لله.»³⁷²

٥٢ - في رده ربح تجارة عرض عليه؛ وفي رواية أخرى: «فدعنا نكن في عز» مع بيان خوفه من تغير العطاء بعد المرة الأولى.

«دعنا نكن أغراء.»³⁷³

٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٣ - ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، الباب ٤٠؛

والباب ٤١.

٥٣ - جوابه للحسن بن عبد العزيز الجروي حين عرض عليه مالا من ميراثه.

«لا حاجة لي فيها، أنا في كفاية.»³⁷⁴

الزهد في حياته اليومية

٥٤ - قالها لإسحاق بن هانئ حين بسط له حصيرا ومخدة لمعارضة كتاب الزهد؛ تصرف في نفسه لا إلزام للناس بمثله.

«ارفعه، الزهد لا يحسن إلا بالزهد.»³⁷⁵

٥٥ - قالها لشجاع بن مخلد؛ جمعت هنا عبارته في القناعة.

«إنما هو طعام دون طعام، ولباس دون لباس، وإنها أيام قلائل.»³⁷⁶

٥٦ - حين أخلي له الحمام ثم عدل عن دخوله، في رواية إسحاق بن هانئ.

«هذه خمسون سنة لم أدخل الحمام؛ يجوز أيضا أن لا أدخل الساعة؛ قل له يطلقه للناس.»³⁷⁷

٣٧٤ - ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، الباب ٤٠؛ والباب ٤١.

٣٧٥، ٣٧٦، ٣٧٧ - ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، الباب ٤٤.

نصوص تحتاج إلى بيان طريقها

٥٧ - مروى في وصيته لعل بن المديني؛ في الطريق المذكور محمد بن يونس، فلا يكتفى بوجود الخبر هنا للحكم بصحته.

«اجعل التقوى زادك، وانصب الآخرة أمامك»³⁷⁸

٥٨ - يرويه الكتاب من طريق علي بن عبد الله بن جهضم؛ أوردناه بصيغة الرواية مع التنبيه إلى أن هذا الطريق يحتاج تحقيقاً، ولم نضع عليه حكم الصحة.

«يا بني، انو الخير، فإنك لا تزال بخير ما نويت الخير»³⁷⁹

٥٩ - في الباب نفسه من طريق ابن جهضم أيضاً؛ تذكر مع بيان طريقها، ولا تساق باعتبارها صحيحة الإسناد.

«عزيز علي أن تذيب الدنيا أبكاد رجال وعت صدورهم
القرآن»³⁸⁰

الإخلاص وطلب العلم

٦٠ - سئل عن تصحيح النية، فقال: «ينوي أن يتواضع فيه وينفي عنه الجهل».

«طلب العلم أفضل الأعمال لمن صحت نيته»³⁸¹

٦١ - في صعوبة استحضار النية مع محبته للعلم وجمعه.

«شرط النية شديد، حجب إلي فجمعته»³⁸²

٦٢ - نقله ابن القيم عنه في بيان حاجة الناس إلى العلم.

«الناس محتاجون إلى العلم أكثر من حاجتهم إلى الطعام والشراب؛ لأن الطعام والشراب يحتاج إليه في اليوم مرة أو مرتين، والعلم يحتاج إليه بعدد الأنفاس»³⁸³

هذا لفظ نقل ابن القيم؛ تختلف ألفاظه في المصادر، فلا تجعل صيغته أقوالاً مستقلة.

٣٨١ - السفاريني، غذاء الألباب في شرح الآداب، ٢/٥١٩، مطلب النبي عن طلب

العلم للرياء، نقلاً عن مهنا.

٣٨٢ - السفاريني، غذاء الألباب، ٢/٥١٩، نقلاً من خطاب أحمد لأبي داود.

٣٨٣ - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، ١/١٦٤، طبعة دار عالم الفوائد.

كلمات في العلم والورع ومحاسبة النفس

٦٣ - قال له المروزي إنه يرجو أن يكون الناس يدعون له في جميع الأمصار، فأجابه:

«يا أبا بكر، إذا عرف الرجل نفسه، فما ينفعه كلام الناس»³⁸⁴

٦٤ - روى ابنه عبد الله أنه ذكر الشافعي فقال:

«ما استفاد منا أكثر مما استفدنا منه»³⁸⁵

٦٥ - أهدى رجل إلى صالح بن أحمد، ثم طلب بعد أشهر كتاباً من أبيه إلى مشايخ البصرة. فلما كلمه صالح قال:

«لولا أنه أهدى إليك، كنت أكتب له»³⁸⁶

٣٨٤ - الذهبي، السير، ١١/٢١١؛ من رواية المروزي.

٣٨٥ - الذهبي، السير، ١١/٢١٠؛ من رواية عبد الله بن أحمد.

٣٨٦ - الذهبي، السير، ١١/٢٠٦؛ من رواية صالح بن أحمد.

القسم العملي

والآن... ماذا ستصنع بهذه الصحبة؟

أغلقت باب البيت الذي خرجت منه الجنازة، وعدت إلى يومك. بينك وبين أحمد قرون، تختلف فيها الدولة والمدينة ووسائل التعلم والعمل. لكن أمامك علمٌ لم تطلبه بعد، وحقٌ تأخر أدائه، وكلمةٌ قد تقولها لإرضاء من تخافه، ومالٌ يمكن أن يأخذ من استقلالك أكثر مما يضيف إلى رصيدك.

لن نبحث لك عن محنة تشبه محنته. أكثر ما نحتاج إليه يبدأ قبل المحنة: صدق في عمل صغير، ومعرفة لا نتظاهر بامتلاكها، وتربية لا تستعجل الثمرة، ورعاية لمن يشاركوننا كلفة اختياراتنا. الصفحات الآتية اجتهاد تربوي معاصر مستلهم من الوقائع التي قرأناها، وليست وصايا منسوبة إلى الإمام أو فتاوى باسمه.

أن تبدأ بعلم ينفع إنساناً

اختر حاجة تراها قريبة منك وتعرف صاحبها. قد تكون مسألة يحتاج أهل بيتك إلى تعلمها من مصدر صحيح، أو مهارة تعينك على أداء عملك، أو خدمة لا يحسن أحد في محيطك تقديمها. لا تبدأ بسؤال: كيف أصير مشهوراً بهذا العلم؟ ابدأ بسؤال: ما الذي ينقصني لأؤدي هذه الحاجة بأمانة؟

كان أحمد يرحل إلى الشيخ، ويحمل الكتاب، ويراجع ما سمع. نستطيع أن نترجم هذا المعنى إلى طريق تعلم له معلم ومادة وتطبيق وتصحيح. أما جمع الروابط وأسماء الكتب فلا يقوم وحده مقام الطريق؛ كما أن الوصول إلى بغداد لم يكن يغني الطالب عن الجلوس والسماع والكتابة.

في الأسبوع الأول حدد موضوعاً واحداً، واسأل من له خبرة فيه عن مدخل مناسب. اقرأ قدرًا تستطيع فهمه، واكتب بعبارتك ما تعلمت، ثم عرضه على من يصححه. احتفظ بما أخطأت فيه في صفحة مستقلة. هذه الصفحة لا تهينك؛ إنها تمنعك من تكرار الخطأ حين يأتي من يثق بك ويسألك.

وبعد أسبوعين قدم خدمة صغيرة تعتمد على ما تعلمته. إن كنت تتعلم مهارة تقنية فأصلح بها أمرًا بسيطًا بإذن صاحبه، وإن كنت تقرأ في التربية فجرب تغييرًا محدودًا في طريقة الإصغاء إلى طفلك، وإن كنت تطلب علمًا شرعيًا فلا تتصدر للإفتاء؛ انقل السؤال إلى أهله وتعلم كيف جاء الجواب.

قسّ التقدم بثلاثة أمور: ماذا صرت تفهم مما لم تكن تفهمه؟ ما الخطأ الذي صححته؟ ومن انتفع بعملك؟ لا يكفي أن تزيد ساعات الجلوس إذا بقي الفهم كما هو، ولا أن تمدح نفسك بالخدمة إذا كان من خدمته يحتاج إلى إعادة العمل بعدك.

وقد يفشل البرنامج لأن الموضوع أوسع من وقتك، أو لأن المصدر لا يناسب بدايتك، أو لأنك اكتفيت بالقراءة ولم تتدرب. لا تعالج كل تعثر باتهام نفسك بالكسل. ضيق المهمة، أو غير المدخل، أو اطلب شرحاً. الثبات على الغاية لا يقتضي التمسك بوسيلة لا تعمل.

بطاقة بدء: حاجتي المحددة هي... ومعلبي أو مرجعي هو...
وسأخصص لها... وأول تطبيق قابل للتصحيح هو... وسأراجع النتيجة في يوم... وسأعرف أن غيري انتفع إذا...

أن نتعلم قول «لا أدري» قبل أن تحتاج إليها
اختر أسبوعاً تراقب فيه أجوبتك. متى تجيب لأنك تعرف، ومتى تجيب لأن الصمت يحررك؟ قد تكون المسألة صغيرة في مجلس أصدقاء، لكن الاعتياد على ملء الفراغ ينتقل إلى المواضع التي تتعلق بحقوق الناس.

كان أحمد يميز بين معرفة بلد الراوي ومعرفة حال حديثه، وبين ما سمعه من هشيم وما بلغه عنه. استعن بهذا التفريق: قل ما تعرفه تحديداً، وسم ما لا تعرفه. تستطيع أن تقول: أعرف أصل المسألة، لكن هذا التفصيل يحتاج إلى مراجعة. أو: نقلت هذا من ملخص، ولم أرجع إلى الأصل بعد.

اجعل لك سجلاً من أربعة أسطر: السؤال، وما قلت، والمصدر الذي راجعته، والتصحيح الذي أرسلته. لا تحتفظ بالسجل لتجمع أخطاء الآخرين؛ ابدأ بنفسك. فإذا نشرت معلومة ثم بان خطأها، أوصل التصحيح إلى المكان الذي وصل إليه الخطأ ما استطعت، وبصياغة يفهم منها الناس ما تغير.

النجاح هنا ليس أن تحتفي الأخطاء كلها؛ هذا لا يملكه البشر. النجاح أن يقصر الزمن بين اكتشاف الخطأ وتصحيحه، وأن يقل ما تجزم به بلا أصل، وأن يشعر من حولك بأن قولك «لا أدري» وعد بالأمانة لا وسيلة للتخلص منهم.

وإذا أصبحت متردداً في كل شيء، فراجع الطرف الآخر من المسلك. لقد قال أحمد «ثقة» حين كان عنده ما يقول به ذلك. المطلوب مناسبة الجواب للدليل، لا اتخاذ الحيرة هوية. اطلب العلم الذي يرفع جهلك، ثم تكلم بقدر ما حصل لك منه.

بطاقة مراجعة: هذا الأسبوع صححت... وتوقفت في... وسأعود إلى السائل يوم... والمصدر الذي يحتاج إلى قراءة مباشرة هو...

أن تربي الجديدة دون أن تطفئ الطفل

أمسكت أم أحمد بثوبه حتى يؤذن المؤذن. في الخبر رغبة فتى في التبكير، ورعاية أم لا تترك اندفاعه بلا تدبير. لا يقول الخبر إنها

كتبت له خطة عمره، ولا إنها عرفت أنه سيصير إماماً. فعلت في الوقت القريب ما رأت أنه أصلح لولدها.

أبدأ أنت كذلك بما أمامك. ما الميل الصادق عند الطفل؟ وما العائق الذي يقدر الكبير على إزالته؟ قد يحتاج إلى وقت هادئ، أو معلم يحسن مخاطبته، أو تشجيع لا يقارن فيه بإخوته. وقد يحتاج إلى أن يوقفه أحد عن الإفراط الذي يضره، وإن ظن أن كل تأخير يحول بينه وبين النجاح.

اختر معه مشروعاً صغيراً يستمر شهراً: قراءة كتاب مناسب، أو تعلم مهارة، أو خدمة في البيت. اجعل له موعداً قصيراً معلوماً، وارك له نصيباً من الاختيار. اسأله عما فهم وما صعب عليه، ولا تجعل أول سؤالك: كم أنجزت؟ فالعدد يخبرك بالحركة، ولا يخبرك وحده بما وقع في عقله وقلبه.

احفظ حق اللعب والنوم والصحة. إن طلب العلم الذي يفسد صحة الطفل أو يجعله يخاف السؤال لم يحسن ترتيب أسبابه. ولا تجعل من سيرة عالم مقياساً تعاقب به طفلاً لأن حياته لم تبدأ مثل حياته؛ إنما تقرأ السيرة لتتسع بصيرتك، لا لتضيق بها على من تربيته.

بعد شهر انظر إلى مبادرته، وإلى قدرته على إتمام عمل مناسب، وإلى شعوره حين يخطئ. هل يجرو أن يأتيك بما لم يفهم؟ وهل

يصدق معك إذا قصر؟ هذه ثمرات تأسيسية قد تكون أثنى من صفحات كثيرة أنجزها خوفاً منك.

بطاقة الأسرة: الميل الذي لاحظناه... والمساعدة التي سنقدمها...
والحق الذي لن نضيعه... والسؤال الذي سنطرحه كل أسبوع...
والعلامة التي تدل على أن الطفل صار أقدر وأطمأن...

أن تعرف ثمن استقلالك

ليس كل مال يأتيك موضع شبهة، وليس كل رفض دليل ورع.
رأينا أحمد يفرق بين اختياره لنفسه وما أجاز له لابنه، ورأينا خوفه
من الصلة التي يصنعها القرب من السلطان. والسؤال الذي يبقى
لنا: هل يطلب هذا المال من ضميري شيئاً لا يظهر في عقده؟

اكتب، قبل قبول عرض مؤثر في حياتك، ما سيطلب منك
بالفعل: عمل واضح، أم مدح لا تعتقده، أم سكوت عن خطأ، أم
إخفاء تضارب مصلحة؟ افصل الأمور بعضها عن بعض. قد يكون
أصل العمل مشروعاً، لكن طريقة تقديمه للناس مضللة. وقد
يكون خوفك مبالغاً فيه ويمكن إزالة سببه بشرط واضح.

ناقش الكلفة مع من ستصيبهم. لا تعلن بطولة الرفض ثم تترك
الزوجة أو الوالدين أو الأولاد يتحملون أثر قرار لم يسمع رأيهم فيه.
إن خبر صالح مع أبيه يذكرنا بأن أهل القدوة أشخاص لهم
حاجات، وأن صدق المقصد لا يغني عن حسن التدبير معهم.

ابدأ بما يعينك على حرية القرار: تقليل نفقة لا تحتاج إليها، أو تنويع مهارة تكسب منها، أو الاتفاق على حدود الدور الذي تقبله، أو الإفصاح عن الصلة لمن يتأثر بها. هذه وسائل تختلف بحسب الأحوال، ولا تستمد مشروعيتها من الحماس وحده؛ ما احتاج حكماً شرعياً أو مهنيّاً متخصصاً رجعت فيه إلى أهله.

راقب بعد القبول أو الرفض أثر قرارك: هل صرت أقدر على قول الحقيقة؟ هل أوفيت بحقوق من معك؟ هل أخفيت تبعة لأن الاعتراف بها يفسد صورتك أمام الناس؟ قد يكون القرار الأول حسناً ويحتاج تنفيذه إلى إصلاح، وقد يظهر بعده ما يوجب مراجعته.

بطاقة القرار: المقابل المعلن... والمقابل غير المعلن الذي أخشاه... والمتأثرون بالقرار... والبديل الواقعي... والشرط الذي إذا لم يقبل اعتذرت... وموعد مراجعة الأثر...

أن ثبت من غير أن تبحث عن الأذى

لا يطلب القارئ سوطاً ليبرهن على صدقه. في يومه مواقف أصغر وأكثر تكراراً: رقم يريد منه مديره أن يغيره، أو شهادة لا يعرف حقيقتها، أو وعد لا يستطيع الوفاء به، أو كلمة يراد أن يقولها في شخص غائب.

خذ مثلاً معاصراً افتراضياً: موظف يطلب منه أن يقدم تقريراً يوحى بأن مشروعاً اكتمل، وهو يعلم أن جزءاً جوهرياً لم ينجز. البداية أن يحدد الوقائع كتابة، ويفرق بين المنجز والمتبقي، ويقترح صياغة صادقة تبين الخطة والموعد. لا يبدأ باتهام نيات الجميع، ولا يقدم الكذب طلباً للراحة.

إن استمر الضغط، طلب المشورة من الجهة المختصة في عمله، وحفظ ما يحق له حفظه من مستندات، واتبع القنوات المشروعة التي تحمي حقه وحق من يعتمد على التقرير. قد يجد حلاً لا يضيع معه العمل ولا الأمانة، وقد يتحمل خسارة. تختلف الوسائل باختلاف البلد والمؤسسة، فلا تنتحل السيرة جواباً قانونياً واحداً لجميع الناس.

من أحمد نتعلم أن يكون للقول أصل يتجاوز رضا صاحب القوة، وأن نفكر فيمن سيتبع قولنا. لكننا نتعلم من خوفه وألمه أيضاً أن الثبات لا يساوي انعدام المشاعر. قد تخاف، وتحتاج إلى نصيح، وتراجع ما تقدر عليه، ثم تختار ألا تقول ما تعلم بطلانه.

راجع نفسك إذا صارت كل مخالفة عندك محنة، أو كل نقد اضطهاداً. ربما أخطأت أنت في التقرير، وربما أسأت فهم الطلب. اطلب الوقائع أولاً، وأعط من يخالفك فرصة البيان. الاستعداد لتصحيح الخطأ يحمي ثباتك من أن يصير عناداً.

بطاقة الموقف: الحقيقة التي أستطيع إثباتها... والعبرة الصادقة التي أقترحها... ومن سيتضرر من التضليل... ومن أستشير... والخطوة النظامية التالية... وما قد يجعلني أراجع فهمي...

أن تعفو دون أن تضيع حق غيرك

عفا أحمد عمن آذاه في نفسه، وطلب إطلاق رجل رفع فيه خبراً باطلاً. كان يستطيع أن يضيف إلى الجرح رغبة في الانتقام، فاختار في هذه المواطن غير ذلك. لكن العفو فعل يتصل بحقوق، وليس كلمة تغلق بها كل قضية.

حدد أولاً: ما الحق الذي تملكه أنت، وما الحق الذي يملكه غيرك؟ قد تختار أن تتجاوز عن إساءة شخصية، ولا تملك أن تسقط أجر عامل أو حق طفل أو مال شريك. وقد تحتاج إلى إيقاف الأذى قبل أن تناقش إمكان الصفح، خاصة إذا كان يتكرر ويصيب غيرك.

في إساءة عابرة بين زميلين، يمكن أن تبدأ ببيان محدد لما وقع وما أثره، وأن تسمع جواب الآخر، ثم تختار تسوية تحفظ الكرامة وتوقف التكرار. لا تجعل العفو ديناً تمن به عليه كلما اختلف معك، ولا تستعمله لتبدو كريماً أمام جمهور.

وقد لا يعتذر من أساء. يبقى لك أن تقلل ما يحتله من ذهنك، وأن تمتنع عن التشهير والاقتراء، وأن تسلك طريق المطالبة

المشروعة إن احتجت. المشاعر لا تتغير بمجرد قرار لفظي؛ وقد يحتاج الألم إلى وقت وإلى دعم. لا تجعل سرعة النسيان امتحاناً تهم به نفسك أو غيرك.

علامة النجاح أن ينقص الأذى، وأن تبقى الحدود واضحة، وأن لا تستخدم ما صار عندك من قوة لترد الظلم بظلم. وإذا عاد الاعتداء، فليس من الوفاء للعفو أن تتركه يستمر بلا معالجة.

بطاقة الحق: حقي الشخصي... وحقوق الآخرين... وحدود الأمان المطلوبة... وما أستطيع الصفح عنه... وما يلزم إيقافه أو رده... وكيف سأعرف أن التسوية أصلحت ولم تستر أذى مستمراً...

أن تحفظ الرحمة في بيتك

قرأنا أحمد يمسح رؤوس الصبيان، ويجب طلب طفل للزيب، ويدعو لأصحابه. وقرأنا كذلك شكوى أهل البيت وضيقهم من بعض اختياراته. القدوة التي تنفعك هي التي تجعلك ترى نفسك في المرأتين معاً: ما ترجوه من خير، وما قد لا تنتبه إليه من كلفة تقع على من يحبونك.

اسأل أهل بيتك سؤالاً لا تدافع بعده مباشرة: ما الشيء الذي يجعل العيش معي أصعب مما ينبغي؟ امنحهم وقتاً، ولا تطلب منهم أن يصوغوا شكواهم في عبارة مثالية قبل أن تسمعها. قد

يذكرون سرعة غضب، أو غياباً، أو وعوداً تؤجلها، أو قرارات تنفرد بها ثم تسميها مصلحة الأسرة.

اختر تغييراً واحداً تستطيع الوفاء به: وقت إصغاء بلا هاتف، أو نفقة تضبطها معهم، أو عملاً منزلياً تتحمله، أو طريقة تعتذر بها إذا أخطأت. دع أثر التغيير يتكلم قبل أن تشرح نيتك. الناس يحتاجون إلى الرحمة التي تصل إليهم، لا إلى كثرة الحديث عن الرحمة التي في قلبك.

وفي تربية النفس على العبادة والعلم، احفظ نصيبهم من وقتك ورفقك. لا تجعل الورد أو الكتاب سبباً لحدة مستمرة، ولا تستعجل أن يقتدي بك الصغير قبل أن يأمن قريك. قد تكون الكلمة اللينة عند تعبك أعظم أثراً فيه من درس حسن يسمعه منك حين تكون مرتاحاً.

بعد أسبوعين اسأل السؤال نفسه. إن لم يروا تغييراً، فابحث عن فعل يمكنهم ملاحظته. وإن أثنوا، فلا تجعل الثناء نهاية العهد. إن السمت عادة تعود مع الأيام، لا موقف تؤديه ثم تستريح إلى ذكراه.

بطاقة البيت: الشكوى التي سمعتها دون مقاطعة... والفعل الذي سأغيره... وحقهم الذي سأحفظه عند انشغالي... ومن سيخبرني بصدق عن النتيجة... وموعد السؤال التالي...

أن تترك علماً يمكن لغيرك أن يحمله

لم يبق علم أحمد لأنه عرف كثيراً فقط؛ بقي لأن أناساً سمعوا وكتبوا، ولأن أجيالاً راجعت ما كتبوا. في عملك علم صغير يمكن أن يضيع برحيلك من مكان، أو بمرضك، أو بنسيانك ما تعلمت.

اختر عملاً يتكرر ويحتاج إليك فيه غيرك، واكتب طريقته بوضوح. بين ما هو ثابت وما يتغير، وما تعرفه عن تجربة وما نقلته، ومن يرجع إليه إذا أشكل أمر. جرب أن يؤدي شخص آخر المهمة من مكتبك، ثم انظر أين توقف. هذا الموضع هو ما يحتاج إلى إصلاح في الشرح. وقد يكون الأثر تعليم قارئ مبتدئ، أو حفظ أوراق عائلة بإذن أصحابها، أو إعداد دليل لخدمة عامة، أو نقل معرفة مهنية إلى زميل جديد. لا يشترط أن يحمل اسمك، ولا أن يصير كتاباً. يكفي أن يخفف عن إنسان كلفة البدء من الصفر.

احفظ حقوق أصحاب المادة. لا تنسب إلى نفسك ما صنعوه، ولا تنقل أسراراً بدعوى أن المعرفة ينبغي أن تنتشر، ولا تجعل التوثيق عقبة شكلية يتجاوزها القارئ بعدك. اكتب المصدر بحيث يستطيع الرجوع إليه، واذكر تاريخ ما قد يتغير.

ثم اترك باب التصحيح مفتوحاً. الأثر الذي لا يقبل المراجعة قد ينشر الخطأ بكفاءة أكبر. وسل من يستعمله: ما الذي لم يعد

صحيحاً؟ ما الذي فهِمتموه على غير مرادي؟ وما الجزء الذي لم
تحتجوا إليه؟

بطاقة الأثر: الحاجة المتكررة... والمستفيد المحدد... وأبسط مادة
نافعة أستطيع إتمامها... ومصادرهما... ومن سيجربها... وطريقة
تحديثها... والحق الذي يجب أن أستاذن صاحبه قبل النشر...

ماذا لو امتلك أدوات عصرنا؟

هذا سؤال نتخيله نحن، ولا نجيب عنه نيابة عن الإمام. لا نعلم ما
الجهاز الذي كان سيختاره، ولا المنصة التي كان سيستخدمها، ولا
الفتوى التي كان سيصدرها في نازلة لم تقع في عصره. نملك أن
نسأل عن إمكان نقل بعض عاداته الثابتة إلى أدوات نعرفها.

رجل يميز السماع من البلاغ يذكر اليوم، على سبيل الاستلham،
الفرق بين قراءة الأصل ورؤية مقتطف منه. ورجل يراجع كتابه
مع سعة حفظه يدعونا إلى أن لا نعامل نتيجة البحث الآلي أو
جواب النموذج اللغوي كأنه شاهد رأى الواقعة. ورجل يكره أن
يتبعه الناس يفتح لنا سؤالاً عن متابعة نطلبها لتخدم معنى، ومتابعة
نصير نحن خدماً لها.

قد نتيح الأداة الحديثة مقارنة نسخ كثيرة في دقائق، لكنها لا
تقرر وحدها أن الطرق مستقلة. وقد تلخص آلاف الصفحات،

لكنها لا تضمن أن الاستثناء بقي في الملخص. وقد تنشر كلمة حق إلى بلاد بعيدة، وتنشر معها خطأ إذا أهمل صاحبها التثبت. استخدم هذه الإمكانيات في عمل محدود: اجمع نسختين من نص متاح، وقارن، وحدد ما لم تفهمه، ثم ارجع إلى أهل الاختصاص. لا تجعل السرعة بدلاً من السؤال الصحيح. وإذا أعانتك الأداة على كتابة مادة، فمسؤولية ما تنشره لا تنتقل إليها؛ أنت الذي يقدمه للناس.

وفي عالم يقيس الحضور بعدد المشاهدات، يمكن أن يبقى لك عمل لا تنشره: دعاء لصاحب، وخدمة لمريض، وتعليم لطفل، وتصحيح خاص لا يحتاج إلى جمهور. ليس كل نافع محتاجاً إلى إعلان، وليس كل خفي أفضل لمجرد خفائه؛ الميزان أن تؤدي العمل بحق وأن تحرس نيتك من أن تصبح الصورة غايته.

عهد صغير بعد الكتاب

لا تجمع هذه المسارات كلها في أسبوع واحد. اختر ما تحتاج إليه الآن، وحدد فعلاً يتم في يومين، ثم راجعه بعد أسبوع، ثم أعطه شهراً. قد يكون أن تعود إلى سؤال أجبت عنه بغير علم، أو أن تستمع إلى شكوى في بيتك، أو أن تبدأ تعلماً طال تأجيله.

اكتب العهد في جملة بسيطة: سأفعل كذا، في هذا الوقت، لمصلحة هذا الإنسان أو هذه الحاجة، وسأعرف أنني تقدمت بهذه

العلامة. اترك الجملة قريبة منك، ولا تجعل إخفاق يوم واحد سبباً
لإلغاء الطريق. عدل المقدار والوسيلة، وابق صادقاً في مراجعة
نفسك.

إذا خرجت من صحبة أحمد بهذا العمل، فقد انتقلت السيرة من
الإعجاب إلى الحياة. ليس عليك أن تحمل اسمه في كل كلمة تقولها.
يكفي أن يظهر بعض ما أحبته فيه في حق تؤديه، وعلم تثبت
منه، ورحمة تصل إلى من معك، وثبات تملك دليله وتعرف تبعته.

مثالان مكتملان من صنع الكاتب

هذا مثال من صنع الكاتب، لا واقعة حقيقية، ليبين كيف تسير
الخطوات.

رجل يعمل في شركة، ويعرف أن تقريراً مالياً يعده قسمه فيه ما
لا يصح، وأن مديره يريد منه أن يوقع عليه. ليس في المسألة خليفة
ولا سياط، لكن فيها ما يشبه: كلمة تطلب منه وهو يعرف أنها
ليست حقاً، وثن إن لم يقلها.

يبدأ بالخطوة الأولى، فيكتب حاجته: أن أمتنع عن التوقيع على ما
أعلم أنه غير صحيح، دون أن أخسر عملي إن أمكن.

ثم يختار معناه من أحمد: أنه لا يقول إلا ما معه عليه دليل. فيسأل نفسه: هل ما في التقرير خطأ أعرفه يقيناً، أم أمر اختلف فيه مع مديري؟ فيراجع الأرقام، فيجد أن ثلاثة منها خطأ بين.

ثم يحدد حدود مسؤوليته والقنوات المناسبة لتصحيح التقرير في جهة عمله، ويحفظ نسخة مما راجعه بحسب الأنظمة التي تلزمه. لا يحسم المثال طريق الإبلاغ في كل مؤسسة؛ فذلك يتغير بحسب الواقعة والمسؤولية والنظام.

فيحدد أول فعل: أن يكتب الأرقام الثلاثة وما يراه صواباً فيها، ويذهب بها إلى مديره يوم الأحد، ويقول: لا أستطيع أن أوقع على هذه الثلاثة، وهذا ما أراه. ويستعين قبل ذلك بصديق في القسم المالي يراجع معه حسابه. ويرتب أمره المالي حتى يعرف كم يستطيع أن يصبر لو تضرر.

ثم يعرض التصحيح ويتابع نتيجته. فإن صححت الأرقام تحقق المقصود، وإن بقي الخلاف رجع إلى جهة المراجعة المختصة ليعرف ما يلزمه. لا تصبح المعلومات غير الصحيحة مقبولة لمجرد أن بعض الأرقام الأخرى صححت.

وبعد شهر يسأل نفسه: هل ذهبت؟ هل انتفع أحد؟ ويسأل صديقه: ماذا رأيت مني؟

المثال الثاني

وهذا مثال آخر من صنع الكاتب أيضاً، لحاجة من نوع آخر. امرأة تعمل معلّمة، وتطلب منها كل عام درجات لطلاب لا يستحقونها، إرضاء لأهلهم أو لمدير يريد أرقاماً حسنة. وقد كانت تفعل ذلك سنين وهي تكره نفسها عليه. حاجتها الواحدة: أن أضع الدرجة التي يستحقها الطالب. وتستحضر من سيرته التثبت وصيانة الأمانة. ثم تفحص نيتها: أتريد أداء حق الطالب أم إظهار صلابتها أمام المدير؟ إصلاح النية مطلوب، لكن عدالة الدرجة تبقى واجباً مهنياً لا يسقط بوجود رغبة في الظهور؛ فتصلح العمل ونيته معاً. وحدودها: ليست مديرة، ولا تملك تغيير النظام، ولها زملاء قد يتضررون إن اشتهرت المسألة، ولها أولاد تعولهم من راتبها. فأول فعل: أن تضع الدرجات الصحيحة لصفها هي هذا الفصل، وتكتب لكل درجة سببها في ورقة، وتبلغ المدير قبل إعلان النتائج أنها لن تغير درجة إلا بسبب يكتب. ومن يعينها: زميلة تثق بها تراجع معها الدرجات، ليعرف أنها عادلة لا قاسية. ثم تنتظر. فإن قبل منها فقد نفع صدقها طلابها الذين استحقوا وطلابها الذين لم يستحقوا على السواء، لأن الذي يعطى ما لا يستحق يخدع. وإن لم يقبل، فقد قالت ما عليها، ولها بعد ذلك أن

تحسب بين أن تبقى تقول وبين أن تنتقل، وتطلب المشورة فيما تملكه من خيارات، مع حفظ حقوق الطلاب ومن تتولى نفقتهم. وفي كلا المثالين لاحظ أن أول فعل كان صغيراً، وأن الذي يطلب من الإنسان هو ما يقدر عليه، وأن أحداً لم يطلب منه أن يضرب.

أسئلة تصحبك في كل باب

إن أردت أن تعود إلى الكتاب باباً باباً، فهذه أسئلة تناسب كل باب، تسألها نفسك لا غيرك، وليس لها جواب صحيح واحد.

في الباب الأول، العالم: ما العالم الذي أعيش فيه أنا؟ أي القوى تضغط على كلمتي: الدولة، أم العمل، أم الأهل، أم الناس في الشبكة؟ وهل أعرف هذا الضغط أم أعيش فيه بلا وعي؟

في الباب الثاني، الصبي والطالب: من الذي أمسك ثوبي قبل الفجر؟ وهل أذكره بخير؟ وهل في حياتي شيء أبدأه قبل أن يؤذن المؤذن، أي قبل أن يبدأ الناس؟ وما الذي نويته حين بدأت ما أنا فيه، وهل بقيت النية؟

في الباب الثالث، المحنة: ما الكلمة التي يطلب مني أن أقولها وأنا أعلم أنها ليست حقاً؟ ومن محمد بن نوح في حياتي، الذي يقول لي:

اثبت، أو يحتاج أن أقوله له؟ وهل أنا في موضع يقتدى بي فيه، فتكون كلمتي لغيري، أم لست فيه فأعرف قدري؟

في الباب الرابع، الإمام العالم: هل أقول لا أدري حين لا أعلم؟ وهل أحكم على الناس بما أعرف عنهم أم بما أسمع؟ وهل أنصف من أخالفه، وأثبت ما له من علم وفضل؟

في الباب الخامس، العابد والإنسان: أين الحد في حياتي بين حظ نفسي وحق الله؟ وأي باب فتحته مرة وأعرف أنه لن يغلق؟ وما الذي أخافه، وهل هو الشيء الصحيح؟

في الباب السادس، الرحيل: ما الذي سأتركه إن مت الليلة؟ وهل علي دين أوصي به؟ وهل في وصيتي ما يشبه وصية أحمد: شهادة، ووصية لأهلي بالعبادة والنصح، ورضا بالله رباً؟

ولا تجب عن هذه الأسئلة كلها في جلسة. سؤال واحد يكفي ليوم.

الملاحق

الملحق الأول: مفاتيح لألفاظ العصر والرواية

تفسر هذه الصفحات ألفاظاً قديمة بقيت في الروايات، وأسماء واصطلاحات تعين على فهمها. يحدد السياق معنى اللفظ إذا احتمل أكثر من استعمال.

في الطريق والبيت

الخلاة والجراب: وعاء يحمل فيه المسافر زاده أو متاعه، وقد يحمل فيه كتبه.

اللَّبنَة: قطعة من الطين المجفف يستعملها الناس في البناء. السُّويق: طعام من حب يمحض ثم يطحن.

الباقلاء: الفول. يرد في أخبار طعام أحمد وأهل بيته.

الخبيص: نوع من الحلوى. لا يحدد الخبر المنقول مكونات ما قدمه أحمد منه.

الكَانُون: موقد يجعل فيه الجمر. ورد في خبر استدفاء أحمد بأصول الشوك.

الغَلَّة: ما يعود من مال أو أرض أو عقار. يراد بها في أخبار أحمد دخل ما كان يكرهه.

الطَّرْز: مواضع تتصل بالنسيج والعمل، وردت فيما خلفه أبوه وما كان يكرهه. والحَاكَة: النساجون.

التَّكَّة: رباط السراويل. ورد استعمال أحمد لها في حمل قيوده عند دخوله على المعتصم.

أم الولد: وصف فقهي تاريخي لامرأة مملوكة ولدت لسيدها. ورد في أخبار حُسن وأولادها من أحمد.

الخَنَوط: ما يطيب به الميت. واللفائف: أثواب يكفن بها.

في الدولة والمدينة

الثَّغْر: موضع عند حدود البلاد يتصل بالحراسة والغزو والرباط، ومن الثغور الواردة في السيرة طرسوس.

العسكر وسر من رأى: من أسماء سامراء أو ما يتصل بمقر الحكم فيها بحسب السياق. ولا يراد بسامراء كل موضع ترد فيه كلمة عسكر.

أصحاب الأخبار: من ينقلون الأخبار إلى السلطة. ورد حضورهم في أخبار مرض أحمد.

البريد والبرُد: نظام نقل الرسائل والأخبار ورجاله. وفي قولهم إن البرد تختلف معنى تتابع الرسائل والرسَل.

الخلعة: ثياب يمنحها السلطان أو صاحب المكانة على وجه التكريم.

أرض السواد: تسمية تاريخية لأراض من العراق تتصل بها أحكام
الفتح والخراج.

في مجالس العلم

السماع: تلقي الرواية من لفظ الشيخ. يختلف قول الناقل «سمعت»
عن قوله «بلغني».

البلاغ: خبر وصل إلى الراوي من غير تصريح في هذا اللفظ بسماعه
من صاحبه مباشرة.

الإسناد: سلسلة ناقلي الخبر. والمتن: الكلام المنقول. والطريق:
سلسلة رواية معينة؛ ولا يجعل تكرر الخبر في كتب متعددة طرقه
مستقلة إذا كانت تنقل من مصدر واحد. والمذاكرة: مراجعة العلم
بين أهله. والإملاء: أن يلقي العالم ما يكتبه عنه السامعون.

المستمل: من يبلغ كلام الشيخ إلى من بعد من الحاضرين.
المسند: كتاب تجمع فيه الأحاديث بحسب الصحابي الذي رواها،
وهو اسم كتاب أحمد المشهور. وجود الحديث فيه لا يعني الحكم
بصحته.

المسائل: أجوبة حفظها من سألوا الإمام. واختلاف الروايات عنه
يحتاج إلى معرفة ألفاظ الأسئلة وسياقها وأحوال نقلها.

العلل: أسباب تؤثر في الحكم على الحديث، يعرفها النقاد بالمقارنة وجمع الطرق. والوقف واللفظ في القرآن: عبارتان من جدل عصر المحنة؛ تتعلق الأولى بالتوقف عن التصريح بالمقالة، والثانية بالفاظ قد تحمل القرآن المقروء وفعل القارئ، ويبين مرادها في سياق كل خبر.

المحنة: الامتحان الرسمي الذي أُلزم فيه الناس بمقالة خلق القرآن وما اتصل به من حبس وتهديد وضرب وتضييق. امتدت آثاره عبر عهود متعددة، ولم تكن حياة أحمد فيه يوم الجلد وحده. الورع ومراتبه: احتراز الإنسان مما يخاف ضرره في الآخرة. يدخل في معناه العام اجتناب الحرام، وهو واجب، ويدخل فيه احتياط مستحب في مواضعه. فلا يسمى ترك الاعتداء على أموال الناس تفضلاً، ولا يجعل ترك مباح بعينه حكماً لازماً لكل أحد. وفي أخبار أحمد يميز القارئ بين حق يجب أدائه وبين مال يتنزه عنه لنفسه مع إباحته لغيره.³⁸⁷

٣٨٧ - ابن القيم، مدارج السالكين، تحقيق محمد المعتمد بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، ط3، 1416 هـ، 2/22-26، منزلة الورع؛ والذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/326، في تنزه أحمد عن مال أباحه لابنه.

الملحق الثاني: المصادر وحدود التحقيق

أصل المادة وحدود هذه الصياغة

تقوم هذه السيرة على أخبار ينقل بعضها الأبناء والأصحاب، ثم تجمعها كتب التراجم والمناقب والتاريخ. ليس قرب الناقل من الإمام ضماناً لكل لفظ في النسخ المتأخرة، ولا تأخر المصنف دليلاً على ضعف كل ما جمع. الحكم يحتاج إلى معرفة الطريق الذي وصل به الخبر، ومقارنة ألفاظه، وفهم ما يرويه صاحبه عن مشاهدة وما يبلغه عن غيره.

اعتمد أصل السيرة روايات صالح وعبد الله وحنبل والمروزي كما حفظتها المصادر، وترجمة الذهبي في «سير أعلام النبلاء» وتعليقاته. وأعيد تحرير السرد في هذه النسخة، مع إبقاء النقول وقيودها ومراجعتها. لا تعد إعادة الصياغة تحقيقاً مستقلاً جديداً لجميع رجال الأسانيد.

تتبع إحالات الجزء الحادي عشر من «السير» ترقيم طبعة مؤسسة الرسالة. وسجلت مراجعة الأصل السابقة مقابلة المواضع المحددة في حواشيتها على الصور، واعتماد طبعة دار السلف الثالثة 1415 هـ من رواية صالح المستقلة. أما طبعة دار الدعوة الثانية 1404 هـ فلا تدعى مقابلتها على الصور. وحين أخذ النقل بواسطة «السير» حفظ لفظه ومصدره ولم يركب من الروايتين نص واحد.

درجات لا ينبغي خلطها

الخبر المشاهد، مثل وصف صالح لتمريض أبيه، يختلف عن خبر ينقله الابن عن أبيه، ويختلف الاثنان عن قول «بلغني» أو «ذكروا». قد يجتمع في خبر طويل أكثر من مستوى، فلا يعطى كله حكم المشاهدة لأن أوله يرويه شخص قريب.

وثبت نسبة كتاب إلى مؤلفه لا يجعل كل حديث مرفوع يورده صحيحاً. في كتب السيرة أحاديث وآثار واستدلالات تحتاج إلى تخرجها الخاص. وإذا نقلنا كلام الإمام في استدلاله، فالغرض أحياناً بيان ما استدل به هو، مع بقاء النظر في درجة الدليل مستقلاً عن صدق نقل موقفه.

أما المعنى المحتمل الذي يستنبطه الكاتب من التصرف، فينبغي أن يظل ظاهراً بوصفه قراءة. وصفنا خوفه من الشهرة على ضوء أقواله المتكررة وكراهته أن يتبعه الناس، ولم نخترع حواراً داخلياً نرويه عنه. ووصفنا ثمن الورع داخل الأسرة على ضوء شكوى أهلها، دون أن نشخص أفرادها تشخيصاً نفسياً لا نملك أدواته.

ولكل من التاريخ والحديث أدوات يشترك بعضها ويفترق بعضه بحسب السؤال. لا يثبت حديث نبوي لمجرد أن معناه حسن، ولا يرد كل خبر تاريخي بلا إسناد تفصيلي قبل فحص مصدره وشواهد وطبيعته. وتشتد الحاجة إلى التثبت حين يبنى على الخبر

حكم ديني أو اتهام شخص أو رسم موقف جوهري في حياة الإمام.

محمد بن نوح

الثابت في الأخبار التي اعتمدها السرد أنه رافق أحمد مقيداً، وثبته بكلام في مسؤوليته أمام الناس، ثم مات في طريق الرجوع. صلى عليه أحمد ودفنه. لا يصح التعبير بأنه مات «مع الإمام» إذا أُوهم ذلك موتهما معاً. وذكر موضع الوفاة على نحو التقريب في بعض طرق الخبر يحمل على قدره؛ فلا تحول الإشارة إلى تحديد جغرافي لا يحتمله النص.^{X³⁸⁸}

وقدمت السيرة قوله وموقفه على إطالة نسبه أو دعوى إحاطة بتفاصيل عمره التي لم تثبت في المادة المعتمدة. بذلك يبقى حاضراً بوصفه صاحب فعل مؤثر، لا مجرد اسم يزين وحدة أحمد في الامتحان.

٣٨٨ — الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/241-242؛ وانظر رواية حنبل في ذكر المحنة.

بقي بن مخلد وقصة زي السائل

صلة بقي بأحمد مذكورة في ترجمته، وفي صدرها أنه أخذ عنه مسائل وفوائد. لكن قصة الزي لها طرق وألفاظ تحتاج إلى فصل. أورد الذهبي صيغة مختصرة في حصول نحو ثلاثمائة حديث، ثم قال: «هذه حكاية منقطعة». وأورد الحكاية المطولة، ثم أنكرها وناقش زمن الوصول وزمن انقطاع الإمام عن التحديث.³⁸⁹ X

ومن أجل أن يرى القارئ موضع الاختلاف، ثبتت الحكاية المطولة التالية بوصفها رواية أنكرها الذهبي، لا واقعة معتمدة في السرد. بقاء القصة في هذا الملحق لا يرفع عنها هذا الحكم، ولا يجعل جمال معناها دليلاً على صحتها:

ونقل بعض العلماء من كتاب الحفيد بقي عبد الرحمن بن أحمد: سمعت أبي يقول: رحل أبي من مكة إلى بغداد، وكان رجلاً بغيته ملاقة أحمد بن حنبل. قال: فلما قربت بلغتني المحنة، وأنه ممنوع، فاغتممت غماً شديداً، فاحتلت بغداد، واكتريت بيتاً في فندق، ثم أتيت الجامع وأنا أريد أن أجلس إلى الناس، فدفعت إلى حلقة نبيلة، فإذا برجل يتكلم في الرجال، فقليل لي: هذا يحيى بن معين. ففرجت لي فرجة، فقممت إليه، فقلت: يا أبا زكريا -: رحمك الله -

رجل غريب ناء عن وطنه، يحب السؤال، فلا تستجفني، فقال:
قل. فسألت عن بعض من لقيته، فبعضا زكى، وبعضا جرح،
فسألت عن هشام بن عمار، فقال لي: أبو الوليد، صاحب صلاة
دمشق، ثقة، وفوق الثقة، لو كان تحت ردائه كبر، أو متقلدا
كبرا، ما ضره شيئا لخيره وفضله، فصاح أصحاب الحلقة: يكفيك
-رحمك الله -غيرك له سؤال.

فقلت -وأنا واقف على قدم: اكشف عن رجل واحد: أحمد بن
حنبل، فنظر إلي كالمتعجب، فقال لي: ومثلنا، نحن نكشف عن
أحمد؟! ذاك إمام المسلمين، وخيرهم وفاضلهم. فخرجت أستدل
على منزل أحمد بن حنبل، فدللت عليه، فقرعت بابه، فخرج إلي.
فقلت: يا أبا عبد الله: رجل غريب، نائي الدار، هذا أول دخولي
هذا البلد، وأنا طالب حديث ومقيد سنة، ولم تكن رحلي إلا
إليك، فقال: ادخل الأصطوان ولا يقع عليك عين. فدخلت،
فقال لي: وأين موضعك؟ قلت: المغرب الأقصى. فقال: إفريقية؟
قلت: أبعد من إفريقية، أجوز من بلدي البحر إلى إفريقية، بلدي
الأندلس، قال: إن موضعك لبعيد، وما كان شيء أحب إلي من
أن أحسن عون مثلك، غير أنني ممتحن بما لعله قد بلغك. فقلت:
بلى، قد بلغني، وهذا أول دخولي، وأنا مجهول العين عندكم، فإن
أذنت لي أن آتي كل يوم في زي السؤال، فأقول عند الباب ما
يقوله السؤال، فتخرج إلى هذا الموضع، فلو لم تحدثني كل يوم إلا

بحديث واحد، لكان لي فيه كفاية. فقال لي: نعم، على شرط أن لا تظهر في الخلق، ولا عند المحدثين. فقلت: لك شرطك، فكنت آخذ عصا بيدي، وألف رأسي بخرقة مدنسة، وآتي بابه فأصيح: الأجر -رحمك الله- والسؤال هناك كذلك، فيخرج إلي، ويعلق، ويحدثني بالحديثين والثلاثة والأكثر، فالتزمت ذلك حتى مات الممتحن له، وولي بعده من كان على مذهب السنة، فظهر أحمد، وعلت إمامته، وكانت تضرب إليه آباط الإبل، فكان يعرف لي حق صبري، فكنت إذا أتيت حلقتة فسح لي، ويقصص على أصحاب الحديث قصتي معه، فكان يناولي الحديث مناولة ويقرؤه علي وأقرؤه عليه، واعتلت في خلق معه. ذكر الحكاية بطولها. نقلها القاسم بن بشكوال في بعض تأليفه، ونقلتها أنا من خط شيخنا أبي الوليد بن الحاج، وهي منكرة، وما وصل ابن مخلد إلى الإمام أحمد إلا بعد الثلاثين ومائتين، وكان قد قطع الحديث من أثناء سنة ثمان وعشرين، وما روى بعد ذلك ولا حديثا واحدا، إلى أن مات ولما زالت المحنة سنة اثنتين وثلاثين، وهلك الواقف، واستخلف المتوكل، وأمر المحدثين بنشر أحاديث الرؤية وغيرها، امتنع الإمام أحمد من التحديث، وصمم على ذلك، ما عمل شيئا غير أنه كان يذاكر بالعلم والأثر، وأسماء الرجال والفقه، ثم لو كان بقي سمع منه

ثلاثمائة حديث، لكان طرز بها "مسنده"، وافتخر بالرواية عنه. فعندي مجلدان من "مسنده"، وما فيهما عن أحمد كلمة.³⁹⁰

سبب عدم تحويلها إلى مشهد يقيني ليس استبعاد أن يعين العالم طالباً غريباً؛ ذلك معنى تشهد له أخلاقه في أخبار أخرى. إنما السبب أن هذه الحادثة المحددة تحتاج إلى طريق يثبتها، وأن الناقد نبه إلى إشكالها. توافق القصة مع صورة نجبها لا يعوز عن دليلها.

السفر إلى إسحاق بعد المحنة

شاع خبر أن أحمد سافر إلى إسحاق بن راهويه بعد المحنة ليعفيه من مشقة المجيء إليه. حكم الذهبي على الحكاية التي أوردها في هذا الباب بأنها موضوعة، ولذلك لم تدخل في السيرة بوصفها فعلاً وقع.³⁹¹ X

ولا يعني إسقاطها نفي الصداقة أو التوقير بين الرجلين؛ إنما يمنعنا أن نبني درساً في الوفاء على واقعة حكم الناقد بوضعها. الوفاء له

٣٩٠ — سير أعلام النبلاء، 292/13-295؛ النص متبوع بتعقب الذهبي.

٣٩١ — الذهبي، سير أعلام النبلاء، 321/11-322.

شواهد الأخرى في الدعاء للأصحاب وحفظ أقدارهم وترك
المفاخرة عليهم.

الخوارق المضافة إلى مشهد الضرب

أورد الذهبي أخباراً عن ارتفاع السراويل أو ظهور يد تشده، وأنكر بعضها وصرح بعدم صحة بعضها، واشتد في نقد ما رأى أنه خرافة.³⁹² لم تدرج هذه المشاهد في وصف المحنة. وحفظت بدلاً منها الرواية التي يذكر فيها أحمد أنه شد الثوب قبل المجلس خشية التعري؛ وهي أليق بفهم تدييره البشري وحرصه على الستر. X
وكذلك خبر خروج المروذي ليرى الناس يحملون الصحف والمحابر وينتظرون جواب أحمد، وصفه الذهبي بالانقطاع.³⁹³ لم نجعله الدليل على مسؤولية أحمد العامة؛ فهذه المسؤولية ظاهرة في كلام محمد بن نوح وفي شهرة الإمام وآثار الامتحان.

٣٩٢ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/255-256.

٣٩٣ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/253-254، قال: «فهذه حكاية منقطعة». حذف الاعتماد عليها في إثبات المشهد، وحفظ حكم الناقد بلفظه دون ترقيته إلى حكم بالوضع.

المال والورع

لا تجمع روايات الأموال في عبارة «لم يقبل مالا قط». منها ما رده، ومنها ما وزعه، ومنها ما جرى على أهله، ومنها ما أذن لابنه أن يحج به مع تنزهه عنه لنفسه. وفي كل خبر سؤال عن الجهة والوقت والتصرف اللاحق.³⁹⁴ X

وفي المائة المذكورة في رواية حنبل، كان المال عند حنبل فحمله أبوه إلى أحمد؛ فلا ينسب بمجرد تشابه الأسماء إلى عطية من إسحاق بن إبراهيم الوالي. إسحاق عم أحمد، والد حنبل، شخص غير إسحاق بن إبراهيم صاحب بغداد. الخلط بينهما يغير معنى القصة كله.

والورع في كلام أهل العلم يشمل مرتبة واجبة في ترك الحرام، ومراتب من الاحتياط فيما يخشى ضرره. لذلك لا تعرض إعادة مال الغير كأنها فضيلة اختيارية، ولا يحمل تنزه أحمد عن مال أجاز له لابنه على تحريم عام. لكل واقعة حكمها وسياقها.

تواريخ الحبس والوفاة

وردت تقديرات مختلفة لمدة الحبس وتعيين بعض سنوات الضرب والإطلاق. ولهذا اقتصر السرد في المواضع التي لا تحتاج الرقم على

التسلسل الذي نتفق عليه الأخبار: امتحان في أواخر عهد المأمون، ثم حبس ومجالس وضرب في عهد المعتصم، ثم منع في عهد الواثق، ثم تغير السياسة في عهد المتوكل. لا يحل اختلاف العدد بإسقاط رواية بلا بيان أو بتركيب رقم متوسط.

وفي الوفاة اتفقت المصادر المعتمدة على سنة إحدى وأربعين ومائتين، وعلى ربيع الأول ويوم الجمعة في الأخبار المذكورة، واختلفت في العدد من الشهر. وفي حجم الجنازة نقلت تقديرات، فحفظ السرد كثرة الجمع ولم يحول التقدير إلى إحصاء.

بعد رفع المحنة

يجب التفريق بين التحديث العام برواية الأحاديث على تمامها، والمذاكرة، والفتوى، وتعليم الابن جواب مسألة. أخبار انقطاع أحمد عن التحديث لا تفسر كلها باعتزال العلم، وأخبار اتصاله بأصحابه لا تكفي لرسم حلقة عامة مستمرة في كل سنة. وفي هذا التفريق أهمية خاصة عند مناقشة قصة بقي بن مخلد.³⁹⁵ X

٣٩٥ — الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/309-11/310، 11/276-11/277، 11/265؛

293/13-295.

ما لا تدعيه هذه النسخة

هذه سيرة أدبية تاريخية موثقة الإحالات، وليست طبعة نقدية مستقلة لجميع مرويات الإمام. لم تقع مراجعة بشرية متخصصة يزعم الكتاب الحصول عليها، ولا تعني كثرة أسماء الكتب في خريطة البحث أنها قرئت كاملة أو أن كل خبر فيها صحيح.

أما التطبيقات الختامية فمن اقتراح المؤلف للقارئ اليوم. ووصف المرض والعلاج في الأخبار جزء من التاريخ، وليس تشخيصاً أو وصفة طبية.

الملحق الثالث: خط زمني

نسوق أهم المحطات بالتاريخ الهجري. وما اختلفت فيه الروايات يذكر على جهة التقريب أو يحال إلى مناقشته، ولا تحمل تواريخ الجدول على ضبط يومي لجميع الوقائع.

من 145 إلى 149: بناء بغداد في عهد المنصور.

158: المهدي يلي الخلافة.

164، ربيع الأول في المشهور: مولد أحمد ببغداد؛ قدمت أمه من مرو وهي حامل به، ومات أبوه شاباً.³⁹⁶

169: ولاية الهادي. 170: ولاية هارون الرشيد.

179: ابتداء سماع أحمد من هشيم؛ وفي هذه السنة توفي مالك بن أنس.

من 180 إلى 182: من سماعه من عباد بن عباد والطفراوي وإبراهيم بن سعد.

183: وفاة هشيم، ثم خروج أحمد إلى الكوفة. وتتابعت رحلاته إلى البصرة والحجاز وغيرهما. 185: الكتابة عن أبي نعيم.³⁹⁷

187: من أوائل حجته ولقائه سفيان بن عيينة. ولقي الشافعي بمكة، ولا نجزم هنا بسنة لقاءهما الأولى.

193: وفاة الرشيد وولاية الأمين. 198: مقتل الأمين بعد حصار بغداد، واستقرار الخلافة للهاشميون.

٣٩٦ — الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/178-180، في نسب أحمد ومولده وقدم أمه من مرو؛ وليس موضعه 11/264.

٣٩٧ — الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/183-187، 307-308، في ابتداء الطلب وتواريخ السماع والرحلة.

نحو 198 إلى 199: الرحلة إلى عبد الرزاق باليمن؛ تختلف الأخبار في تعيين وقتها وبعض مدتها.

في نحو الأربعين من عمره: زواجه وبداية أخبار أسرته. يروى عنه أنه تزوج وهو ابن أربعين، وتذكر التراجم مولد صالح سنة 203؛ فيحفظ اختلاف هذه البيانات ولا يصنع منها يوم جازم. نحو 209: من أخبار خروجه إلى الشام وطرسوس، حين كان صالح صغيراً.

213: مولد عبد الله؛ وفي هذه السنة ذكر أبو حاتم لقاءه أحمد أول مرة.

218: رسائل المأمون بامتحان الناس، وحمل أحمد ومحمد بن نوح مقيدين. مات المأمون في رجب، وولي المعتصم، ثم ردا؛ وتوفي محمد بن نوح في طريق الرجوع. ولا يجزم هنا بتاريخ مستقل لوفاته. في عهد المعتصم: حبس أحمد ومناظرته وضربه ثم إطلاقه؛ يرد تعيين سنة 220 ومدة تقارب ثمانية وعشرين شهراً في بعض الأخبار، وفي التأريخ خلاف سبق بيانه. 221: إنشاء سامراء مقراً للحكم.

من 222 إلى 223: الظفر ببابك وفتح عمورية. وربطت بعض الأخبار عفو أحمد عن المعتصم بأحد الفتحين؛ فلا يعين للعفو تاريخ قاطع.

227: وفاة المعتصم وولاية الواثق. وفي عهده منع أحمد من الاجتماع بالناس واختفى مدة. 231: قتل أحمد بن نصر الخزاعي.

232: وفاة الواثق وولاية المتوكل؛ ثم تغيرت سياسة الدولة ورفع الامتحان بالقول بخلق القرآن. 234: وفاة علي بن المديني.

237: من أخبار استدعائه إلى سامراء والعطاء الجاري على أهله وتحفظه منه. ولا تجعل هذه السنة بداية كل امتناعه عن التحديث العام؛ فقد تقدمت أخبار المنع والانقطاع.

238: وفاة إسحاق بن راهويه. 240: وفاة أحمد بن أبي دؤاد.

241، ربيع الأول: مرض أحمد ووفاته يوم الجمعة؛ والمشهور الثاني عشر من الشهر، وفي تعيين يوم الشهر اختلاف. دفن بعد العصر، وقد استكمل سبعا وسبعين سنة.

266: وفاة صالح بأصبهان. 290: وفاة عبد الله ببغداد. 311: وفاة الخلال جامع مسائل الإمام.

الملحق الرابع: تعريف موجز بأعلام الكتاب

مرتبون على الحروف. والتاريخ بعد الاسم تاريخ الوفاة بالهجري حيث عرف.

إبراهيم بن سعد الزهري (183): محدث مدني نزل بغداد، من
شيوخ أحمد.

إبراهيم الحربي (285): من أصحاب أحمد، محدث لغوي زاهد.
ابن أبي دؤاد، أحمد (240): قاضي القضاة، معتزلي، مدير المحنة
في زمن المعتصم والواثق.

ابن أبي يعلى (526): مؤلف طبقات الحنابلة.
ابن الجوزي (597): مؤلف مناقب الإمام أحمد، حنبلي واسع
التصنيف.

ابن الجعد، علي (230): محدث بغدادي أجاب في المحنة.
ابن راهويه، إسحاق (238): إمام خراسان، صديق أحمد وقرينه.
ابن عيينة، سفيان (198): شيخ الحرم المكي في الحديث، من
شيوخ أحمد.

ابن كثير (774): مؤرخ دمشق، مؤلف البداية والنهاية.
ابن المديني، علي (234): إمام العلل، قرين أحمد، أجاب في المحنة
ثم ندم.

ابن مهدي، عبد الرحمن (198): إمام البصرة في نقد الحديث،
كتب عنه أحمد نحو عشرة آلاف.

ابن معين، يحيى (233): من أئمة نقد الرجال، وصاحب أحمد،
أجاب في المحنة.

ابن نوح، محمد: صاحب أحمد ورفيقه في القيد، مات في طريق
الرجوع؛ وفي تعيين موضع الوفاة تفصيل سبق بيانه.
أبو بكر بن عياش (193): قارئ الكوفة ومحدثها، بكر إليه أحمد
صبيها.

أبو حاتم الرازي (277): إمام الري في الجرح والتعديل، لقي
أحمد سنة 213.

أبو داود السجستاني (275): صاحب السنن، من أخص تلاميذ
أحمد، روى مسأله.

أبو زرعة الرازي (264): حافظ الري، روى عن أحمد كلامه في
الرجال وموقفه ممن أجاب.

أبو عبيد القاسم بن سلام (224): إمام في اللغة والفقه، قال:
انتهى العلم إلى أربعة.

أبو نصر التمار (228): محدث بغدادى صالح أجاب في المحنة، لم
يشهد أحمد جنازته.

أبو نعيم الفضل بن دكين (219): محدث الكوفة، كتب عنه
أحمد سنة 185.

أبو يوسف القاضي (182): صاحب أبي حنيفة، أول قاضي
القضاة، أول من اختلف إليه أحمد.

أحمد بن نصر الخزاعي (231): محدث بغدادى قتله الواثق
وصلب.

الأثرم، أبو بكر (261 أو نحوها): من أصحاب أحمد، حافظ، روى
مسائله.

إسحاق بن إبراهيم (235): صاحب شرطة بغداد وواليتها، الذي
أدار امتحان الناس في زمن المأمون والمعتصم.

إسحاق بن حنبل: عم أحمد ووالد حنبل، حضر بعض أخبار المحنة
والعطاء.

إسحاق بن هانئ (275): من أصحاب أحمد، صاحب المسائل.
الأمين، محمد بن هارون (198): الخليفة، قتل في فتنته مع أخيه.

البخاري، محمد بن إسماعيل (256): صاحب الصحيح، دخل
بغداد ثمانى مرات يجالس أحمد.

بشر الحافي (227): زاهد بغدادى.

بغا الكبير (248): قائد تركى من قواد المعتصم، حمل أحمد في
الليلة الرابعة.

بقي بن مخلد (276): محدث الأندلس، رحل إلى المشرق ولقي أحمد.

البويطي، يوسف بن يحيى (231): صاحب الشافعي بمصر، مات في قيوده في المحنة.

الخلال، أبو بكر (311): جامع مسائل أحمد وعلومه بعد جيل من موته.

الخطيب البغدادي (463): مؤرخ بغداد ومحدثها، مؤلف تاريخ بغداد.

الذهبي (748): مؤلف سير أعلام النبلاء؛ جمع أخبار أحمد ونقد عدداً من رواياتها.

الرشيد، هارون (193): الخليفة الذي مضى فيه شباب أحمد. ريحانة: زوجة أحمد الثانية، من قرابته، أم عبد الله.

زهير بن صالح: حفيد أحمد، روى خبر زوجاته وأولاده.

سجادة، الحسن بن حماد (241): محدث بغدادي امتنع في أول المحنة ثم أجاب.

سعيد بن أحمد: أصغر أولاد أحمد، ولد قبل موته بنحو خمسين يوماً.

الشافعي، محمد بن إدريس (204): إمام الفقه والأصول، صاحب أحمد ومحبه.

صالح بن أحمد (266): أكبر أولاد أحمد، راوي سيرته والمسائل، ولي قضاء أصبهان.

صالح الرشيدى: مؤدب المعتصم الذي عاقبه لمخالفته في القرآن. الطبري، محمد بن جرير (310): مؤرخ ومفسر، في تاريخه أخبار المحنة ورسائل المأمون.

الطفاوي، محمد بن عبد الرحمن (نحو 187): من شيوخ أحمد البصريين.

عباد بن عباد المهلبى (نحو 181): من شيوخ أحمد البصريين. عباسه بنت الفضل: زوجة أحمد الأولى، أم صالح، من أهل الرضى.

عبد الرحمن بن إسحاق: من المتكلمين الذين ناظروا أحمد في مجلس المعتصم.

عبد الرزاق بن همام (211): محدث اليمن، صاحب المصنف، رحل إليه أحمد.

عبد الله بن أحمد (290): ابن أحمد، راوي المسند والعلل، ومن أكثر من حفظ علم أبيه.

عبد الوهاب الوراق (250 أو نحوها): من أصحاب أحمد.

عمر بن هارون البلخي (194): محدث أكثر عنه أحمد ثم ترك الرواية عنه.

غندر، محمد بن جعفر (193): صاحب شعبة، نسخ أحمد حديثه من كتبه.

الفضل بن غانم: قاض ورد اسمه في رواية امتحان العلماء في أول المحنة.

القطيعي، أبو بكر (368): راوي المسند عن عبد الله بن أحمد. القواريري، عبيد الله بن عمر (235): محدث بغدادي امتنع في أول المحنة ثم أجاب.

قتيبة بن سعيد (240): محدث خراسان؛ ورد اسمه في رواية الطبري عن الممتحنين.

الكوسج، إسحاق بن منصور (251): جمع مسائل أحمد وإسحاق. المأمون، عبد الله بن هارون (218): الخليفة الذي بدأ المحنة. المتوكل، جعفر بن المعتصم (247): الخليفة الذي رفع المحنة، وأجرى على أهل أحمد العطاء.

محمد بن حنبل: أبو أحمد، من الجند، مات شاباً.

محمد بن عبد الله بن طاهر (253): أمير بغداد، صلى على أحمد.

محمد بن يحيى الذهلي (258): محدث نيسابور، قام إليه أحمد.

- المروزي، أبو بكر (275): أخص أصحاب أحمد، روى الورع وأخبار الشيوخ.
- المزني (264): صاحب الشافعي بمصر.
- المعتصم، محمد بن هارون (227): الخليفة الذي وقع ضرب أحمد في عهده.
- الميموني، عبد الملك (274): من أصحاب أحمد، حفظ أقواله وهيئته.
- نعيم بن حماد (228 أو 229): محدث مروزي نزل مصر، مات في سجن سامراء في المحنة.
- هشيم بن بشير (183): محدث بغداد، شيخ أحمد الأول.
- الواثق، هارون بن المعتصم (232): الخليفة الذي منع أحمد وقتل أحمد بن نصر.
- وكيع بن الجراح (197): محدث الكوفة وفقهها، أكثر من كتب عنه أحمد.
- يحيى بن أكثم (242): قاض ورجل دولة، أراد أن يحمل أحمد على التحديث.
- يحيى بن سعيد القطان (198): إمام البصرة في نقد الحديث، من شيوخ أحمد.

المراجع

أ. المصادر التي اعتمد عليها في الفصول السردية

القرآن الكريم؛ وقد ذكرت السور والآيات في مواضع الاستشهاد. الذهبي، «سير أعلام النبلاء»، طبعة مؤسسة الرسالة، بإشراف شعيب الأرنؤوط، ترجمة الإمام أحمد في الجزء الحادي عشر، وترجمة المتوكل في الجزء الثاني عشر، وترجمة بقي بن مخلد في الجزء الثالث عشر. اعتمد النص الإلكتروني المعروض في مكتبة إسلام ويب مع أرقام صفحاته، وقوبلت مواضع معينة على صورة الجزء الحادي عشر من طبعة مؤسسة الرسالة؛ ولا تدعى مقابلة جميع الكتاب على الصور.

صالح بن أحمد بن حنبل، «سيرة الإمام أحمد بن حنبل»، تحقيق فؤاد عبد المنعم أحمد، دار السلف، الرياض، الطبعة الثالثة، 1415هـ/1995م. سجلت المراجعة السابقة اعتماد صورة هذه الطبعة ومقابلة النقول المباشرة الطويلة، ومنها الوصية ص 105 وأخبار الوزير والوفاة ص 118-125. والنقول المأخوذة من «السير» تبقى محالة إلى لفظه وصفحاته، مع بيان الفروق عن رواية صالح.

ب. ما رواه الإمام ومن قرب منه

صالح بن أحمد بن حنبل (ت 266): سيرة الإمام أحمد بن حنبل. حنبل بن إسحاق (ت 273): ذكر محنة الإمام أحمد بن حنبل. عبد الله بن أحمد (ت 290): العلل ومعرفة الرجال؛ السنة؛ زوائد المسند. أبو بكر المروزي (ت 275): أخبار الشيوخ وأخلاقهم؛ الورع. أبو داود السجستاني (ت 275): مسائل الإمام أحمد. إسحاق بن إبراهيم بن هاني (ت 275): المسائل. إسحاق بن منصور الكوسج (ت 251): مسائل الإمام أحمد وإسحاق بن راهويه. أبو بكر الخلال (ت 311): السنة؛ وما نقل من كتابه أخلاق أحمد. أحمد بن حنبل: المسند، طبعة مؤسسة الرسالة بإشراف شعيب الأرنؤوط.

ج. كتب التراجم والتاريخ

ابن أبي حاتم الرازي (ت 327): الجرح والتعديل؛ آداب الشافعي ومناقبه. ابن عدي (ت 365): الكامل في ضعفاء الرجال. أبو نعيم الأصبهاني (ت 430): حلية الأولياء. الخطيب البغدادي (ت 463): تاريخ بغداد. ابن أبي يعلى (ت 526): طبقات الحنابلة، تحقيق محمد حامد الفقي. ابن الجوزي (ت 597): مناقب الإمام أحمد؛ صفة الصفوة. ابن النجار (ت 643): ذيل تاريخ بغداد. المزي (ت 742): تهذيب الكمال.

الذهبي (ت 748): سير أعلام النبلاء، طبعة مؤسسة الرسالة، تحقيق شعيب الأرنؤوط وزملائه؛ العبر في خبر من غبر؛ تاريخ الإسلام. ابن كثير (ت 774): البداية والنهاية. الطبري (ت 310): تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط2، 1387هـ/1967م؛ قولت رسائل المحنة وأخبار امتحان المحدثين على صور 8/631-645. ابن القيم (ت 751): إعلام الموقعين عن رب العالمين؛ اجتماع الجيوش الإسلامية، فصل قول الإمام أحمد وأصحابه. ابن حجر (ت 852): فتح الباري، افتتاح كتاب الإكراه. ابن تيمية (ت 728): مجموع الفتاوى.

د. مصادر ودراسات مساعدة

الجامع لعلوم الإمام أحمد، جمع فريق من الباحثين، دار الفلاح. ومقدمات طبعة مؤسسة الرسالة للمسند. ومن المصادر المتصلة بخصائص المسند: كتاب أبي موسى المديني «خصائص المسند». وتُطلب بيانات الدراسات المعينة في منهج الإمام النقدي من هوامش مواضعها؛ ولا تقوم الإشارة العامة إلى دراسات العصر مقام توثيق خبر بعينه.

هـ. المصحف والحديث

تُراجع الاستشهادات القرآنية على رواية حفص عن عاصم، ويرجع في تخريج الأحاديث وأحكامها إلى المصادر المعينة في الهوامش. ولا يدل وجود الخبر في كتاب السيرة، أو صحة طريق الرسالة التي نقلته، على صحة جميع الأخبار الواردة فيها.

و. مصادر التخريج المستدركة

الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن، «المسند المعروف بسنن الدارمي»، تحقيق حسين سليم أسد الداراني، دار المغني، الطبعة الأولى، 1421هـ/2000م. صور الجزء الأول أصل إحالات 1/342 و387-390. وأما رقم 3355 في باب القرآن كلام الله فبحسب العرض النصي في المكتبة الإسلامية، وقد صرح بذلك في حاشيته؛ فلا يخلط ترقيم العرض بترقيم الطبعة المصورة.

ابن الضريس، محمد بن أيوب، «فضائل القرآن»، تحقيق غزوة بدير، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، 1408هـ/1987م؛ استعمل رقم 193 في موازنة أثر آية الكرسي.

الجورقاني، الحسين بن إبراهيم، «الأباطيل والمناكير والصحاح والمشاهير»، تحقيق عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائي، دار الصميعي بالرياض ومؤسسة دار الدعوة التعليمية الخيرية بالهند،

الطبعة الرابعة، 1422هـ/2002م. استعمل النص الإلكتروني
لباب آية الكرسي، الأرقام 706-709؛ وبيانات الطبعة من بطاقة
الكتاب، لا ادعاء مقابلة نسخته المصورة كاملة.

عبد الرزاق الصنعاني، «المصنف»، كتاب الجامع، الأرقام 20099
و20368؛ استعمل النص الإلكتروني في المكتبة الإسلامية، مع
الفصل بين لفظه ولفظ الرسالة. موضعاهما في ترقيمه: 11/125
و11/216-218. لم تستعمل صورة طبعة جديدة لتصحيح لفظ
«يحيفوا/يحتقوا».

ابن أبي شيبه، «المصنف»، كتاب فضائل القرآن؛ استعمل النص
العربي في موقع السنة، وترقيم عرضه للأرقام 29579 و29660،
لا رقم طبعة ورقية مفترضة. يثبت اسم الباب والطريق مع الرقم
لتيسير تعقب اختلاف الترقيم.

ابن الأثير، «الكامل في التاريخ»، مراجعة محمد يوسف الدقاق، دار
الكتب العلمية، الجزء السادس، ص5؛ استعملت صورته في
مقابلة الاسم الوارد بخبر الطبري، دون تعميم المطابقة على سائر
الأخبار.

اللالكائي، «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة»، النص
الإلكتروني في المكتبة الإسلامية، الأرقام 218 و221 و248.
الخلال، «السنة»، النص الإلكتروني في ويكي مصدر، الجزء

السابع، الأرقام 1956 و1962 و1963 و1965. ابن بطة، «الإبانة الكبرى»، عرض مكتبة إسلام ويب، رقم 1245. هذه إحالات إلى نسخ نصية معينة وليست نسبة إلى طبعات مصورة لم تقابل.

ابن عبد البر، «جامع بيان العلم وفضله»، باب ما يكره فيه المناظرة والجدال والمراء؛ النص الإلكتروني بمكتبة أهل البيت، الموضوع الذي أوله «حدثنا سعيد بن نصر» وفيه طريق حماد بن زيد عن ابن عون عن إبراهيم. يستفاد منه في إثبات الطريق، وتفصل بياناته عن رقم 2/134 المحال إليه بواسطة الدراسة الآتية.

أسعد بن فتحى الزعتري، «الآثار الواردة عن السلف في العقيدة من خلال كتب المسائل المروية عن الإمام أحمد»، ص 269-271، عرض المكتبة الشاملة؛ استعملت دراسته في تمييز الحكم المنقول على الطرق من مجرد وجودها في المصدر. وما نقله عن محققى الشريعة وجامع بيان العلم نسب إليه بوصفه واسطة النقل.

ز. تعقب النسخ الإلكترونية

إحالات السير والبداية والنهاية والإبانة ومجموع الفتاوى وإعلام الموقعين التي نصت الحواشي على عرض إسلام ويب تتبع ترقيم ذلك العرض، إلا ما صرح بمقابلته على صورة طبعة محددة. لا يبدل رقمها برقم طبعة أخرى لمجرد اتفاق العنوان. وتبقى أوصاف

الكتب العامة في الفقرات السابقة تعريفًا بمصادر السيرة؛ أما
الاحتجاج بخبر بعينه فرجعه حاشيته المحددة.
روابط المصادر المستدركة: المصنفان:
sunnah.com/ibnabishayba/23
وislamicbook.ws/hadeth/msnf-abd-alrzaq-017.html
الدارمي: islamicbook.ws/hadeth/snn-aldarmi-005.html
اللالكائي: islamicbook.ws/ageda/aatqad-ahl-alsnt-
allalkaei-001.html؛ دراسة الآثار:
shamela.ws/book/585/260 إلى 262. تاريخ الاطلاع: 8
أكتوبر 2026.

وثائق المحنة — رسائل المأمون كما رواها الطبري

ذكر خبر المحنة بالقرآن: وفي هذه السنة كتب المأمون إلى إسحاق بن إبراهيم في امتحان القضاة والمحدثين، وأمر بإشخاص جماعة منهم إليه إلى الرقة؛ وكان ذلك أول كتاب كتب في ذلك، ونسخة كتابه إليه: أما بعد؛ فإن حق الله على أئمة المسلمين وخلفائهم الاجتهاد في إقامة دين الله الذي است حفظهم، وموارث النبوة التي أورثهم، وأثر العلم الذي استودعهم، والعمل بالحق في رعيتهم والتشجيع لطاعة الله فيهم، والله يسأل أمير المؤمنين أن يوفقه لعزيمة الرشد وصريمته والإقسط فيما ولاه الله من رعيته برحمته ومنته.

وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشو الرعية وسفلة العامة ممن لا نظر له ولا روية ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته والاستضاءة بنور العلم وبرهانه في جميع الأقطار والآفاق أهل جهالة بالله، وعمى عنه، وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده والإيمان بالله.

ونكوب عن واضحات أعلامه وواجب سبيله، وقصور أن يقدرُوا الله حق قدره، ويعرفوه كنه معرفته، ويفرقوا بينه وبين خلقه، لضعف آرائهم ونقص عقولهم وجفائهم عن التفكير والتذكر؛ وذلك أنهم ساووا بين الله تبارك وتعالى وبين ما أنزل من القرآن،

فأطبقوا مجتمعين، واتفقوا غير متعاجمين، على أنه قديم أول لم يخلقه الله ويحدثه ويخترعه، وقد قال الله عز وجل في محكم كتابه الذي جعله لما في الصدور شفاءً، وللمؤمنين رحمةً وهدى: ”إنا جعلناه قرآنًا عربيًّا“، فكل ما جعله الله فقد خلقه، وقال: ”الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور“، وقال عز وجل: ”كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق“، فأخبر أنه قصص لأمر أحدثه بعدها وتلا به متقدمها، وقال: ”الر، كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير“، وكل محكم مفصل فله محكم مفصل، والله محكم كتابه ومفصله؛ فهو خالقه ومبتدعه.

ثم هم الذين جادلوا بالباطل فدعوا إلى قولهم، ونسبوا أنفسهم إلى السنة، وفي كل فصل من كتاب الله قصص من تلاوته مبطل قولهم، ومكذب دعواهم، يرد عليهم قولهم ونحلتهم.

ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحق والدين والجماعة، وأن من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة، فاستطالوا بذلك على الناس، وغرروا به الجهال حتى مال قوم من أهل السميت الكاذب، والتخشع لغير الله، والتقشف لغير الدين إلى موافقتهم عليه، ومواطأتهم على سيئ آرائهم، تزييناً بذلك عندهم وتصنعاً للرياسة والعدالة فيهم، فتركوا الحق إلى باطلهم، واتخذوا دون الله وليجة إلى ضلالتهم، فقبلت بتزكيتهم لهم شهادتهم، ونفذت أحكام الكتاب بهم على دغل دينهم، ونغل أديهم، وفساد نياتهم ويقينهم.

وكان ذلك غايتهم التي إليها أجروا، وإياها طلبوا في متابعتهم والكذب على مولاهم، وقد أخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق، ودرسوا ما فيه، أولئك الذين أصمهم الله وأعمى أبصارهم، ” أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها “.

فرأى أمير المؤمنين أن أولئك شر الأمة ورءوس الضلالة، والمنقوصون من التوحيد حظاً، والمخسوسون من الإيمان نصيباً، وأوعية الجهالة وأعلام الكذب ولسان إبليس الناطق في أوليائه، والهائل على أعدائه؛ من أهل دين الله، وأحق من يتهم في صدقه، وتطرح شهادته، لا يوثق بقوله ولا عمله؛ فإنه لا عمل إلا بعد يقين، ولا يقين إلا بعد استكمال حقيقة الإسلام، وإخلاص توحيده، ومن عمي عن رشد وحظه من الإيمان بالله وتوحيده؛ كان عما سوى ذلك من عمله والقصد في شهادته أعمى وأضل سبيلاً.

ولعمر أمير المؤمنين إن أجحى الناس بالكذب في قوله، وتخرص الباطل في شهادته، من كذب على الله ووحيه، ولم يعرف الله حقيقة معرفته، وإن أولاهم برد شهادته في حكم الله ودينه من رد شهادة الله على كتابه، وبهت حق الله بباطله.

فاجمع من بحضرتك من القضاة، وقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك، فابدأ بامتحانهم فيما يقولون وتكشيفهم عما يعتقدون،

في خلق الله القرآن وإحداثه، وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله، ولا واثق فيما قلده الله، واستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه وخلوص توحيده وبقينه؛ فإذا أقرؤا بذلك ووافقوا أمير المؤمنين فيه، وكانوا على سبيل الهدى والنجاة. فمرهم بنص من يحضرهم من الشهود على الناس ومسألتهم عن علمهم في القرآن، وترك إثبات شهادة من لم يقر أنه مخلوق حدث ولم يره، والامتناع من توقيعها عنده.

واكتب إلى أمير المؤمنين بما يأتيك عن قضاة أهل عملك في مسألتهم؛ والأمر لهم بمثل ذلك؛ ثم أشرف عليهم وتفقد آثارهم حتى لا تنفذ أحكام الله إلا بشهادة أهل البصائر في الدين والإخلاص للتوحيد، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون في ذلك. إن شاء الله. وكتب في شهر ربيع الأول سنة ثمان عشرة ومائتين.

الكتاب الثاني إلى إسحاق بن إبراهيم

وكتب المأمون بعد ذلك إلى إسحاق بن إبراهيم: أما بعد، فإن من حق الله على خلفائه في أرضه، وأمنائه على عبادته، الذين ارتضاهم لإقامة دينه، وحملهم رعاية خلقه وإمضاء حكمه وسننه والائتمام بعدله في بريته، أن يجهدوا لله أنفسهم، وينصحوا له فيما استحفظهم وقلدهم، ويدلوا عليه - تبارك اسمه وتعالى - بفضل العلم الذي أودعهم، والمعرفة التي جعلها فيهم، ويهدوا إليه من زاغ

عنه، ويردوا من أدبر عن أمره، وينهجوا لرعاياهم سمت نجاحهم، ويقفوههم على حدود إيمانهم وسبيل فوزهم وعصمتهم ويكشفوا لهم مغطيات أمورهم ومشتبهاتها عليهم، بما يدفعون الريب عنهم، ويعود بالضياء والبينة على كافتهم، وأن يؤثروا ذلك من إرشادهم وتبصيرهم، إذ كان جامعاً لفنون مصالحهم، ومنتظماً لحظوظ عاجلتهم وأجلتهم، ويتذكروا ما الله مرصد من مساءلتهم عما حملوه، ومجازاتهم بما أسلفوه وقدموا عنده، وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله وحده، وحسبه الله وكفى به.

ومما بينه أمير المؤمنين برويته، وطالعه بفكره، فتبين عظيم خطره، وجليل ما يرجع في الدين من وكفه وضرره، وما ينال المسلمين بينهم من القول في القرآن الذي جعله الله إماماً لهم، وأثراً من رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفيه محمد صلى الله عليه وسلم باقياً لهم، واشتباهاه على كثير منهم؛ حتى حسن عندهم، وتزين في عقولهم ألا يكون مخلوقاً، فتعرضوا بذلك لدفع خلق الله الذي بان به عن خلقه، وتفرد بجلالته؛ من ابتداع الأشياء كلها بحكمته وإنشائها بقدرته، والتقدم عليها بأوليته التي لا يبلغ أولاهها، ولا يدرك مداها؛ وكان كل شيء دونه خلقاً من خلقه، وحدثاً هو المحدث له؛ وإن كان القرآن ناطقاً به ودالاً عليه، وقاطعاً للاختلاف فيه، وضاهوا به قول النصارى في دعائهم في عيسى بن مريم: إنه ليس بمخلوق؛ إذ كان كلمة الله، والله عز وجل يقول:

” إنا جعلناه قرآناً عربياً “، وتأويل ذلك أنا خلقناه كما قال جل جلاله: ” وجعل منها زوجها ليسكن إليها ” وقال: ” وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً “، ” وجعلنا من الماء كل شيء حي ” فسوى عز وجل بين القرآن وبين هذه الخلائق التي ذكرها في شية الصنعة، وأخبر أنه جاعله وحده، فقال: ” بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ ” فدل ذلك على إحاطة اللوح بالقرآن، ولا يحاط إلا بمخلوق، وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم: ” لا تحرك به لسانك لتعجل به ” وقال: ” ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث ” وقال: ” ومن أظلم ممن اقترى على الله كذباً أو كذب بآياته ” وأخبر عن قوم ذمهم بكذبهم أنهم قالوا: ” ما أنزل الله على بشر من شيء ” ثم أكذبهم على لسان رسوله فقال لرسوله: ” قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى “، فسمى الله تعالى القرآن قرآناً وذكرنا وإيماناً ونوراً وهدى ومباركاً وعربياً وقصصاً، فقال: ” نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن “، وقال: ” قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله “.

وقال: ” قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات “.

وقال: ” لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ” فجعل له أولاً وآخراً، ودل عليه أنه محدود مخلوق وقد عظم هؤلاء الجهلة بقولهم في القرآن الثلم في دينهم، والخرج في أمانتهم، وسهلوا السبيل

لعدو الإسلام، واعترفوا بالتبديل والإلحاد على قلوبهم حتى عرفوا
ووصفوا خلق الله وفعله بالصفة التي هي لله وحده، وشبهوه به،
والاشتباه أولى بخلقه، وليس يرى أمير المؤمنين لمن قال بهذه
المقالة خطأً في الدين، ولا نصيباً من الإيمان واليقين، ولا يرى أن
يحل أحداً منهم محل الثقة في أمانة، ولا عدالة ولا شهادة ولا
صدق في قول ولا حكاية، ولا تولية لشيء من أمر الرعية، وإن
ظهر قصد بعضهم، وعرف بالسداد مسدد فيهم؛ فإن الفروع
مردودة إلى أصولها، ومحمولة في الحمد والذم عليها؛ ومن كان جاهلاً
بأمر دينه الذي أمر الله به من وحدانيته فهو بما سواه أعظم
جهلاً، وعن الرشد في غيره أعمى وأضل سبيلاً.

فاقرأ على جعفر بن عيسى وعبد الرحمن بن إسحاق القاضي كتاب
أمير المؤمنين بما كتب به إليك، فانصصهما عن علمهما في القرآن،
وأعلمهما أن أمير المؤمنين لا يستعين على شيء من أمور المسلمين
إلا بمن وثق بإخلاصه وتوحيده، وأنه لا توحيد لمن لم يقر بأن
القرآن مخلوق فإن قالوا بقول أمير المؤمنين في ذلك، فتقدم إليهما
في امتحان من يحضر مجالسهما بالشهادات على الحقوق، ونصهم
عن قولهم في القرآن؛ فمن لم يقل منهم إنه مخلوق أبطلاً شهادته، ولم
يقطعاً حكماً بقوله؛ وإن ثبت عفافه بالقصد والسداد في أمره.

وافعل ذلك بمن في سائر عملك من القضاة، وأشرف عليهم إشرافاً
يزيد الله به ذا البصيرة، ويمنع المرتاب من إغفال دينه، واكتب
إلى أمير المؤمنين بما يكون منك في ذلك. إن شاء الله.

الجواب على مقالات الممتحنين

بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد؛ فقد بلغ أمير المؤمنين كتابك
جواب كتابه الذي كان إليك فيما ذهب إليه متصنعة أهل القبلة
وملتمسو الرئاسة، فيما ليسوا له بأهل من أهل الملة من القول في
القرآن، وأمرك به أمير المؤمنين من امتحانهم، وتكشيف أحوالهم
وإحلالهم محالهم.

تذكر إحضارك جعفر بن عيسى وعبد الرحمن بن إسحاق عند ورود
كتاب أمير المؤمنين مع من أحضرت ممن كان ينسب إلى الفقه،
ويعرف بالجلوس للحديث، وينسب نفسه للفتيا بمدينة السلام،
وقراءتك عليهم جميعاً كتاب أمير المؤمنين، ومساءلتك إياهم عن
اعتقادهم في القرآن، والدلالة لهم على حظهم، وإطباقهم على نفي
التشبيه واختلافهم في القرآن، وأمرك من لم يقل منهم إنه مخلوق
بالإمساك عن الحديث والفتوى في السر والعلانية، وتقدمك إلى
السندي وعباس مولى أمير المؤمنين بما تقدمت به فيهم إلى
القاضيين

بمثل ما مثل لك أمير المؤمنين من امتحان من يحضر مجالسهما من الشهود، وبث الكتب إلى القضاة في النواحي من عملك بالقدوم عليك، لتحملهم وتمتحنهم على ما حده أمير المؤمنين، وثبيتك في آخر الكتاب أسماء من حضر ومقالاتهم، وفهم أمير المؤمنين ما اقتضت.

وأمير المؤمنين يحمد الله كثيراً كما هو أهله ويسأله أن يصلي على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، ويرغب إلى الله في التوفيق لطاعته، وحسن المعونة على صالح نيته برحمته. وقد تدبر أمير المؤمنين ما كتبت به من أسماء من سألت عن القرآن، وما رجع إليك فيه كل امرئٍ منهم، وما شرحت من مقالاتهم.

فأما ما قال المغرور بشر بن الوليد في نفي التشبيه، وما أمسك عنه من أن القرآن مخلوق، وأدعى من تركه الكلام في ذلك واستعهاد أمير المؤمنين؛ فقد كذب بشر في ذلك وكفر، وقال الزور والمنكر، ولم يكن جرى بين أمير المؤمنين وبينه في ذلك ولا في غيره عهد ولا نظر أكثر من إخباره أمير المؤمنين من اعتقاده كلمة الإخلاص، والقول بأن القرآن مخلوق، فادع به إليك، وأعلمه ما أعلمك به أمير المؤمنين من ذلك، وأنصحه عن قوله في القرآن، واستتبه منه؛ فإن أمير المؤمنين يرى أن تستتيب من قال بمقالته؛ إذ كانت تلك المقالة الكفر الصراح، والشرك المحض عند أمير المؤمنين؛ فإن تاب منها فأشهر أمره، وأمسك عنه؛ وإن أصر

على شركه، ودفع أن يكون القرآن مخلوقاً بكفره وإلحاده، فاضرب عنقه، وابعث إلى أمير المؤمنين برأسه؛ إن شاء الله.

وكذلك إبراهيم بن المهدي فامتحنه بمثل ما تمتحن به بشراً؛ فإنه كان يقول بقوله. وقد بلغت أمير المؤمنين عنه ببالغ؛ فإن قال: إن القرآن مخلوق فأشهر أمره واكشفه؛ وإلا فاضرب عنقه وابعث إلى أمير المؤمنين برأسه؛ إن شاء الله.

وأما علي بن أبي مقاتل، فقل له: ألسنت القائل لأمر المؤمنين: إنك تحلل وتحرم، والمكلم له بمثل ما كلمته به؛ مما لم يذهب عنه ذكره! وأما الذيال بن الهيثم؛ فأعلمه أنه كان في الطعام الذي كان يسرقه في الأنبار وفيما يستولي عليه من أمر مدينة أمير المؤمنين أبي العباس ما يشغله؛ وأنه لو كان مقتنياً آثار سلفه، وسالكاً مناهجهم، ومحتدياً سبيلهم لما خرج إلى الشرك بعد إيمانه.

وأما أحمد بن يزيد المعروف بأبي العوام، وقوله إنه لا يحسن الجواب في القرآن، فأعلمه أنه صبي في عقله لا في سنه، جاهل، وأنه إن كان لا يحسن الجواب في القرآن فسيحسنه إذا أخذه التأديب، ثم إن لم يفعل كان السيف من وراء ذلك؛ إن شاء الله.

وأما أحمد بن حنبل وما تكتب عنه؛ فأعلمه أن أمير المؤمنين قد عرف فحوى تلك المقالة وسبيله فيها، واستدل على جهله وآفته بها. وأما الفضل بن غانم؛ فأعلمه أنه لم يخف على أمير المؤمنين ما كان

منه بمصر، وما اكتسب من الأموال في أقل من سنة، وما شجر بينه وبين المطلب بن عبد الله في ذلك؛ فإنه من كان شأنه شأنه، وكانت رغبته في الدينار والدرهم رغبته، فليس بمستكر أن يبيع إيمانه طمعاً فيهما، وإيثراً لعاجل نفعهما، وأنه مع ذلك القائل لعلي بن هشام ما قال، والمخالف له فيما خالفه فيه؛ فما الذي حال به عن ذلك ونقله إلى غيره! وأما الزيادي، فأعلمه أنه كان منتحلاً، ولا كأول دعي كان في الإسلام خولف فيه حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان جديراً أن يسلك مسلكه، فأنكر أبو حسان أن يكون مولى لزياد أو يكون مولى لأحد من الناس؛ وذكر أنه إنما نسب إلى زياد لأمر من الأمور.

وأما المعروف بأبي نصر التمار؛ فإن أمير المؤمنين شبه خساسة عقله بخساسة متجره.

وأما الفضل بن الفرخان، فأعلمه أنه حاول بالقول الذي قاله في القرآن أخذ الودائع التي أودعها إياه عبد الرحمن بن إسحاق وغيره تربصاً بمن استودعه، وطمعاً في الاستئثار لما صار في يده، ولا سبيل عليه عن تقادم عهده وتطاول الأيام به، فقل لعبد الرحمن بن إسحاق: لا جزاك الله خيراً عن تقويتك مثل هذا وأتمانك إياه، وهو معتقد للشرك منسلخ من التوحيد.

وأما محمد بن حاتم وابن نوح والمعروف بأبي معمر؛ فأعلمهم أنهم مشاغيل بأكل الربا عن الوقوف على التوحيد، وأن أمير المؤمنين لم يستحل محاربتهم في الله ومجاهدتهم إلا لإربائهم، وما نزل به كتاب الله في أمثالهم، لاستحل ذلك، فكيف بهم قد جمعوا مع الإرباء شركاً، وصار للنصارى مثلاً! وأما أحمد بن شجاع؛ فأعلمه أنك صاحبه بالأمس، والمستخرج منه ما استخرجته من المال الذي كان استحلّه من مال علي بن هشام؛ وأنه ممن الدينار والدرهم دينه.

وأما سعدويه الواسطي، فقل له: قبح الله رجلاً بلغ به التصنع للحديث، والتزين به، والحرص على طلب الرئاسة فيه؛ أن يتمي وقت المحنة، فيقول بالتقرب بها متى يمتحن، فيجلس للحديث! وأما المعروف بسجادة، وإنكاره أن يكون ممن كان يجالس من أهل الحديث وأهل الفقه القول بأن القرآن مخلوق، فأعلمه أنه في شغله بإعداد النوى وحكه لإصلاح سجداته وبالودائع التي دفعها إليه علي بن يحيى وغيره ما أذهله عن التوحيد وأهله، ثم سلّه عما كان يوسف بن أبي يوسف ومحمد بن الحسن يقولانه؛ إن كان شاهدهما وجالسهما. وأما القواريري؛ ففيما تكشف من أحواله وقبوله الرشا والمصانعات، ما أبان عن مذهبه وسوء طريقته وسخافة عقله ودينه؛ وقد انتهى إلى أمير المؤمنين أنه يتولى لجعفر بن عيسى

الحسني مسائله، فتقدم إلى جعفر بن عيسى في رفضه، وترك الثقة به والاستئناس إليه.

وأما يحيى بن عبد الرحمن العمري؛ فإن كان من ولد عمر بن الخطاب، فجوابه معروف.

وأما محمد بن الحسن بن علي بن عاصم، فإنه لو كان مقتدياً بمن مضى من سلفه، لم ينتحل النحلة التي حكيته عنه، وإنه بعد صبي يحتاج إلى تعلم.

وقد كان أمير المؤمنين وجه إليك المعروف بأبي مسهر بعد أن نصه أمير المؤمنين عن محتته في القرآن، فجمجم عنها ولجلج فيها، حتى دعا له أمير المؤمنين بالسيف، فأقر ذميماً، فأنصصه عن إقراره؛ فإن كان مقيماً عليه فأشهر ذلك وأظهره؛ إن شاء الله.

ومن لم يرجع عن شركه سميت لأمر المؤمنين في كتابك، وذكره أمير المؤمنين لك، أو أمسك عن ذكره في كتابه هذا؛ ولم يقل إن القرآن مخلوق، بعد بشر بن الوليد وإبراهيم بن المهدي فاحملهم أجمعين موثقين إلى عسكر أمير المؤمنين، مع من يقوم بحفظهم وحراستهم في طريقهم؛ حتى يؤديهم إلى عسكر أمير المؤمنين، ويسلمهم إلى من يؤمن بتسليمهم إليه، لينصهم أمير المؤمنين؛ فإن لم يرجعوا ويتوبوا حملهم جميعاً على السيف، إن شاء الله، ولا قوة إلا بالله.

وقد أنفذ أمير المؤمنين كتابه هذا في خريطة بندارية؛ ولم ينظر به اجتماع الكتب الخرائطية، معجلاً به، تقرباً إلى الله عز وجل بما أصدر من الحكم ورجاء ما اعتمد، وإدراكاً لما أمل من جزيل ثواب الله عليه؛ فأنفذ لما أتاك من أمير المؤمنين، وعجل إجابة أمير المؤمنين بما يكون منك في خريطة بندارية مفردة عن سائر الخرائط، لتعرف أمير المؤمنين ما يعملونه إن شاء الله.

وكتب سنة ثمان عشرة ومائتين.